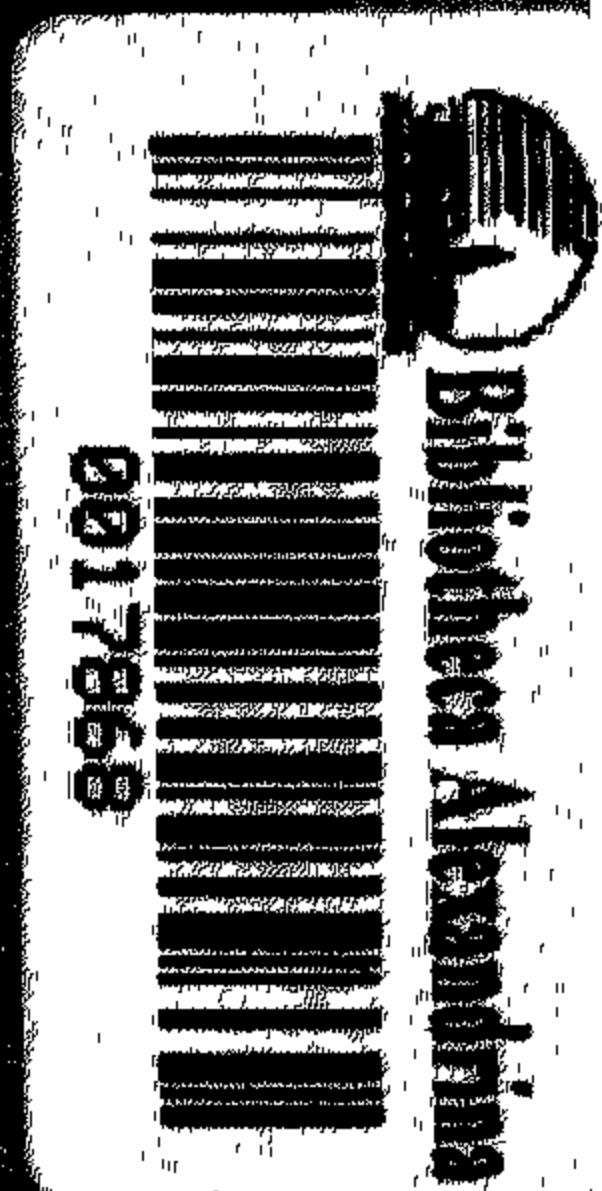
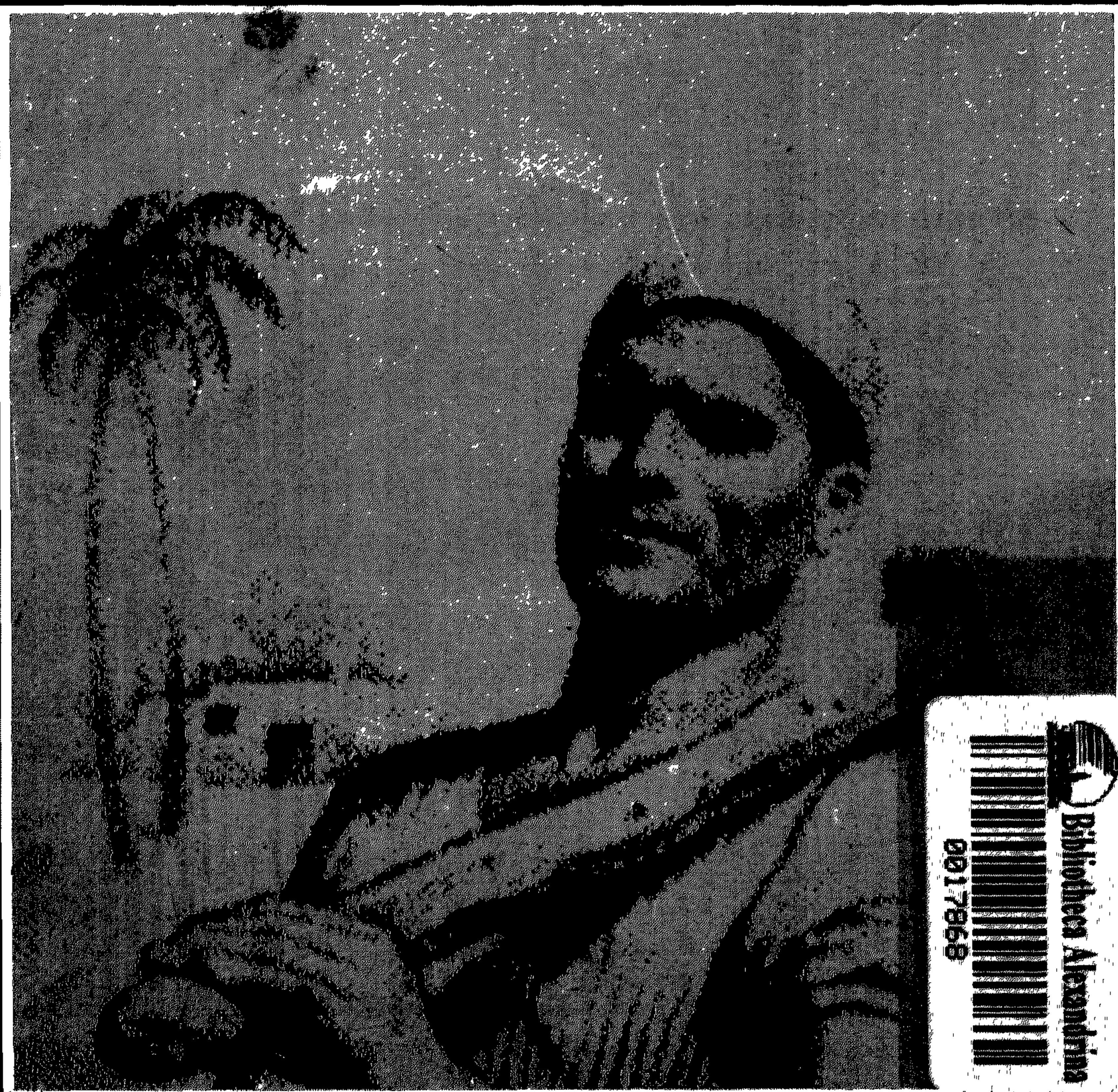


د. فتحي عبد الفتاح



الناصريّة

وتجربة الثورة من أعلى
لمسائل الذريعة



الناسِكة
وتجربة الشورة من أعلى
للمسألة الزرارية

الطبعة الأولى

القاهرة — ١٩٨٧

جميع الحقوق محفوظة



القاهرة: ش.م.ل. ش.م.ل.ب. - رقم ٤٢/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الشامية



الناصرية

وتجربة الثورة من أعلى
لمسائل الذريعة

د. فتحي عبد الفتاح

تقديم

قدم الباحث من خلال رسالته حول الإجراءات الاصلاحية في مصر في ظل الرئيس عبد الناصر اضافات ملموسة عن الأبحاث الاشتراكية حول حركات التحرر في دول آسيا وأفريقيا ، كما يعتبر عمله اسهاما في تلمس عملية التطور الاجتماعى في العالم العربى .

ويعكس البحث المقدم ، ليس فقط التمكن العلمى للباحث ، بل وبشكل خاص خبرته السياسية العملية في مجال البحث ، الأمر الذى أعطى للبحث العلمى أبعاداً أوسع في تناوله لتطور المجتمع المصرى منذ ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

إن الأهمية الخاصة للعمل المقدم تكن من وجهة النظر الأكاديمية ، في التناول النقدى للتطورات التى طرأت على المجتمع المصرى فى أعقاب اسقاط الملكية ، من خلال مناقشة علمية للانجازات التى حققها الشعب المصرى ، وكذلك تجربته العميقة تحت حكم الرئيس جمال عبد الناصر ، وفى نفس الوقت طرح الأسباب الموضوعية والذاتية التى أدت إلى تحديد وتحجيم هذه التطورات والانجازات ، الأمر الذى وفر لنا قاعدة علمية لفهم التطورات التى حدثت فى مصر بعد وفاة عبد الناصر ، والتخلص من الجناح اليسارى الناصرى فى مايو سنة ١٩٧١ ، والتغير الحاد الذى حدث فى توجهات التطور الثورى فى مصر فى ظل الرئيس السادات واتجاهه إلى الرأسمالية ..

وفى الفصل الأول طور الباحث مفهومنا عن الأوضاع فى القرية المصرية والمجتمع المصرى بشكل عام ، وذلك من خلال تناول تاريخى لتطور هذه الأوضاع مع محاولة جادة لتلمس الملامح الخاصة له . وهى مقدمة علمية متميزة مهدت بشكل جيد للقضية الرئيسية التى يتناولها .

(☆) تقرير المشرف على الرسالة الدوفسور آرمين بيرنر ، استاذ قسم دراسات الشرق الأوسط - جامعة ليبزج .

وفي الفصل الثاني ركز الباحث على تناول الإجراءات التي اتخذت في مجال الإصلاح الزراعي مع رصد لمراحل التطور المختلفة ، سواء بالنسبة لطبيعة القوانين نفسها أم بالنسبة للتطبيقات العملية ، وشرح التوجيهات الأساسية لسياسة الإصلاح ومنطلقاته من وجهة نظر حكومة الرئيس عبد الناصر .

ويمكن جوهر البحث حقيقة في الفصلين الثالث والرابع حيث تناول الباحث فيها أثر وانعكاس الاجراءات الإصلاحية التي اتخذت في علاقات ووسائل وقوى الانتاج ، والتطور الذي طرأ على القوى العاملة في الزراعة ، وتوزيع الدخل ، وقدم مجموعة واسعة من الاحصائيات والبيانات التي حاول فيها أن يؤكد وجهة نظره ، وأثار الباحث هنا قضايا عديدة وجديدة تستحق المناقشة منها :

● أثر التعويضات التي قدمت للملاك على تطور علاقات الانتاج .

● النتائج الحقيقية لقوانين تنظيم الإيجارات .

● تطور التعاونيات الزراعية .

● مغزى الهجرة الداخلية للقوى العاملة .

ونذكر من خلال تناول الباحث لهذه القضية خبرته النظرية والعملية الواسعة في هذا المجال ، خاصة أنه شخصيا كان له دور وتجربة سياسية توضع في الاعتبار في نضاله من أجل دفع التقدم والتطور في الريف المصري .

إن المراجع الجديدة والمصادر المتعددة ثم الدراسات الميدانية التي شارك فيها تزيد الاحساس لدينا بأهمية العمل المقدم كسهام جاد وجديد ليس فقط بالنسبة لتطور المشكلة الزراعية في مصر بل وتمس المنطلقات الأساسية لتلك المشكلة في الدول العربية والدول النامية بشكل عام ..

وقد حدد الباحث ملامح رئيسية للاجراءات الإصلاحية الناصرية تتفق معه عليها :

١ - مثلت قوانين الإصلاح ضربة حادة ثقيلة بالنسبة للاقطاع ولكن ذلك لم يرتبط بتحرير كامل للفلاحين . ولقد استفادت الجماهير الفلاحية العاملة من هذه الاجراءات ، ولكن الاستفادة الاساسية ذهبت لاغنياء الفلاحين والبورجوازية الريفية .

٢ - التمسك التقليدي بمبدأ توسيع قاعدة الملكية الخاصة في الأرض مثلما نص على ذلك ميثاق العمل الوطني الصادر سنة ١٩٦٢ ، حال دون إجراء تغييرات جذرية في العلاقات الاجتماعية في الريف .

٣ - مارست الادارة تنفيذ قوانين الإصلاح « من فوق » دون مشاركة فعالة لحركة جماهيرية فلاحية واسعة تعمل « من تحت » الأمر الذي لم يؤدي إلى استقلالية ودعم مواقع المعدمين وعمال الزراعة وفقراء الفلاحين سواء من الناحية الايديولوجية أو من الناحية السياسية والاقتصادية .

وهذه النتائج التي توصل اليها الباحث من خلال تقديم مواد ومعلومات واسعة ومتنوعة ، وخاصة الهوامش المميزة ، انعكست أيضا على الفصل الخامس الذي تناول فيه التقسيم والتمايز الطبقي والاجتماعي في الريف .

ولكن يبقى لنا هنا بعض الملاحظات والتساؤلات ، أرجو أن يتناولها الباحث أثناء « الدفاع » (أي

المناقشة (:

١ - فقد أشار الباحث إلى أن الاصلاح الزراعى الناصرى لم يؤد إلى تحرير وانعتاق كامل للفلاحين ، وقد كان من الممكن أن يكتسب هذا العمل بعداً أوسع لو أن الباحث تناول بتفاصيل أكثر خط التطور الرأسمالى الذى انتهجته البورجوازية الصغيرة المصرية والآثار المترتبة على ذلك فى المدينة والقرية .

٢ - لدى التعرض للجوانب السلبية فى التجربة ، لم يعط الباحث أهمية كبيرة للتصاعد المكثف للامبريالية العالمية ضد التجربة الناصرية وانعكاس ذلك على تطور التجربة نفسها ، كما أنه لم يشرح ماذكره ، بسرعة ، من الآثار السلبية التى ترتبت على العدوان الاسرائيلى ضد مصر سنة ١٩٦٧ وانعكاس ذلك على وقف أو الحد من التطورات الاجتماعية والاقتصادية .

٣ - هناك عدم تحديد غموض فى بعض الأسس التى اعتمدها الباحث فى تناوله للتقسيم الطبقي فى الريف .

ولعل الباحث يشرح لنا مرة أخرى أثناء الدفاع مفهومه عن :

أ - البورجوازية الزراعية .

ب - أغنياء الفلاحين .

ج - البورجوازية الزراعية المتوسطة .

٤ - فى الفصل الخامس ، وفى الجزء الخاص بالطبقة العاملة الزراعية ، لم يقدم الباحث الأسباب والأسس الموضوعية للدور الهام والخطير لهذه الطبقة الثورية العربية ، لقد أعتنى الباحث بتوصيف أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية البائسة دون الاحساس بأى تميز عن دور الفقراء الفلاحين مثلاً .

٥ - فى النتائج النهائية التى توصل لها الباحث ، تحدث الباحث عن دفع التطور الرأسمالى بكل عام ، ولم يتعرض للملامح الخاصة للاجراءات التى اتخذت بعد سنة ١٩٦١ والتى يرى البعض أنها تميزت عن المرحلة السابقة بتوجهات اشتراكية .

ومع كل هذه الملاحظات فإننا نعتقد أن هذه الرسالة تقدم إسهاماً متميزاً فى الدراسات العلمية حول قضايا التطور بالنسبة لحركات التحرر ودول العالم الثالث ، وقد أثبت الباحث جدارته وكفاءته العلمية فى العمل المقدم .

الفصل الأول

علاقات الملكية والانتاج قبل الإصلاح الزراعي

كان قانون الاصلاح الزراعى من الناحية العملية أول خطوة اتخذتها السلطة الجديدة التى أمسكت بزمام الأمور فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فقد أعلن القانون بعد ٤٥ يوما من قيام تنظيم الضباط الأحرار بطرد الملك فاروق . وحتى صدور القانون لم تكن الأهداف الحقيقية لحركة الضباط الجدد واضحة ، فقد طرد فاروق ولكن ابنه الطفل أعلن ملكا على مصر ، كما أن التغيير الوزارى تم فى إطار الدائرة التقليدية ، ولا يمكن القطع بأن رئيس الوزراء الذى أتى به الضباط كان أفضل من سابقه ، كما أن التغيرات فى بعض قيادات الجيش كانت محدودة ، بالإضافة إلى الحديث عن التغيير الهادى كل ذلك دفع الكثير من المراقبين إلى الاعتقاد بأن الحركة الجديدة محدودة للغاية فى أهدافها ، وأنه لا يمكن ، بأى حال من الأحوال ، توقع تغيير ، راديكالى (١) .

وبعد أسابيع قليلة كان لصدور قانون الاصلاح الزراعى مغزى كبير وبعد صدور القانون بيومين ، وبسببه استقالت وزارة على ماهر ، كما أعلن الكثير من السياسيين والشخصيات القيادية فى الأحزاب العلنية الموجودة على الساحة معارضتهم للقانون ، بل أن أحدهم تجاوز مرحلة المعارضة إلى التمرد المسلح ضده ، فقد تصدى « عدلى للموم » المالك الكبير ومن ورائه عائلته ذات النفوذ فى محافظة المنيا ومعه مئات من الرجال المسلحين ، للسلطة الجديدة وأعلن أنه لن يترك هذا القانون يمر ، كما أبدى كثير من المراقبين المختصين دهشتهم للضجة السياسية العالية التى أثارها صدور قانون الاصلاح الزراعى ، فلقد رأوا فيه قانونا ليبراليا ، وبشكل خاص توفيقيا ، مثله مثل كثير من القوانين التى كانت قد صدرت بالفعل فى عديد من البلدان الرأسمالية والبلدان النامية (٢) ولقد لاحظت الاستاذة البريطانية « دورين وارنر » المتخصصة فى الاقتصاد السياسى ، وبدهشة ، أن هذا القانون قد أثار هذه الضجة الكبيرة ، بالرغم من أنه لايس سوى ١٠ ٪ من الأراضى الزراعية ، وبالرغم من أنه قد تقرر صرف تعويضات عالية للملاك وبفائدة مرتفعة (٢-٤) فى حين أعلن آخرون أن ذلك القانون جاء متخلفا عن التوقعات والأفكار التى كانت مطروحة على الساحة (٥) تلك الأفكار والمشروعات التى طرحها ، قبل سنة ١٩٥٢ ، كثير من المثقفين المصريين كان بينهم بعض كبار الملاك (٦) ، فى حين ذهب البعض إلى القول بأن هذا القانون جاء موافقا « للنمط الأمريكى » فى الاصلاحات الزراعية .

وقبل الدخول في تحليل علمي لموضوعي للتطورات والتغيرات التي أعقبت قانون الاصلاح الزراعى ، فإنه من الضروري التعرض للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة ، وتلمس بعض القسّمات والملامح الخاصة لتطور المجتمع المصرى ، وخاصة في الريف ، قبل ثورة سنة ١٩٥٢ .

الملكية الخاصة في الأرض

١ - ظروف تاريخية :

تنتمى مصر إلى عدد من البلدان التي لم تعرف الملكية الخاصة للأرض بمعناها الحقيقى إلا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر (أبريل سنة ١٨٩١) . وفي حضارتها الزراعية القديمة كان الملك (فرعون) هو مالك الأرض والكل يزرعها باسمه ، وقد فرضت هذا النظام عدة عوامل تاريخية وجغرافية : مثل النيل من ناحية ، والصحراء من ناحية أخرى ، حدوداً صارمة للمصريين فرضت عليهم العيش في دلتا النيل ، وإلى المدى الذى يمكن أن تصل إليه مياهه ، كما حتم ذلك على السكان من البداية أن يتعاونوا فيما بينهم في اتخاذ الاجراءات والخطوات التي تكفل لهم الحد الأقصى لاستخدام مياه النيل مثل شق القنوات والترع واقامة السدود والخزانات ومن ناحية أخرى مواجهة الأخطار من الناحية سواء عن فترات الفيضان أم الجفاف .

لقد كان من المستحيل أن تقوم جماعة بمفردها أو مجموعات محددة بهذا العمل الكبير ، وكان الطبيعى في مجتمع كهذا ينتمى إلى « المجتمعات الهيدرولوجية » أن تقوم مركزية مطلقة تستطيع التحكم والتعامل مع هذه الثوابت والمتغيرات . وأصبح فرعون يمثل أبن النيل ، الاله « حابى » وأتاح له ذلك الفرصة للتحكم المركزى في مصر من شلالات النيل جنوب أسوان حتى مصب النيل في البحر الابيض في الشمال (٧) ومصر ، هى أحد النماذج النادرة في التاريخ التي حافظت على وحدة أراضيها وعلى المركزية الحكومية لمدة تزيد عن ستة آلاف عام ، منذ قام « مينا » مؤسس الأسرة الأولى بتوحيد القطرين ، البحرى والقبلى .

ولقد أدت هذه الملامح الجغرافية والتاريخية إلى عدد من القسّمات الخاصة التي كان لها أثرها بشكل أو بآخر في تشكيل الانتاج والانتاج الزراعى وعلاقاته بشكل خاص :

● الدور البارز للدولة المركزية التي كانت تشرف وتنظم الانتاج الزراعى ابتداء من تنظيم الري حتى فرض الضرائب والرسوم على الذين يقومون بزراعة الأرض .

● غياب الملكية الفردية في الأرض ، الأمر الذى أدى إلى وجود علاقة مباشرة بين الدولة وموظفيها من ناحية والمنتفعين بالأرض والفلاحين من ناحية أخرى ، الأمر الذى أدى - باستمراره لفترات طويلة - إلى نوع من الجمود والتجبر في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية (٨) .

● تطور المدن ، ليس كمراكز انتاجية ، ولكن في الاساس كمراكز ادارية حيث يتواجد فيها الجهاز الادارى الذى يشرف على النشاط الزراعى ، ولقد عمق من ذلك فقدان مصر لاستقلالها لفترات طويلة تعاقبت من اليونان والرومان إلى العرب والأتراك ، ولقد كان السادة الحاكون وموظفوهم يقيمون - أساساً - في المدن ويحرصون على التباعد عن الفلاحين ، مما دمج المدينة المصرية - لفترة طويلة - بصفاتها ، كمركز إدارى تعيش بشكل مطلق على استغلال الفلاحين في القرى .

ولهذا لم تتواجد في مصر « تاريخيا » طبقة الارستقراطية الزراعية ، بل كان هناك دائما الموظفون الذين يستخدمون سلطتهم من تواجدهم في جهاز الدولة .

ب - النمط الآسيوى فى الإنتاج :

دارت فى السنوات الأخيرة مناقشات واسعة حول مسمى « بنمط الآسيوى فى الإنتاج » وشهدت العشرون عاما الماضية ندوات ودراسات واسعة حول هذا الموضوع ودخل الخلبة عدد كبير من الباحثين فى العالم النامى نفسه . وتتلخص هذه الأفكار فى أن المجتمعات البدائية الأولى ، تطورت عنها ثلاثة أنماط مختلفة للإنتاج تتمثل فى نمط الإنتاج القديم ، نمط الإنتاج الآسيوى ، نمط الإنتاج الجرمانى^(١١) .

وقد ثار كل هذا الجدل عندما اكتشف مخطوط جديد لكارل ماركس سنة ١٩٣٩ بعنوان « أسس النقد فى الاقتصاد السياسى » والذي فرق فيه ماركس بين مألماه « علاقات الملكية فى المجتمع الجرمانى ، وعلاقات الملكية فى النمط الآسيوى ، فبينما تميزت علاقات الملكية الجرمانية بالملكية المستقلة للشخص المستقل ، فإن الشخص فى النمط الآسيوى كان عضوا فى جماعة المتفعين بالأرض مع أشرف وإدارة تامة من جانب المجتمع » ، ويقوم إلى جانب ذلك الدولة الآسيوية أو « الوحدة العليا » التى يخضع لها الجميع . وقد حدد جان شينو - وهو واحد من أبرز المفكرين الاشتراكيين المعاصرين - ملامح النمط الآسيوى فى الإنتاج فى : غياب الملكية الخاصة للأرض ، ووجود شريحة من كبار الموظفين تقوم باسم الملك بالأشراف على النشاط الزراعى ، دور الدولة البارز ، والطبيعة الطفيلية للمدينة^(١٢) .

والواقع أن هذه القضية قضية واسعة ، مازال الخلاف حولها حادا بين المفكرين الاشتراكيين ، فالبعض ينفيها أصلا ، والبعض يجعل منها محورا رئيسيا لإعادة التفكير فى كثير من قضايا التطور الاجتماعى والطبقى بعيدا عن الأشكال التقليدية والمعروفة ، وآخرون يتصورونها شكلا من أشكال الاقطاع أو حتى المرحلة العبودية ..^(١٣) وبدون الدخول فى تفاصيلها ، على أية حال ، فإن ماهمنا هنا ، فيما يتعلق بتطور الإنتاج الزراعى فى مصر ، أن نمط الإنتاج الآسيوى لا يمكن أن ينطبق عليها إلا فى فترات تاريخية سابقة ، وبأى حال لا يمكن أن تتجاوز مرحلة ما قبل السيطرة التركية على مصر فى بداية القرن الخامس عشر^(١٤) . فنذ دخول الاتراك ، طرأت عدة عوامل وحقائق جديدة فى تنظيم الاستغلال الزراعى فى مصر .

ج - نظام الالتزام :

ترجع الجذور الأولى لهذا النظام إلى ما بعد الفتح العربى لمصر ، وإن كان قد طبق بشكل محدود ، وقد تمثل فى أن يعطى الحاكم لبعض كبار معاونيه الحق فى جمع الضرائب مرتين أو ثلاث من بعض الأراضى ، وفى بعض الأحوال من مقاطعة بأكملها ، وقد أتاح ذلك لهؤلاء « الموظفين » الفرصة فى تقدير الضرائب أحيانا وفقاً لأغراضهم . وأصبح الملتزم (أى الذى يلتزم بجمع الضرائب) نوعا من أنواع الوظائف ، وإن كانت لم تتخذ فى ذلك الوقت طابع الاستمرار مدى الحياة^(١٥) . وفى ولاية الايوبيين ثم المماليك بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر ، لم يكن لهذا النظام طابع الشمول . ولكن منذ السيطرة العثمانية التركية ثم اعتمادهم على المماليك فى حكم مصر ، اتسع هذا النظام حتى أصبح النظام السائد فى استغلال الأراضى الزراعية ، وكانت هناك علاقة وثيقة بين الملتزم وحكام الأقاليم والمقاطعات ، وأحيانا كان الملتزم هو حاكم الأقليم نفسه ، وكان

للملتزم بالإضافة إلى سلطاته في جمع الضرائب التي يحددها ، قطعة أرض يلتزم الفلاحون بزراعتها لحسابه ، وأطلق على هذه الأرض اسم الوسية ^(١٤) . وكان الالتزام في البداية مسئولية وظيفية ترتبط بشخص معين ، ولكنه بعد ذلك أصبح وظيفة وراثية يتولاها الأبناء عن الآباء .

وحينما ألغى محمد علي نظام الالتزام سنة ١٨١٤ ، كان الملتزمون يكونون في الواقع طبقة من كبار الحائزين الذين يمارسون كل حقوق الملكية كما يمارسون سلطات اقتصادية وغير اقتصادية على الفلاحين ولهم شرطتهم وحتى سجونهم الخاصة . وكان شيخ البلد في حقيقته ممثل الملتزم في القرية ، يتبعه الصراف ، وعدد من الموظفين منهم « المشد » وهو المنوط به توقيع العقوبات على الفلاحين الذين يتأخرون في سداد الضرائب أو يتهربون منها ..

وأثناء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠٠) كتب كثيرون وبتفاصيل مثيرة عن نظام الالتزام والملتزمين ووضعهم الاجتماعي والطبقي باعتبارهم ملاكا اقطاعيين ^(١٥) . وقد أعطى المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي صورة واقعية لمدى السلطات التي كان يتمتع بها الملتزمون وقهرهم للفلاحين بقوله « فهم مع الملتزمين أذل من العبد المشتري ، فربما أن العبد يهرب من سيده اذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب ، فأما الفلاح فلا يمكنه ولايسهل به أن يترك وطنه وأولاده وعياله ويهرب ، واذا هرب إلى بلد أخرى واستعلم استأذه مكانه ، أحضره قهراً وازداد ذلاً وإهانة » ^(١٦) . وبذلك يمكننا القول إنه في بداية القرن التاسع عشر كان هناك وضع اجتماعي واقتصادي تسوده علاقات انتاج اقطاعية بشكل أو بآخر ، وذلك بين الملتزم الذي تطور إلى شكل من أشكال الملاك الاقطاعيين ، مع بعض الملاح الخاصة ، وبين الفلاحين الذين كانوا يمثلون شكلاً من أشكال القنانة .

وفي البداية لم يكن من الممكن مقارنة الملتزم بكبار الملاك الاقطاعيين في أوروبا ، ولكن في المراحل الأخيرة كان الملتزم يحمل الملامح الاقطاعية الرئيسية ، ويمارس نفس سلطاتهم على الفلاحين ، وكان يعتمد هذه الصلاحيات والسلطات من كونه موظفاً كبيراً في الدولة ، ولذلك يمكن أن نطلق على هذا اللون من الأقطاع « إقطاع من فوق » بخلاف الاقطاع الأوروبي « إقطاع من تحت » ^(١٧) . ويمكننا القول في النهاية أن أراضي الوسية التي كانت ممنوحة للملتزمين كانت أحد المصادر الرئيسية لتشكيل طبقة الملاك الزراعين بعد تقنين الملكية الزراعية في مصر ، بعد ذلك في أواخر القرن التاسع عشر .

توزيع الأرض في عهد محمد علي

١ - مدخل تاريخي :

يعتبر محمد علي ، من زوايا كثيرة ، مؤسس مصر الحديثة ، فقد اتخذ اجراءات عديدة لبناء صناعة مصرية وخلق جيش قوى ، كما طمح في تشكيل فئة من المثقفين والفنيين ، فتوسع في إرسال البعثات العلمية إلى الخارج ، وقامت استراتيجيته كلها ، ومن البداية ، على تنظيم أشكال الاستغلال الزراعي . وأخذ في هذا المجال الكثير من الاجراءات والقوانين التي جعلت كثيراً من الباحثين يذهبون إلى أنه أول من أقام اصلاحاً زراعياً في مصر ^(١٨) . ويمكننا أن نلخص إصلاحات محمد علي الزراعية في الخطوات التالية :

● إلغاء نظم الالتزام (١٨١٣) ، ذلك النظام الذى خلق ولمدة « ٤٠٠ » عاماً طبقة غريبة لعبت دوراً كبيراً فى تجميد علاقات الانتاج والقوى الاجتماعية فى الريف المصرى ولكن محمد على أعطى ، فى نفس الوقت ، للملتزمين السابقين الحق فى الاحتفاظ بأراضى « الوسية » لاستغلالها بشكل خاص ، كما أعطى لهم الحق بعد ذلك فى التصرف فى تلك الأرض ووراثتها ، الأمر الذى جعلها تمثل أحد مصادر الملكية الكبيرة الخاصة فى مصر ، وكانت مساحتها تقدر بـ ١٠٠ ألف فدان . بل إن محمد على فى أواخر أيامه عاد إلى شكل من أشكال الالتزام وهو ما أطلق عليه نظام « العهدة » ، ولقد مثلت أراضى العهدة هى الأخرى مصدراً من مصادر تشكيل كبار الملاك الجدد .

● ألغى محمد على أراضى الوقف وهى التى كانت تمثل حوالى ٦٠٠ ألف فدان ، وقد نشأت هذه الأراضى تاريخياً من الهبات والعطايا التى كان يمنحها السلاطين لبعض كبار المسؤولين فى جهاز الدولة كملكية معفاة من الضرائب ، فأوقفوها حتى لاتصادر ، فقد كانت المصادرة سهلة فى تلك الأيام التى يتعاقب فيها الملاك والولاة بشكل سريع ، وكان الأصل فى أراضى الاوقاف أن تصرف على الشؤون الدينية (مساعدة الفقراء ، فتح الكتاتيب وأروقة الدراسة ، .. الخ) وتحمل مسؤوليتها الأزهر ، ولكنها تحولت فى واقع الأمر إلى شبه ملكية خاصة للنظار الذين كان معظمهم حتى عهد محمد على من رجال الأزهر مما يتيح لنا فرصة القول بأن هذه الأراضى لعبت دوراً مشابهاً لأراضى الكنيسة فى أوروبا فى القرون الوسطى . (٢٠)

● قام محمد على بعد مسح الأراضى الزراعية بتوزيعها على الفلاحين لزراعتها بين ٣ - ٥ أفدنة ، وفى كل الأحوال ارتبط هذا التوزيع بظروف دفعت الاستغلال الزراعى من ناحية ، كما دفعت استغلال الفلاح بشكل مركز حين ارتبط التوزيع بشروط والتزامات ، فزادت الضرائب زيادة كبيرة ، كما فرضت أوامر ملزمة بتوريد كثير من المحاصيل وبأسعار تقل كثيراً عن أسعار السوق الحقيقية فى ذلك الوقت ، ولقد مثلت هذه الأراضى بعد ذلك الشريحة الرئيسية فى تطور ملكيات الفلاحين الخاصة . (٢١)

● قام محمد على بتوزيع جزء كبير من الأراضى الزراعية على أفراد عائلته ، وهى الأراضى التى أطلق عليها اسم « الجفالك » وتقدر بحوالى مليون فدان ، كما قام بتوزيع « الأبعديات » بين كبار موظفى الدولة ، وتقدر مساحتها بين ٥٠٠ ألف فدان إلى ٧٠٠ ألف فدان . وكانت هذه الأراضى الممنوحة معفاة من الضرائب ، وتطورت بعد ذلك إلى شكل من أشكال الملكية الخاصة . بالإضافة إلى ذلك قام محمد على بمنح العمدة ومشايخ البلد ٤ ٪ من الأراضى المنزرعة فى الزمام منفعة خاصة لهم نظير خدماتهم ، معفاة من الضرائب ، ويقوم الفلاحون بزراعتها مجاناً « بالسخرة » (٢٢)

٢ - استقرار الملكية الفردية فى الأرض :

وضع محمد على بإجراءاته الأسس الحقيقية للملكية الخاصة فى الأرض ، إذ أنشأ بذلك ارسناتية زراعية جديدة تمثلت فى كبار الملاك الذين وزع عليهم الأرض ، بما يعنى ذلك من تعديل للنظام الإقطاعى فى مصر من « إقطاع من فوق » إلى « إقطاع من أسفل » (٢٣) . وكان على قوانين الملكية الخاصة فى الأرض أن تنتظر حتى سنة ١٨٩١ حتى تأخذ شكلها القانونى الكامل ، ولكنها كانت ، حتى ذلك التاريخ ، تشق طريقها وتفرض نفسها كواقع عملى سواء على يد محمد على أو على يد خلفائه . ففى عهد الخديوى سعيد

(١٨٥٤ - ١٨٦٣) ثم بعد ذلك الخديوى اسماعيل أصبح من حق الموظفين المتوسطين فى الدولة ، وليس فقط كبارهم ، الحصول على نصيب من الأراضى الموزعة ، كما تواصلت التشريعات التى توسع من حقوق الانتفاع لتقريبها من الملكية . فقوانين سنة ١٨٥٤ منحت ورثة المنتفعين بالأرض الزراعية الحق فى الانتفاع بهذه الأراضى ، ثم أكدت قوانين (١٨٥٨) وهى المعروفة باللائحة السعيدية حق التصرف للمنتفعين بالبيع أو الهبة أو الوقف أو غير ذلك من التصرفات الشرعية للملاك فى أملاكهم ، ثم كان قانون « المقابلة » الذى أصدره اسماعيل سنة ١٩٧١ باعطاء حقوق الملكية الكاملة لكل من يدفع خراج أرضه ست سنوات مقدما . وفى أبريل سنة ١٨٩١ صدر الأمر العالى الذى أعطى كل حقوق الملكية للمنتفعين فى الأرض ، وبدأ بذلك تاريخ الملكية الخاصة للأرض فى مصر .

٣ - الهيكل الاجتماعى فى الريف :

تشير الاحصائيات الأولى التى صدرت عن توزيع الملكية فى مصر سنة ١٩٠٠ ، أى بعد عشر سنوات فقط من صدور قوانين الملكية الخاصة فى الأرض ، إلى الخطوط العريضة والاتجاهات التى لازمت هذا التوزيع حتى سنة ١٩٥٢ ، (أنظر الجدول المقارن) .

توزيع ملكية الأراضى الزراعية (١٩٠٠) (٢٤)

نسبة الأرض	نسبة الملاك	فئة الملكية
٢١,٧ %	٨٣,٢ %	أقل من ٥ أفدنة
٣٤,٣ %	١٥,٤ %	من ٥ - ٥٠ فدانا
٤٤ %	١,٣ %	أكثر من ٥٠ فدانا

توزيع الملكية للأراضى الزراعية (١٩٥٢)

نسبة الأرض	نسبة الملاك	فئة الملكية
٣٥,٥ %	٩٤,٢ %	أقل من ٥ أفدنة
٣٠,٤ %	٥,٣ %	من ٥ - ٥٠ فدانا
٣١,٤ %	٠,٥ %	أكثر من ٥٠ فدانا

ويمكن اضافة تفاصيل أكثر للجدول الأخير ، إذ أن هناك أكثر من ٧٠ % من فئة من يملكون خمسة أفدنة فأقل ، يملكون فدانا فأقل . (٢٥)

إن مقارنة بسيطة بين الجدولين توضح أنه لم تحدث على الإطلاق أية تغيرات كبيرة فى هيكل الملكية ،

وطوال أكثر من خمسين عاماً وحتى قبل صدور قانون الإصلاح الزراعى ، تشكلت الطبقات والشرائح الاجتماعية على النحو التالى :

١ - طبقة الملاك الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين :

على قمة الهرم الطبقي تواجدت هذه الطبقة الجديدة ، وهى جديدة بمعنى أنها استقرت مع استقرار قوانين الملكية الخاصة للأرض فى نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن جانباً هاماً من هذه الطبقة ترجع جذوره القديمة إلى نظام الالتزام ، وحملت حتى النهاية سمات الملتزمين . والغالبية العظمى لهذه الطبقة لم تكن لها علاقة مباشرة بالانتاج الزراعى ، فقد تكونت فى الأساس من كبار موظفى الدولة الذين حصلوا على ممتلكاتهم من خلال مراكزهم الوظيفية وليس من خلال دورهم الانتاجى ، وظلوا يقيمون فى العاصمة أو فى المدن الكبرى ، كما أن قطاعاً واسعاً منها ترجع أصوله إلى جذور أجنبية غير مصرية (الاتراك ، المماليك ، الفرنسيين ، قبائل البدو العربية) ، وحتى من لهم جذور مصرية من هذه الطبقة من فئة العمدة والمشايخ ، هجروا هم الآخرون قراهم وأقاموا فى عواصم الأقاليم . ونظراً لهذه الظروف الخاصة فلقد تميزت هذه الطبقة بالعمل على الحصول على أكبر عائد ممكن من الأرض دون بذل أى جهود فى تطوير وسائل وأدوات الانتاج ، ولجأ قطاع منهم إلى تأجير أرضه قطعاً صغيرة أو كبيرة بحشا عن دخل أكبر^(٢٦) ، وبشروط كانت مجحفة للغاية بالمستأجرين ، واتخذت غالبية الايجارات شكل المزارعة والايجار العيني الذى كان يفرض على المستأجر فى أحيان كثيرة أن يعطى للمالك أكثر من نصف المحصول^(٢٧) ، وقد أدى ذلك إلى أن يتحول كثير من المستأجرين إلى شكل « القن » فى العلاقات الاقطاعية التقليدية .

وإلى جانب طبقة كبار الملاك الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين ومن داخلها نمت شريحة من كبار الملاك وأيضاً من كبار المستأجرين الذين دفعهم الطلب المتزايد على القطن المصرى إلى الاهتمام بمزارعهم والاشراف عليها بانفسهم مع استخدام وسائل وأساليب حديثة للانتاج واستخدام عمال زراعيين مأجورين . وقد ظلت هذه الشريحة من كبار الملاك الرأسماليين التى تمثلت فى أشخاص أو شركات زراعية ، حتى سنة ١٩٥٢ ملحقة بالطبقة الاقطاعية ، تتناقض معها أحياناً وتسلم لها القيادة فى أحيان كثيرة .^(٢٨)

ب - الملاك المتوسطون :

نشأت هذه الفئة فى الأساس من ثلاثة مصادر :

- تفتيت بعض أراضى الملكية الكبيرة نتيجة الميراث أو الرهونات .
- منح الحكام (الخديوى) لمتوسطى الموظفين والضباط وفقاً لمراكزهم ورتبتهم .
- تجار الريف والمدن الذين اتجهوا لشراء الأرض لارتفاع الدخول التى تغلها .

ومن الواضح أن قطاعاً هاماً من هذه الفئة لم يكن يزرع الأرض بنفسه بل يقوم بتأجيرها قطعاً صغيرة ، وإلى حد ما بنفس الشروط المجحفة التى يتبعها كبار الملاك مع المستأجرين ، ولكن ، فى نفس الوقت ، فإن مجموعات أخرى منها كانت تقيم فى القرية وتقوم بنفسها بزراعة أرضها والاشراف عليها بشكل مباشر سواء مستعينة بالعمل العائلى أو بالعمل المأجور أو بهما معاً .

لقد لعبت هذه الفئة التى يمكن أن نطلق عليها « أغنياء الفلاحين » دوراً هاماً فى المجتمع ، والمجتمع

الريفى بشكل خاص ، فقادت الاتجاهات الاصلاحية فى الريف وبشكل خاص الحركة الفلاحية فى مواجهة الارستقراطية الزراعية المتحكمة .

ومن الملاحظات ذات الدلالة أن وضع تلك الفئة وحجمها سواء بالنسبة لعددتها أو للملكيتها الزراعية قد ظل ثابتاً نسبياً طوال النصف الأول من القرن العشرين ، فلقد كانوا يمثلون حوالى ٥ ٪ من الملاك ويسيطرون على حوالى ٣٠ ٪ من الأراضى الزراعية ، تزيد أو تقل قليلا ..

جـ - صغار الملاك :

ويمثلون ١٥ ٪ من الملاك ، شريحة ضئيلة منهم تملك بين ٣ إلى ٥ أفدنة ، بينما ٧٠ ٪ منهم يملكون فداناً فأقل ، وغالبيتهم وخاصة من يملكون أقل من فدان كانوا يضطرون إلى العمل هم وعائلاتهم جزءاً من السنة كعمال مأجورين لتوفير ضرورات الحياة . وتشير الاحصائيات الرسمية إلى أن هذه الفئة كانت حتى سنة ١٩٥٢ تبلغ ٢,٦٤٢ مليون مالك أى بنسبة ٩٤,٣ ٪ من مجموع الملاك ويزرعون ٢,٨٠١ فدان أى بنسبة ٣٢,٤ ٪ من الأراضى المنزعة .

والتحليل الدقيق لشرائح هذه الفئة يوضح أن ٧٠ ٪ منهم يملكون أقل من فدان ، فى حين أن حوالى ٢٠ ٪ يملكون من فدان إلى ثلاثة وحوالى ١٠ ٪ من ثلاثة إلى خمسة . ورغم اهتمامنا بالتفرقة بين شرائح هذه الفئة من الملاك الصغار ، إلا أنه ولاشك تجمعهم ظروف مشتركة كثيرة ، وخاصة أن الملكية فى ظل ارتفاع نسبة الأراضى المؤجرة (حوالى ٦٠ ٪) لم تكن وحدها العامل الحاسم فى تحديد الوضع الاجتماعى ، فهناك حجم العائلة وهناك ملكية وسائل الانتاج الأخرى (الحيوانات والادوات الزراعية) ، إلا أنه من المؤكد أن ملك فدان فأقل كانوا يبيعون عملهم كعمال مأجورين جزءاً من الوقت ، وكان هناك حرص من النظام على الإبقاء على طبقة صغار الملاك بذلك الاتساع فى الحجم وبذلك التفتيت فى الملكية ، وهناك ما يؤكد أن السياسة البريطانية لمصر ممثلة فى أشخاص مثل « كرومر وكتشتر » كانوا منتبهين إلى أهمية حماية طبقة صغار الملاك من زاوية الحرص على النظام الاجتماعى القائم . « فالحفاظ على الملاك الصغار والقزميين يبعدهم عن الطبقة العاملة الزراعية » (٢٠) بالرغم من أنه فى واقع الأمر كانت الظروف المعيشية لصغار الملاك الفقراء أسوأ فى أحيان كثيرة من حياة عمال الزراعة المعدمين .

د - العمال الزراعيون :

بدأت هذه الطبقة تتشكل منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، عندما كان الكثيرون من الفلاحين يهربون من حيازة الأرض نظراً لازدياد الضريبة المفروضة والعمل الاجبارى (٢١) ، وفى النصف الأول من القرن العشرين كانت أعداد العاملين بالزراعة والذين لا يملكون أرضاً فى تزايد مستمر ، وذلك لعدة أسباب ، فبعد تقنين الملكية الزراعية فى الأرض وحصول كبار الملاك على الجانب الأكبر منها لم تعد هناك مساحات كافية من الأرض لاستيعاب جميع الفلاحين المعدمين كما أن زيادة السكان والتفتيت الشديد فى الملكية الصغيرة قد أديا إلى إضافة أعداد كبيرة لقائمة المعدمين (٢٢) .

وقد أدى انتشار البنوك العقارية والرهونات ، وخاصة فى السنوات الأولى للقرن العشرين ، إلى فقدان كثير من الفلاحين لأراضيهم ، وأدى إلى انتشار المرايين وتجار الريف الذى استغلوا حاجة الفلاحين الصغار

وأقرضهم بفوائد عالية للغاية عجز الفلاحون عن سدادها ، الأمر الذى أدى إلى اتساع موجة مصادرة أراضى الفلاحين لصالح هؤلاء المربين والتجار ، وقد كان القانون الذى صدر سنة ١٩١٣ بمنع مصادرة أراضى صغار الملاك هو الذى أدى إلى وقف هذا الاتجاه (٣٣) .

ويمكننا داخل هذه الطبقة أن نفرق بين فئات مختلفة ، فهناك عمال التراحيل التقليديون الذين يجمعهم مقاولون لحساب بعض المشروعات الفردية أو الحكومية والتي تستغرق شهراً أو شهرين وأحياناً ثلاثة .

وهناك العمال الموسميون الذين يعملون داخل إطار القرية أو المنطقة عند بعض كبار الملاك أو متوسطيهم وخاصة في مواسم كثافة العمل الزراعى (الرى - الحصاد) والغالبية العظمى من هؤلاء من أصحاب الملكيات القزمية الذين لا تكفل لهم ملكيتهم الحد الأدنى لمتطلبات حياتهم وحياة أسرهم .

ثم هناك مجموعة محددة من عمال الزراعة الدائمين الذين يعملون في بعض المزارع الكبيرة التى تستخدم الوسائل والأساليب الحديثة لزراعة المحاصيل النقدية (القطن - القصب - الخضر - الفاكهة) . وهذه المزارع كانت مملوكة في الأساس لبعض الشركات الزراعية ولعدد محدود من كبار الملاك ، ولاشك أن ظروف هذه الفئة الأخيرة كانت أفضل من ظروف الفئتين الأخرين ، فهناك أجر ثابت وظروف عمل أفضل .

وليست هناك احصائيات محددة عن عدد عمال التراحيل في ذلك الوقت ، فالاحصائيات الرسمية تقدرها بين ١,٤٥٧ مليون إلى مليونين من العمال ، وتدخل ضمن هذه الأعداد طبعاً مجموعة كبيرة من أصحاب الملكيات القزمية من فدان فأقل (٣٤) .

ولقد كانت ظروف العمال الزراعيين غاية في السوء بشكل عام ، فالأجور ضئيلة للغاية وليس هناك في أغلب الأحوال عقود مكتوبة ، ولا يتمتعون بأية ضمانات صحية أو مسكنية أو تعويضات لدى الإصابة ، كما أنه كان محرماً عليهم أن يقيموا تنظيمات نقابية لهم ، وحينما كان يحاول بعضهم الاحتجاج على هذه الظروف الصعبة كانت أجهزة الدولة بالاشتراك مع كبار الملاك يوجهون لهم الضربات العنيفة (٣٥) .

لقد كانوا مقهورين ، بل ومسحوقين ، تحت السيطرة المطلقة لكبار الملاك ، والفقر المدقع الذى يعانونه ، والحياة العارية من أى ضمان قانونى وأى مضمون أنسانى ولقد أدى ذلك ، مع تخلف وسائل الانتاج ، إلى أنعاش فكرة الملكية الصغيرة ، حتى ولو كانت قزمية ، كضمان ضد الضياع ، مع أنه في الواقع لم يكن الأمر يختلف كثيراً من زاوية الظروف المعيشية (٣٦) وكانت النتيجة هى عدم نمو وتطور طبقة عاملة زراعية بالمعنى الصحيح ، ففيما عدا بعض النماذج المحدودة والتي تواجدت في المزارع الواسعة المملوكة لبعض الشركات الزراعية ، فإن الشرائح الأخرى يصعب إطلاق تعبير عمال الزراعة عليها ، والأدق أنها كانت إلى حد كبير « أشباه الأبقان » (٣٧) .

٤ - علاقات الانتاج :

قبل أن نحدد طبيعة علاقات الإنتاج في مصر حتى سنة ١٨٩١ ، فإنه من الضروري رصد بعض الظواهر المميزة .

١ - التفتيت :

منذ تفتيت الملكية الخاصة في الأرض سنة ١٩٨١ تفاقمت مشكلة تفتيت الأراضي الزراعية ، فهناك كما سبق أن أسلفنا ٩٤,٣ ٪ من الملاك يملكون خمسة أفدنة فأقل من بينهم ٧٠ ٪ يملكون أقل من فدان (٣٨) .

كان هذا نتيجة طبيعية لسوء التوزيع الشديد والعدالة المتقدمة في توزيع الملكيات ، كما أن ازدياد السكان بعد ذلك بنسب أكبر بكثير من ازدياد الأراضي المزروعة بالإضافة إلى قوانين الوراثة التي لعبت دوراً في تعميق هذه الظاهرة ، على أن ظاهرة التفتيت لم تنحصر فقط في الحيازات الصغيرة ، بل شملت أيضاً الحيازات المتوسطة فهناك ٤٥ ٪ من مساحة الملكيات الزراعية مقسمة إلى أربعة قطع أو أكثر وفي الحيازات المتوسطة بين ٥ - ٥٠ فداناً نجد بعضها مقسماً إلى قطع صغيرة تتراوح بين أربعة وعشرة (٣٩) ولعب التفتيت دوراً كبيراً في تخلف الزراعة المصرية من جميع الوجوه سواء في الانتاج أو وسائل الانتاج وعلاقاته ، على النحو التالي :

- فالتفتيت يعنى ضياع ٢٥ ٪ من الأراضي الزراعية في البتون والقنوات والحدود التي تفصل بينها .
- لعب التفتيت دوراً سلبياً خطيراً في تدهور الانتاج لصعوبة تخطيط سياسة انتاجية زراعية أو تنفيذها ، فاذا تصورنا زمام إحدى القرى يبلغ ١٠٠ فدان مقسمة على ٤٠٠ حيازة صغيرة فإنه يصبح من الصعب تحديد سياسة محصولية وفرضها على الحائزين .

● كما أدى التفتيت إلى تخلف شديد في وسائل الانتاج ، فالجرارات والآلات الزراعية والوسائل الحديثة التي تؤدي إلى زيادة الانتاج تحتاج إلى مساحات واسعة لكي يكون استخدامها اقتصادياً ومفيداً ، وقد ترتب على ذلك استخدام الفلاحين لأكثر أدوات الانتاج تخلفاً وبدائية ، بل إن تاريخ استخدام بعضها يرجع إلى أكثر من ألف عام مثل الشادوف والساقية التي ثبت استخدامها أيام الفراعنة . وحتى سنة ١٩٥٢ كان هناك مالايزيد عن ١٠ آلاف جرار هي كل المستخدمة في الزراعة من بينها حوالي ٨ آلاف جرار (٧٨ ٪) مستخدمة في أراضي كبار الملاك (٤٠)

● ترتب على الآثار السلبية للتفتيت في الانتاج وأدواته ، تخلف شديد في علاقات الانتاج . وطوال خمسين عاماً أدى التفتيت إلى وقف أى تطور في علاقات الانتاج وتجميده في أشد أشكاله تخلفاً . وأصبحت الملكية القزمية بديلاً عن الطرد من الأرض ، وقد أدى ذلك طبعاً ليس فقط إلى إعاقة تشكيل طبقة عاملة زراعية قوية ، بل وأيضاً إلى تعميق محاولة حائزي الملكيات القزمية التميز والتباعد عن العمال الزراعيين ، بالرغم من أن حيازتهم القزمية لا تقف شيئاً ، الأمر الذي أدى إلى ربط هؤلاء بفكرة الملكية من ناحية الشكل ، مع أنها في واقع الأمر قدمت أرضية مثالية لاستغلالهم بشكل مكثف لاعتمادهم على كبار الملاك . فحيازتهم الصغيرة لم تكن تكفل لهم الحد الأدنى الضروري لمتطلبات المعيشة وقد انعكس ذلك في العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية . بينهم وبين كبار الملاك (٤١) .

وبذلك لعب التفتيت دوراً مزدوجاً في علاقات الانتاج ، فهو من ناحية كان عقبة أمام بلورة حقيقية للشرائح الاجتماعية وبشكل خاص أمام تطور طبقة عاملة زراعية ، ومن ناحية أخرى قدم أرضية مثالية لنمو وتعاظم أشكال الاستغلال شبه الاقطاعية . ولذا ، فإن أعداداً كبيرة من أصحاب الحيازات القزمية والذين

كانوا يضطرون للعمل بعضاً أو جزءاً كبيراً من الوقت كعمال زراعيين ، هم في الواقع ينتون إلى فئة الأقتان وشبه الأقتان .

ولهذا كله ، بالرغم من إلغاء السخرة في نهاية القرن التاسع عشر ، وبالرغم من التقنين الكامل لحق ملكية الأراضي ، وأيضاً بالرغم من دخول عناصر وعوامل جديدة في الانتاج الزراعي (زراعة المحاصيل من أجل السوق) إلا أن علاقات الانتاج ظلت في الأساس اقطاعية وشبه اقطاعية ، وقد كان كبار الملاك ومعهم مهندسو السياسة الاستعمارية البريطانية في مصر يدركون بشكل كامل هذه الحقيقة ، حقيقة أن الملكيات القزمية المفتتة تقدم لهم تبريراً طبيعياً لزيادة استغلالهم وسيطرتهم على جماهير الفلاحين في نفس الوقت .

ب - تركز الملكيات الزراعية :

إزاء التفتت الشديد في الحيازات الزراعية لصغار الفلاحين ، كان هناك ، ومن ناحية أخرى ، تركز كبير في الملكيات الكبيرة في أيدي عدة آلاف من الملاك الكبار .

ففي النصف الأول من القرن العشرين زاد عدد الملاك من حوالي ٩١٤ ألف مالك سنة ١٩٠٠ إلى ٢,٨ مليون مالك سنة ١٩٥٢ ، أما مساحة الأراضي المنزرعة في تلك الفترة فلم تزد إلا نسبة ١٦ ٪ (من حوالي ٥,١ مليون فدان إلى ٥,٩ مليون فدان) (٤٣) . وهذه الزيادة في أعداد الملاك قد تمت أساساً بين صغار الحائزين وملاك المساحات القزمية ، الأمر الذي أدى إلى انخفاض نسبة الملكية بين هذه الفئات ، فقد تراجع متوسط الملكية للفرد من ١,٤٥ فدان سنة ١٩٠٠ إلى ٠,٨ من الفدان سنة ١٩٥٢ ، بينما زاد ، في نفس الوقت متوسط ملكية الفرد فين يملكون أكثر من ٥٠ فداناً إلى حوالي ١٨٠ فداناً للفرد الواحد سنة ١٩٥٢ . فقد كان هناك ٧٠ ألف مالك يجمعون في أيديهم أكثر من نصف الأراضي المنزرعة ، وبأرقام محددة فإن ٢,٩ ٪ من الملاك كانوا يستولون على ٥٥,٧ ٪ من الأراضي الزراعية (٤٣) .

إن سوء توزيع الملكيات الزراعية التي بدأت منذ إجراءات محمد علي قد وصل إلى درجة صارخة في النصف الأول من القرن العشرين ، كما أدى بيع أراضي الدولة بعد ذلك إلى كبار الملاك إلى خلق حالة ما يسمى « الجوع إلى الأرض » وقد نتج عن ذلك ارتفاع كبير في قيمة الأرض بشكل مصطنع ، أي أن قيمة الأرض العالية لم تكن تتمشى في الواقع مع قيمتها الفعلية (ماتغله من انتاج) . وقد كان من أسباب ذلك ، استخدام كبار الملاك لأموالهم في شراء أراض جديدة وتركيز استثماراتهم في هذا المجال واعتماد غالبيتهم حياة البذخ والاسراف الشديدين لنفسه ، سواء في الرحلات إلى أوروبا أو في النبط الاستهلاكي في الداخل ، الأمر الذي جعل « الباشا » المصري نموذجاً يضرب به المثل في هذا المجال ، ومثلما لاحظ الدكتور حسين خلاف « انه على عكس كبار الملاك الأوربيين أثناء الثورة الصناعية ، فإن كبار الملاك المصريين لم يقبلوا باستثمارهم على مجالات جديدة ، بل اتجهوا إلى انفاقها في الشراب والملاذات السريعة » (٤٤)

ثمة عامل آخر تمثل في دور البنوك الأجنبية والمؤسسات العقارية التي ركزت نشاطها واستثمار أموالها في « التجارة بالأرض » وليس في الانتاج الزراعي نفسه ، وفي سنة ١٩٤٩ كانت هناك ١٩ شركة أجنبية ، غالبيتها العظمى مملوكة لروءوس أموال أنجليزية أو بلجيكية ، تملك مساحة من الأرض تقدر بـ ١٨٠ ألف فدان ، وقد كانت غالبيتها العظمى تلعب دور التاجر فقط ، أي بيع وشراء الأراضي ، (٤٥)

كما أن بنوك الرهونات المنتشرة في ذلك الوقت لعبت دوراً خطيراً في تعميق ماسمى بالازمة العقارية ، فالبنك العقاري المصري ، وكان يقوم في الأساس على رأس مال انجليزي ، قام في الفترة بين ١٩١١ إلى ١٩١٣ بنزع ملكية أراضي تقدر بـ ١,١ مليون فدان .^(٤٦) وحتى سنة ١٩١٢ كان هناك ١٠٠ مليون جنيه تمثل مجموع رءوس الأموال المستثمرة في مصر ، ومنها ٧٥ ٪ مستثمر في مجال الأرض والزراعة .^(٤٧) ولعبت البنوك والشركات الأجنبية دوراً سلبياً في تطور الاقتصاد المصري بشكل عام والانتاج الزراعي بشكل خاص . إن بعضاً ممن تناولوا هذه القضية قد تحدثوا عن الدور الإيجابي للبنوك والاستثمارات الأجنبية في دفع عجلة التطور في مصر ، والعكس هو الصحيح تماماً ، فقد كان الهدف من المبالغ الطائلة التي كانت تستثمر في عملية الرهونات وبيع الأراضي هو الربح والفائدة المرتفعة وليس الانتاج . وقد لعب ذلك دوراً سلبياً ليس فقط بالنسبة للانتاج الزراعي بل وبالنسبة لمجالات النشاط الاقتصادي الأخرى ، وخاصة الصناعة .

ويجب أن نفرق بين استثمارات مالية لزيادة الانتاج ورفع مستوى الأداء الزراعي (وهي تأخذ هنا الشكل الرأسمالي في تطور وسائل وعلاقات الانتاج) وبين استثمارات تتجه في الأساس إلى نشاطات جانبية لا يهتمها الإنتاج أو تطور أدواته أو وسائله بل يهتمها في الأساس الربح والفائدة التي تحصل عليها من عمليات البيع والشراء والرهونات ، وفيما عدا بعض الأمثلة المحدودة ، كان هذا هو الدور الغالب للاستثمارات الأجنبية في مصر .

ولقد أورد لينين رأى كارل ماركس في موضوع بنوك الرهونات وتجار القرى ومدى تأثير ذلك على تطور علاقات الانتاج وذلك في كتابه « رأس المال » ، حين قال « أنه كلما زاد تطور رأس المال التجاري ورأس مال المزارعين يقل تطور رأس المال الصناعي »^(٤٨) فالهدف الرئيسى لهذه البنوك والشركات ، كما لاحظ لينين ، كان الربح والفائدة العالية وليس الانتاج وزيادته . وكانت النتيجة الطبيعية لكل ذلك أن أصبحت الأرض في حد ذاتها أعلى قيمة في المجتمع ، وبذلك زاد القهر الاقتصادي وغير الاقتصادي الذي كان يتعرض له صغار الحائزين والمعدمين .

جـ - المالك الغائب :

إذا أضفنا إلى هذه العوامل تلك الظاهرة الخاصة بالمالك الغائب عن الأرض يمكننا أن ندرك الأسباب التي أدت إلى ارتفاع أسعار الأرض وبالتالي ارتفاع الايجارات بدرجة فاقت كل الحدود ، وأصبح الايجار المدفوع في الفدان أكبر بكثير من الدخل الحقيقي الذي يمكن أن يغله ، وتشير الاحصائيات الرسمية إلى أن دخل الفدان الصافي في الفترة بين ١٩٢٧ - سنة ١٩٣٨ كان حوالى ١٧ جنيهاً مصرياً ، في حين أن إيجار الفدان في تلك الفترة وصل إلى ٤٣ جنيهاً^(٤٩) .

وكان لهذه الظاهرة تأثيرها الخطير على الانتاج الزراعي ، فلقد دفع ذلك الكثير من كبار الملاك وحتى متوسطيهم إلى تأجير أراضيهم وقفزت بذلك نسبة الأراضي المؤجرة من ١٧ ٪ سنة ١٩٣٩ إلى ٦٠ ٪ لسنة ١٩٥٠^(٥٠) وفرض الملاك شروطهم في التأجير ، فهو أحياناً نقداً وكثيراً ما يدفع الايجار عيناً أو خليطاً بين الاثنين ، وفي كل الأحوال كانت للمالك السيطرة المطلقة على الأرض والانتاج والمستأجر . إن هذا الشكل من الايجار ، أيا كان نوعه ، هو ولاشك أكثر الأشكال رجعية ويقوم على أساس علاقات اقطاعية متخلفة .

وإذا كان من المعروف أن الإيجار النقدي أكثر تقدماً من الإيجار العيني لأنه قد يلعب دوراً في التطور وتنشيط العمل التجارى والصناعى وخلق دورة مالية ، إلا أن ظروف الإيجار النقدي في مصر أفقدته هذه الميزة ، إذ كان استنزاف المالك للمستأجر مطلقاً وبلا حدود^(٥١) .

وقد نمت ظاهرة تأجير الأراضى حتى بين صغار الملاك الذين أغرام ارتفاع الإيجارات فقاموا بتأجير جزء من أراضيهم ، ومن الثابت أن ثلث الملاك لأقل من خمسة أفدنة كانوا يؤجرون أراضيهم أو جزءاً منها ثم يقومون بالعمل كعمال موسمين في أراضى الغير ، وقد أدى ذلك إلى ظاهرة أخرى كان لها تأثيرها الخطر على الانتاج وعلاقات الانتاج وهى أن ٤٠ ٪ فقط من الحائزين هم الذين كانوا يشرفون على زراعتهم بأنفسهم^(٥٢) .

وقد أدت كل هذه الظروف إلى ظهور فئة نشطة وجشعة في نفس الوقت من المربين وتجار الأراضى الذين قاموا بدور طفيلى في الانتاج ، إذ كانوا يستأجرون قطعاً من الأرض من كبار الملاك ومتوسطيهم ثم يقومون بإعادة تأجيرها لصغار الفلاحين بأسعار أعلى بالطبع وبشروط مجحفة^(٥٣) .

ومن الضرورى هنا التفرقة بين هذه الفئة الطفيلية من الوسطاء وتجار الأراضى وبين مجموعة أخرى من كبار المستأجرين ، وهى فئة محدودة للغاية ، كانت تستأجر مساحات واسعة من الأراضى بغرض استثمارها وزراعتها بوسائل علمية وبمحاصيل نقدية مثل الخضر والفاكهة .

إن هذه الفئة الأخيرة ، على عكس الوسطاء الطفيليين ، قد لعبت دوراً ولاشك في دفع علاقات ووسائل الانتاج خطوات إلى الأمام ، ولكنها كانت - في النهاية - نماذج فردية ومحدودة .

وقد انعكس كل هذا في انخفاض الدخل الحقيقى لصغار الملاك والحائزين ، فانخفض دخل الفرد من العاملين في الزراعة من ١٢,٤ جنيه سنة ١٩١٣ إلى ٨,٢ جنيه سنة ١٩٣٣ ، وبين سنوات ١٩٣٥ - ١٩٤٩ كان هذا الدخل يتراوح بين ٨,٢ إلى ٩,٥ جنيه^(٥٥) . كما شهدت هذه السنوات انخفاضاً للدخل الزراعى بشكل عام ، فبين سنوات ١٩٣٥ - ١٩٣٩ بلغ الدخل العام من الانتاج الزراعى ٣٤٠,٤ مليون جنيه ، وتراجع هذا الدخل بشكل نسبي بعد ذلك مع ارتفاع نفقات الزراعة ومع خصم قيمة الإيجارات . ولو حسبنا الدخل الصافى من الزراعة سنة ١٩٤٥ نجده ١٠٢ مليون جنيه ، بينما وصل في ١٩٥٢ إلى ٦٧,٥ مليون جنيه ، لأن قيمة الإيجارات ارتفعت من ١٤٠ مليون جنيه إلى ١٥٠ مليون جنيه .

د - العامل الرأسمالى في الزراعة :

إن التخلف الشديد في علاقات الانتاج في ذلك الوقت لا يجب أن يحجب عنا حقيقة أنه كان هناك قطاع صغير ومحدود في الزراعة المصرية تسوده علاقات مختلفة ، هذا القطاع المحدود الذى تمثل في بعض كبار الملاك والمستأجرين وبعض الشركات الزراعية التى كانت تستخدم المزارع الواسعة والجرارات والآلات الحديثة وتستخدم عمالاً مأجورين وتنتج محاصيل للسوق أو للصناعة المحلية مثل قصب السكر والقطن والخضروات والفاكهة .

والغريب أن هذا القطاع المتطور في الزراعة المصرية قد بدأ مبكراً ومرتبطاً بالخطوات الإصلاحية التى اتخذها محمد على لتطوير الزراعة والصناعة المصرية ، ولكن عوامل خارجية وداخلية لعبت دوراً في وقف

هذا التطور . وبعد فرض معاهدة لندن على مصر من جانب القوى الاستعمارية الأوروبية ثم فتح السوق المصرى بعد ذلك لرؤوس الأموال الأجنبية ، ولكن الاحتلال البريطانى لمصر أوقف هذا الاتجاه لصالح الخطة البريطانية التى ترمى إلى تحويل مصر إلى مزرعة للقطن لمد مصانع النسيج فى بوركشير ولانكشير . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أتم التطور الزراعى فى مصر بالازدواجية ، فلقد أدت الحرب الأهلية الأمريكية إلى ازدياد الطلب على القطن المصرى ، الأمر الذى دفع الخديوى اسماعيل ومعه عدد من كبار الملاك إلى الاهتمام بتنظيم مزارعهم الواسعة واستخدام الآلات والوسائل الحديثة ، وقد وجدت فى هذه الفترة مزارع واسعة تستخدم الأساليب الزراعية الحديثة ويعمل فيها عمال مأجورون . ولكن هذا التطور تضاعف ثم توقف بعد ذلك . وتلاحظ الكاتبة البريطانية « دورين وارنر » أن هذا التوقف قد ارتبط بالسياسة الاستعمارية الإنجليزية فى مصر ، حتى أن نسبة هذه المزارع غداة الحرب العالمية الأولى كانت أقل بكثير من نسبتها فى أواخر القرن التاسع عشر (٥٦) ..

ولقد اتهم روزنشتاين السياسة البريطانية فى مصر بالتخطيط عن عمد لضرب التطور الاقتصادى المصرى فى الصناعة والزراعة وذلك بالتعاون مع كبار الملاك الاقطاعيين ، الذين انغمسوا فى الحياة الاستهلاكية المنعمة وبالغوا فيها . (٥٧) وبالرغم من كل هذه العوامل المحيطة فلقد بقى حتى سنة ١٩٥٢ قطاع رأسالى متطور فى الزراعة المصرية لعب دوراً هاماً نسبياً (٥٨) .

إن هذه الازدواجية فى الانتاج الزراعى والتى تواجدت فى كثير من البلدان التى كانت واقعة تحت السيطرة الاستعمارية ، لم تغير من حقيقة أن علاقات الانتاج الاقطاعية وشبه الاقطاعية ظلت هى الظاهرة السائدة . وليس لدينا احصائيات محددة عن المزارع الرأسالية فى مصر حتى سنة ١٩٥٢ ، ولكنها كانت متواجدة فى عدد من المساحات التى يمتلكها بعض كبار الملاك والمستأجرين الذين ارتبطوا بالنشاط الصناعى وبعمليات الاستيراد والتصدير . ومن أمثلة هؤلاء أحمد عبود « الذى كان يملك حوالى ٥ آلاف فدان ، ويشرف فى نفس الوقت على عدد من مصانع النسيج والسكر ، ومنهم أيضاً أمين يحيى وفرغلى والشيشينى والألفى عطيه . وينتفى إلى هذا القطاع من المزارع الرأسالية المتقدمة ، أراضى بعض الشركات التى كانت تستغلها استغلالاً عسرياً يستخدم الجرارات والوسائل العلمية وأيضاً العمال المأجورين . (٥٩)

وفى الفترة بين نهاية الحرب العالمية الأولى ونهاية الحرب العالمية الثانية ارتبط تطور هذا القطاع الرأسالى فى الزراعة مع التطور الصناعى والتجارى النامى فى ذلك الوقت وارتفع عدد الجرارات المستخدم فى الزراعة المصرية فى تلك الفترة من ٢٠٠ جراراً إلى ١٠ آلاف جرار . وقد كانت هذه الجرارات مستخدمة فى ٨٦٠٠ حيازة زراعية تمثل ١ ٪ فقط من كل الحيازات الزراعية فى ذلك الوقت . (٦٠)

كما شهدت خريطة المحاصيل الزراعية فى ذلك الوقت تطوراً لصالح المحاصيل النقدية والتجارية والصناعية . (٦١) فتضاعفت مساحة الأراضى المنزرعة بالخضر والفاكهة ، ومن المعروف أن زراعة الفاكهة تحتاج بشكل خاص إلى استثمار رأسالى أكبر من المحاصيل التقليدية ، وهذه الفئة سواء كانوا ملاكاً كباراً أو مستأجرين أو شركات زراعية هى التى وضعت أسساً لظروف جديدة فى الانتاج الزراعى كانت تبرز أكثر وأكثر طوال النصف الأول من القرن العشرين (٦٢)

الخلاصة :

يمكن القول أنه حتى سنة ١٩٥٢ كانت هناك ثلاثة أشكال تسود علاقات الانتاج في الزراعة المصرية :

١ - ظل الشكل الاقطاعى وشبه الاقطاعى والذي تسوده علاقات انتاج متخلفة هو الشكل السائد حتى سنة ١٩٥٢ . فأدوات الانتاج المستخدمة بدائية والعلاقة بين الفلاحين ، صغار الملاك والمستأجرين ، وبين كبار الملاك علاقة تبعية تتحكم فيها عوامل اقتصادية وغير اقتصادية وتسودها أساليب القهر والطغيان الموروثة منذ عهد المماليك والملتزمين . ويرتبط كبار الملاك بعلاقات وثيقة متداخلة مع السلطة وأجهزة الدولة مستخدمين كل هذا في تعميق الاستغلال والسيطرة على فقراء الفلاحين ومعدميهم .

٢ - برز قطاع رأسمالى محدود تسوده علاقات انتاج جديدة ، ويتمثل في المزارع الواسعة والتي تستخدم الجرارات والآلات الزراعية والوسائل الحديثة ، وتنتج محاصيلها للسوق الرأسمالى ولبعض الصناعات وتستخدم عمالا زراعيين مأجورين . ولقد نما هذا القطاع بشكل ملحوظ في النصف الأول من القرن العشرين ، ولكنه لم يلعب في النهاية دوراً رئيسياً وظلت تأثيراته محدودة ، بتعايش في ظل سيادة القطاع التقليدى « الاقطاعى وشبه الاقطاعى » .

٣ - ثم هناك قطاع ثالث مختلط ، نما وامتد بعد تقنين الملكية الزراعية وبروز طبقة وسطى من الملاك ، ولكنه ومع السيطرة شبه المطلقة لكبار الملاك والازدياد المطرد لظاهرة الايجار تراجع دور هذا القطاع وحوصر ، وليس من الغريب أن تثبت فئة متوسطة الملاك عند نسبة لاتتعداها لفترة تزيد عن الخمسين عاماً ، بل لقد لجأ كثيرون من هذه الفئة إلى تأجير أراضيهم وبالأشكال المتخلفة التي كانت سائدة ،..

لقد انعكس هذا التخلف في علاقات الانتاج والقوى الاجتماعية بشكل خاص في التردى الثقافى الواسع الذى خيم على القرية المصرية ، وارتبطت الأمية السائدة بالقيم والعادات القديمة والمتخلفة بالإضافة إلى تراث طويل من القهر والاستبداد مما فرض على الفلاحين انماطاً من السلبية والخضوع والصمت كادت تقتل فيهم نزعات التحرر والابتكار وتفقد روح الحركة والجمال .

إن البؤس الذى عاش فيه الفلاحون المصريون دفع كاتباً فرنسياً زار بعض القرى المصرية في الثلاثينيات لأن يكتب في مجلة « ايكودى بارى »

« لقد رأيت أشد قرى المانش الأسبانية فاقة ، رأيت منازل أهل الرأس الأخضر الرديئة ، ورأيت عشش اللانداس الذين هم متوحشوا أعماق أنجولا ، ولكن لم أشعر بالبؤس قط مثلاً شعرت به في بيوت القرية المصرية » (٦٢)

هوامش

- ١ - من المعروف أنه حتى ذلك الوقت كانت الصحافة تطلق على حركة الضباط الأحرار اسم « الحركة المباركة » ولم يستخدم اسم الثورة إلا في سنة ١٩٥٢ حينما أطلق الضباط على مجلسهم اسم « مجلس قيادة الثورة » .
- ٢ - قال ذلك سيد مرعى الذى كان هو نفسه أحد كبار الملاك ، ولقد كان غريبا بالنسبة له أن يعترض بعض الملاك على هذا القانون « بالرغم من أن الإصلاح الزراعى أصبح مبدأ طبق بالفعل فى حوالى ١٢ بلدا منها دول ديمقراطية وبرلمانية مثل الدانمرك وفنلندا وإيطاليا ، وبالرغم من أن كبار الملاك فى هذه البلدان حصلوا على أراضيهم بوسائل مشروعة وليس من خلال الهبات والقهر » .
سيد مرعى - الإصلاح الزراعى - ص ٣١ ، ٣٢ - القاهرة سنة ١٩٥٧
- ٣ - عملت دورين وارينز كأستاذ للاقتصاد السياسى فى جامعة لندن .
وقد عملت فى القاهرة فى الفترة بين ١٩٤٦ - ١٩٤٧ من خلال الأمم المتحدة . وركزت اهتمامها فى معالجة مشاكل الفلاحين والانتاج الزراعى فى أوروبا ودول العالم الثالث ، وتناولت فى الغالبية العظمى من كتبها هذه القضايا . ومن بين هذه الكتب « اقتصاديات المزرعة الفلاحية » سنة ١٩٣٩ ، « الغذاء والمزارع فى أوروبا بعد الحرب » ١٩٤٧ - « الأرض والفقر فى الشرق الأوسط » ١٩٥٥ - « الإصلاح الزراعى والتطور فى الشرق الأوسط - دراسة عن مصر والعراق » ١٩٥٧ وقد توفيت د . وارينز سنة ١٩٧٢ .
- ٤ - إن الضجة الواسعة التى أثارها قانون الإصلاح الزراعى لا تتناسب مع التغيرات الحقيقية التى جاء بها هذا القانون فى الواقع . لقد من القانون ١٠ ٪ فقط من الأراضى الزراعية ، وأعطى للمالك الحق فى الاحتفاظ بـ ٢٠٠ فدان وهذا يعنى دخلا سنويا بين ٥ آلاف ، ٦ آلاف جنيه مصرى ، كما احتفظ القانون لهم بحق التمريض المالى .
دورين وارينز - الإصلاح الزراعى والتطور فى الشرق الأوسط . ص ٢٦ ، ٢٧ - لندن ١٩٥٧ .
- ٥ - طارق البشرى - تقرير عن الإصلاح الزراعى - مجلة الطليعة - القاهرة سبتمبر سنة ١٩٦٨ .
- ٦ - منشورات التنظيمات الماركسية فى الفترة بين ١٩٥٢ - ١٩٥٥ . وقد أورد أبراهام عامر هذه الأفكار فى كتابه - الأرض والفلاح - القاهرة سنة ١٩٥٨ .
- ٧ - انشغل كل من ماركس وأيضا المجلز بالمجتمعات ذات المشروعات الهيدرولوجية ، وقد رأيا فى هذه المجتمعات سيطرة الحكومات الآسيوية على مشاريع الزراعة وخاصة الرى . وقد لاحظ فردريك المجلز أنه كان دائما من مهمة الحكومات الأتوقراطية والمطلقة فى الهند وإيران أن ترعى عملية الرى ووصول مياه الأنهار إلى الوديان .
لقد كانت مشروعات الرى ضرورية للزراعة فى تلك البلدان وبدونها لم يكن من الممكن الاستمرار . جان شينو - نمط الانتاج الآسيوى - ص ٥١ - بيروت سنة ١٩٧٢ .
- ٨ - المرجع السابق ص ٤٢
أكد كل ماركس والمجلز أن غياب الملكية الفردية فى الأرض هو مفتاح كل شيء فى هذه البلدان .

٩ - كتب ج . شينو : « لقد فرق ماركس بوضوح بين نمط الملكية الآسيوية وأنماط الملكية الأخرى في العصور القديمة . كما فرق بين هذه الاشكال وشكل الملكية الجرمانية . وكان من رأيه أن هناك ثلاثة أشكال مختلفة من علاقات الملكية خرجت من المجتمعات البدائية ، وقد كان هذا بداية تشكيل ثلاثة أنماط طبقية مختلفة . فبينما في النمط الجرمانى كان يحتفظ الشخص المستقل في الجماعة بقطعة أرض مستقلة ، تميز النمط الآسيوى بأن الشخص كان يستغل الأرض كعضو من الجماعة وتحت رقابة وإشراف الجماعة ، وإلى جانب هذه الجماعة كانت توجد الدولة الآسيوية ، التى أطلق عليها ماركس اسم « الوحدة العليا » والتى كانت تبقى الجميع في حالة تبعية تامة . »

ج شينو حول النمط الآسيوى فى الانتاج ... ص ٤١

١٠ - ج . شينو - المرجع السابق . ص ٦٢ .

١١ - من المعروف انه كان هناك ومازال جدل خصب بين المفكرين الماركسيين حول نمط الانتاج الاسيوى ، وقد جرت مناقشات واسعة بين العلماء السوفيت حول هذا الموضوع في الفترة بين ١٩٢٩ - ١٩٣١ .

وكان الاتجاه السائد هو اعتبار هذا النمط ليس متيزاً في حد ذاته بل يدخل في إطار مراحل التطور الخمس للبشرية « الشيوعية البدائية - العبودية - الاقطاع - الرأسمالية - الاشتراكية » وانحصر الخلاف فقط حول كونها مرحلة في العبودية أو في المرحلة الانتقالية ، ولكن هذا الجود النظري تعرض لمهزات قوية في العشرين عاماً الأخيرة حيث أعيد طرح القضية من جديد وأسهم مفكرون ماركسيون كبار في لقاء أضواء جديدة تماماً على هذه القضية ، من أمثال ج . شينو ، ف . قارجا ، ج . كانال وآخرين غيرهم .

١٢ - إن مفكرين مثل فارجا وشتروفا لم يستطيعا أن يحددا بالضبط إلى متى ظل نمط الانتاج الآسيوى سائداً في مصر .

وفي رأى شتروفا أن ذلك النمط ظل سائداً حتى فترة السيطرة الرومانية ...

فارجا - حول نمط الانتاج الآسيوى ص ١٠٢ - بيروت سنة ١٩٧٢ .

١٣ - أحمد الحنة - تاريخ مصر الاقتصادية ، ص ٨ - ١٠ ، القاهرة سنة ١٩٥٨ .

١٤ - المرجع السابق .. ص ١٠ .

١٥ - قدر نابليون المبلغ السنوى الذى يدفعه الفلاحون إلى الملتزمين ب ٢٠ مليون فرنك ، كان الملتزم يدفع منها ٦ مليون كضريبة للحاكم ، ٦,٤ مليون للسultan ، ويبقى له بعد ذلك حوالى ١٧,٦ مليون فرنك .

كريستوفر وهيرولذ - بونايرت في مصر - ص ٢٤٨ - القاهرة سنة ١٩٦٤ (ترجمة فؤاد اندراوس) .

١٦ - عبد الرحمن الجبرى - تاريخ الجبرى - الجزء الثامن ص ٨٩٩ - ٩٠٠ ، القاهرة سنة ١٩٥٩ .

١٧ - ج . شينو .. حول نمط الانتاج ... ص ٦٥

١٨ - بعد الضربة التى تلقتها أحلام محمد على في مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ ، أعاد نظام العهدة في الأرض . وقد كان السبب الرئيسى للاخذ بهذا النظام هو تدهور الدخل من الزراعة وانخفاض الانتاج بعد أن هجر كثير من الفلاحين الأرض نتيجة الضرائب المرتفعة .

وقد قسم محمد على جزءاً كبيراً من أراضي العهدة بين كبار الضباط والوظفين ، وكان المتعهد يدفع ضريبة الأرض التى يتعهد بها ثم يقوم هو بمجموعها من الفلاحين بطريقته ووسائله الخاصة (لاحظ التشابه مع نظام الالتزام) . وقد بلغ مجموع الأراضي التى خضعت لنظام العهدة في عهد محمد على ١,٢ مليون فدان ، وقد ألغى نظام العهدة سنة ١٨٦٨ ، ولكن بعد أن مكن لعدد من كبار الملاك من الظهور والتبو .

ومن هؤلاء المتعهدين الذين تحولوا إلى ملاك كبار : السلحدار ، وأباطة ، والشواربى . وليس معروفا بالضبط كيف استولى المتعهدون على تلك الأراضي وإن كان الأرجح أنهم استولوا على الأراضي التى تركها الفلاحون نتيجة ارتفاع الضرائب وعجزهم عن السداد - أحمد الحنة - المرجع السابق ص ٨١ ، ٨٢ .

جابريل باير - تاريخ الملكية الزراعية في مصر - ص ١٤ - اكسفورد ١٩٦٢ .

١٩ - أحمد الحنة - المرجع السابق ص ٨١ - ٨٢ .

٢٠ - من الطريف والمهم في هذا الصدد قراءة تفاصيل الحوار الذى دار بين محمد على ومشايخ الأزهر الذين ذهبوا يحتجون على إلغائه لأراضي الوقف . وقد ثبت أنهم كانوا المستفيدين الرئيسيين من أراضي الأوقاف .

عبد الرحمن الجبرى - المرجع السابق ص ٩٤١ .

٢١ - في سنة ١٨١٣ وحينما ألغى محمد على نظام الالتزام كانت مساحة الأراضي الزراعية في مصر ٧١٠ و ٢,٠٥٤ مليون فدان وبعد العديد من الاصلاحات ومشاريع الري التى قام بها محمد على بلغت تلك المساحة سنة ١٨٤٠ إلى ٢,٨٥٦,٢٢٥ مليون فدان وبلغت سنة ١٨٥٢ إلى ٤,١٦٠,١٦٤ مليون فدان ، وذلك يعتبر بكل المقاييس انجازاً كبيراً في هذا المجال .

أمين مصطفى عيسى - تاريخ مصر الاقتصادية والمالى فى العصر الحديث ص ٤٧ ، ٤٨ - القاهرة ١٩٥٣ .
أحمد الحجة - المرجع السابق ص ٦٠ .

٢٢ - وفى سنة ١٩٥٢ كان هناك عدد من كبار الملاك الذين نشأوا منذ قسم محمد على الأراضى الزراعية . وبالإضافة للعائلة المالكة التى استحوذت على أكبر نصيب ، هناك أيضا أشخاص مثل البدراوى وشريف ، والدراملى ، وأباطة ، وخورشيد .

ولقد كانت رءوس هذه العائلات من الموظفين الذين عملوا مع محمد على . وإلى جانب هؤلاء ، كان هناك آخرون عملوا كعمد أو مشايخ بلد فى عصر محمد على مثل محفوظ ، وحسين ، والهاوى ، وعبد الحق ، والأترى ، والوكيل والشريعى وعشرات غيرهم .

على مبارك - الخطط التوفيقية - الجزء ١٢ ص ٢ - ٤٨ - الجزء العاشر من ص ١٠ إلى ص ٩٢ - الجزء ١٤ ص ٥ - ٥٣ - القاهرة ١٩٠٠ .

٢٣ - كان هدف محمد على من توزيع الأراضى على كبار الموظفين خلق ارسنراطية زراعية لحمايته وحماية نظامه .

خليل سرى - الملكية الزراعية الصغرى ، ص ٥٤ .

محمد على علوية - مبادئ فى السياسة المصرية ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ - القاهرة ١٩٤٢ . جابريل باير - تاريخ الملكية الزراعية ، ص ١٤ .

٢٤ - الكتاب السنوى - وزارة المالية - القاهرة ١٩١٠ - ١٩١١ . وبدأت الإحصائيات بعد ذلك تتناول تفاصيل خريطة من يملكون أقل من فدان وفى سنة ١٩٣٤ ، كان من يملكون فدانا فأقل يمثلون ٧٠,٥٩ ٪ من الملاك ويستحوذون على مساحة من الأرض نسبتها ١٢,٠٢ ٪ .

٢٥ - وزارة المالية - الكتاب السنوى ... ١٩٣٥ .

٢٦ - ارتفعت نسبة الأراضى المؤجرة من ١٧ ٪ سنة ١٩٢٩ إلى ٦٠ ٪ سنة ١٩٤٩ ، والسبب الرئيسى فى ذلك أن كبار الملاك ، ومعهم عدد كبير من متوسطى الملاك ، قد وجدوا أن تأجير الأراضى تريح أكثر مما لوزرعوها .

ووفقا لإحصائيات سنة ١٩٤٩ كان الدخل الصافى للفدان ١٥ جنيها مصريا ، بينما بلغت قيمة إيجار الفدان ٣٠ جنيها وأحيانا ٤٠ جنيها .

خليل سرى - الملكية ، ص ١٢٥ ، ص ١٤٦ .

دورين وأريز - الإصلاح الزراعى والتطور فى الشرق الأوسط ، ص ٤١ ، وسيد مرعى الإصلاح الزراعى ص ٢٣ .

٢٧ - كانت هناك أشكال مختلفة من الإيجار . فهناك الإيجار النقدي الذى يحدد فيه المالك قيمة الإيجار ولدة سنة فقط ، وتقدر نسبة الأراضى المؤجرة بهذا الشكل ٢٠ ٪ ، وهناك نظام الزراعة الذى يتكفل المستأجر بزراعة الأرض وتحمل تكاليف الزراعة على أن يورد للمالك ثلث المحصول وأحيانا النصف ، وهناك أشكال أخرى كانت تجمع بين النظامين بشكل أو بآخر ..

خليل سرى - الملكية ... ص ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤١ .

٢٨ - تقول الإحصائيات الرسمية إنه فى سنة ١٩٥٠ كانت هناك ٨٦٠٠ مزرعة تستخدم الجرارات ، وتقتل هذه المزارع ١ ٪ من مجموع المزارع ، ٤٠ ٪ من مجموع المزارع الكبيرة . وكان عدد الجرارات المستخدمة فى الزراعة المصرية فى ذلك الوقت ١٠ آلاف جرار ، جزء كبير منها (٧٠ ٪) تستخدمه المزارع الكبيرة . وقد كانت هناك بعض المزارع الكبيرة وأيضا الأراضى للملوكة لبعض الشركات الزراعية التى تستخدم بالإضافة إلى الجرارات وسائل زراعية حديثة وتنتج محاصيل صناعية (السكر - الفاكهة - القطن ..) وكانت الشركات الزراعية تمتلك ١٨٠,٦٥٩ ألف فدان جابريل باير - تاريخ الملكية ... ص ١٢٥ . مصر المعاصرة - عدد يناير سنة ١٩٦٨ - ص ١٩٨ / ١٩٩ ، على مبارك - الخطط .. الجزء العاشر ص ٩٨ .

٢٩ - لعب أغنياء الفلاحين حتى سنة ١٩٥٢ دورا وطنيا وثوريا فى القضايا الاجتماعية فى القرية ، فهم الذين قادوا الفلاحين فى ثورة سنة ١٩١٩ ، كما كانوا يمثلون القاعدة الرئيسية لحزب الوفد فى الريف . فبالرغم من أنهم كانوا يمثلون المراكز الرئيسية فى القرية إلا أنهم كانوا يعانون من سيطرة كبار الملاك والغائبين منهم بشكل خاص . شهدى عطية - تطور الحركة الوطنية . القاهرة ، فتحنى عبد الفتاح - القرية المصرية ص ١٩٨ / ١٩٩ - القاهرة سنة ١٩٧٣ . ح . الساعاتى - الطبقة الوسطى فى مصر - القاهرة سنة ١٩٥٧ .

٣٠ - كتب لورد كرومر المعتقد البريطانى فى مصر فى تقرير له سنة ١٩٠٢ : يجب أن نعمل على إبقاء وحماية الملكية الصغرى والتى يمكنها أن تمثل عاملا محافظا فى الريف ، كما تساعد على استقرار الأوضاع .

وبعد ذلك ومع ازدياد حركة مصادرة أراضى صغار الملاك من جانب البنوك العقارية وبنوك الرهونات صدر فى سنة ١٩١٣ القانون الذى يحرم مصادرة الأراضى لأقل من خمسة أفدنة وفاء للديون . وقد كان لورد كرومر كمشير المعتقد البريطانى الذى خلف كرومر فى مصر وراء صدور هذا القانون ، ويقول فى تقريره : « إن طرد الملاك الصغار من أراضيهم يمثل خطراً على مصالح البلاد ، فإن تحول هؤلاء الفلاحين الصغار إلى معدمين سيجعلهم عرضة لموبقات الاشتراكية ودعاؤها فى العدالة ، مثلما الحال عندنا فى أوروبا » . ولقد توصل بعض الاصلاحيين المصريين إلى نفس النتائج . جابريل باير - تاريخ الملكية .. ص ٨٧ / ٨٩ . خليل سرى - الملكية الريفية .. ص ٤٦ / ٤٨ .

٢١ - في سنة ١٨٧٩ كتب القنصل البريطاني في الأقصر في تقرير له لحكومته أن كثيراً من الفلاحين يبيعون أراضيهم للعمد نتيجة الضرائب الكثيرة بل أن بعضهم يتركها أصلاً . ولأن الذين يعملون في أراضي كبار الملاك كانوا معافين من السخرة ، فإن كثيراً من الفلاحين يفضلون ترك ملكياتهم الصغيرة والعمل عند كبار الملاك .

جانريل ناير - تاريخ الملكية .. ص ٣١ . وليام سليمان - الفلاح المصري والملكية - مجلة الطليعة يناير سنة ١٩٦٥ .

٢٢ - في الفترة من ١٨٩٧ حتى ١٩٤٧ زاد عدد السكان في الريف بنسبة ١٠٠ ٪ ، في حين أن الأرض المزروعة لم تزيد إلا بنسبة ١٢ ٪ وانخفض متوسط ما يخص الفرد من الأراضي الزراعية في نفس الفترة من ١,٥ فدان إلى ٠,٧ من الفدان ،

فؤاد الدهان - نحو ريف ثورى - مجلة الطليعة - يناير سنة ١٩٦٥ .

٢٣ - صودرت مساحات واسعة من أراضي الفلاحين وفاء للديون المركبة لبنوك الرهونات وتجار القري ، الذين كانوا يقرضون الفلاحين بفوائد عالية تصل إلى ٤٠ ٪ . وقد لعبت المحاكم المختلطة في ذلك الوقت دوراً حطيراً في نزع ملكية الفلاحين .

شارل عيسوى - مصر في الثورة ص ٢٦ - اكسفورد ١٩٦٥ .

وليام سليمان - الفلاح المصري والملكية - ص ٣٦ .

يوسف نحاس - الفلاح ص ٩١ ، ٩٢ - القاهرة ١٩٢٦ .

٢٤ - هارولد بتلر ، نائب مدير مكتب العمل الدولي ، كتب هذا التقرير بناء على طلب الحكومة المصرية برئاسة اسماعيل صدقي في ذلك الوقت - مارس سنة ١٩٣٢ .

عبد المنعم الغزالي - تصور حركة عمال الزراعة - مجلة الطليعة - سبتمبر سنة ١٩٦٦ . شهدى عطية الشافعى - تطور الحركة الوطنية ص ٧٢ .

٢٥ - في القانون الذى صدر سنة ١٩٤٢ وسمح لأول مرة للعمال بتنظيم أنفسهم في نقابات مستقلة ، استثنى عمال الزراعة من هذا الحق .

عبد المنعم الغزالي - تاريخ الحركة النقابية المصرية ص ٢٠٢ - القاهرة سنة ١٩٦٨ .

٢٦ - هارولد بتلر - تقرير بتلر عن العمل والعمال في مصر - مجلة الطليعة سبتمبر سنة ١٩٦٦ .

٢٧ - في البلدان النامية يجب التفرقة بين فئات مختلفة داخل صفوف البروليتاريا الزراعية ، ومعنى أدق بين الفلاحين أشباه البروليتاريا وملاك المساحات القزمية ، والمستأجرين الصغار الذين يدفعون إيجاراً تقديماً . فاستئجار قطعة أرض صغيرة يكون تقليداً لدى البروليتاريا الزراعية أو الفلاح الصغير . ويدخل في تشكيل وعى هذه الفئات الاجتماعية الكثير من التقاليد القديمة والأفكار الدينية .

ت . سميثز - الاقتصاد السياسى للتخلف - ص ٢٧٧ - بودابست ١٩٧١ .

٢٨ - الجدول - ملاك الأراضي الزراعية لأقل من خمسة أفدنة

عدد الملاك	مساحة الأرض	
١٤٥٩١٦٧	٤١٣٥٥١	أقل من ٥ فدان
٥٥٢١٦٢	٣٠٦٦٩٥	من ٥ إلى ١٠ فدان
٣٢٢٦١٢	٤٤٩٨١٦	من ١ - ٢
١٤٥٢٦٣	٤٥٤٨٥٥	من ٢ - ٣
٢٤٨٨٢٠٤	١,٥٩٩,٩٩٧	

المصدر : سيد مرعى - الاصلاح الزراعى - ص ١٧٧ .

٢٩ - سيد مرعى - التفتيت في الأراضي الزراعية - مطبوعات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية ص ٢ - ٥ القاهرة ١٩٦٨ .

في سنة ١٩٥٠ كان يوجد ٦ مليون قطعة أرض ملكية مفتتة ، ويصل متوسط تفتيت الملكية إلى ست قطع كل قطعة أقل من الفدان .
سيد مرعى - الاصلاح الزراعى .. ص ١٧٨ .

- ٤٠ - مجلة مصر المعاصرة - ندوة عن الميكنة الزراعية المصرية - ص ١٩٨ - ١٩٩ القاهرة - يناير سنة ١٩٦٨ .
- ٤١ - إن الوسيلة التي كان يدفع بها الفلاحون ، سواء قدا أو بالعمل في أراضى الملاك لا تتغير من الطبيعة الحقيقية للنظام الاقطاعى .
- ف . ا لينين - تطور الرأسمالية في روسيا - ص ١٩٦ - ١٩٧ - موسكو سنة ١٩٦٧ .
- ٤٢ - حسين خلاف - تطور الملكية العقارية في مصر - من مطبوعات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية - ص ٤ - ٨ القاهرة ١٩٦٧ .
- ٤٣ - الكتاب السنوى للإحصائيات - الملكية الزراعية ص ٢٢ - القاهرة ١٩٥٢ .
- ٤٤ - حسين خلاف - تطور الملكية العقارية في مصر .. مريت غالى . الاصلاح الزراعى - ص ١٢ ، ١١ ، ٣٠ ، ٣١ القاهرة ١٩٤٥ .
- ٤٥ - خليل سرى - الملكية الريفيه .. ص ٤٧ .
- ٤٦ - أمين مصطفى عفيفى - تاريخ مصر الاقتصادى .. ص ٤٠١ .
- ٤٧ - صبحى وحيدة - في أصول المسألة المصرية ص ١٨٢ - القاهرة ص ١٩٥٢ .
- ٤٨ - ف . ا لينين - تطور الرأسمالية في روسيا . ص ١٨٧ .
- ٤٩ - دورين وارينز - الاصلاح الزراعى والتطور .. ص ٤١ .
- خليل سرى - الملكية الريفيه .. ص ١٣٥ ، ١٤٦ .
- وأكدت دراسة قام بها شارل عيسوى في كتابه « مصر في الثورة » أن ثمن الفدان في مصر سنة ١٩٤٥ يساوى عشرين سنة من العمل للعامل الزراعى ، بينما لن يساوى في الولايات المتحدة ما يوازى عشرة سنوات عمل .
- شارل عيسوى - مصر في الثورة - ص ١٥٨ - لندن سنة ١٩٦٣ وفي خطابه أمام مجلس النواب سنة ١٩٥٠ ، أكد وزير الصناعة والتجارة أن قيمة إيجار الفدان قد تضاعفت في خمس سنوات . في سنة ١٩٤٤ ٧,٥ جنيه مصرى ، سنة ١٩٥٢ بلغ الإيجار ١٥,٧ جنيه مصرى .
- ٥٠ - حدول - نسبة الأراضى المؤجرة ١٩٣٩ - ١٩٥٠ . أحمد حسن - الحيازات الزراعية والمزارع التعاونية في مصر - رسالة ماجستير - كلية الزراعة جامعة عين شمس ص ٣٠٩ - سنة ١٩٧٢ .
- ٥١ - أكد لينين خطأ الفكرة التي يذهب اليها البعض ، من أن الإيجار النقدي هو الشكل الرأسمالى للإيجار . ويقول لينين « أن الإيجار الرأسمالى هو ذلك الجزء من فائض الانتاج الذى يدفعه الفلاح للمالك الأرض . والإيجار النقدي الذى لا يترك للفلاح سوى دخل قليل جدا هو ولا شك لا يقوم على أساس رأسمالى . لينين - تطور الرأسمالية في روسيا ص ١٧٨ .
- ٥٢ - جابريل صعب - الاصلاح الزراعى في مصر ١٩٥٢ - ١٩٦٢ - ص ١٣ ، اكسفورد سنة ١٩٦٧ .
- ٥٣ - المرجع السابق
- ٥٤ - خليل سرى - الملكية الريفيه .. ص ١٣٩ .
- ٥٥ - ح . صعب - الاصلاح الزراعى ... ص ١٣ .
- ٥٦ - دورين وارينز - الاصلاح الزراعى والتطور ... ص ٤٠ ، ٤١ .
- ٥٧ - تيودور روزنشتاين - تاريخ مصر قبل وبعد الاحتلال البريطانى ص ٤٠٩ ، ٤٥١ - القاهرة - سنة ١٩٧٧ .
- ٥٨ - بالنسبة للازدواجية في الزراعة المصرية يجب أن نتحفظ هنا ، وذلك أنه بالرغم من تواجد هذه الازدواجية ، إلا أنها لم تكن بالحجم والاتساع الذى نجده في بلدان نامية أخرى مثل الجزائر والدول الأفريقية .
- ففى هذه البلدان تواجد قطاع رأسمالى متطور في الزراعة وغالبا في أيدي الكولون والأجانب المستعمرين ، إلى جانب قطاع متخلف تسوده علاقات ووسائل إنتاج متخلفة للغاية في يد الفلاحين في تلك البلدان .
- عمود عبد الرؤوف - الازدواجية في القطاع الزراعى - معهد التخطيط القومى - ص ١٣ القاهرة ١٩٧٣ .
- ٥٩ - جابريل باير - تاريخ الملكية الزراعية ... ص ١٢٥ .
- ٦٠ - مجلة مصر المعاصرة - ندوة حول الملكية في الزراعة المصرية ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ، يناير سنة ١٩٦٨ .

٦١ - جدول خريطة المحاصيل الزراعية (١٨٦٩ - ١٩٥٠) ٧

السنة	القطن	الذرة	القمح	الارز	قصب السكر	خضر وفاكهة
١٨٩٩	١٤,٦	٢٢,٨	١٧,٦٥	٢,٩	١,٢	٨
١٩١٤	٣٣,٩	١٤,١٥	١٦,٥	٠,٥	٠,٦	
١٩٣٥	٢١,٤	١٩,٥	١٧,٦	٥,٦	٠,٨	٢,٩
١٩٤٥	١٢,٦	٢٤,٧	١٧,٧	٧,١	١,٠	
١٩٥٠	٢١,٠	١٦,٠	١٥,٠	٨,٠	١,٢	٥,٨

المصدر : أحمد الحنة - تاريخ مصر الاقتصادى ..

٦٢ - تحتاج الأرض المزروعة بالفاكهة إلى سنوات طويلة قبل أن تؤتي ثمارها تمتد إلى أربع سنوات للبرتقال وخمس للمango .

٦٣ - الكاتب الفرنسى هوكرىستان دى كافير - جاء ذلك فى مقالة كتبها فى صحيفة (أيكودى بارى) سنة ١٩٣٣ .. الأب عيروط الفلاح .. ص ١٤٥ .

الفصل الثاني

الذين البصير النزيحي بن النزي خطها؟ ومن الذي نفذها؟

تاريخ الأفكار الإصلاحية في مصر

قبل حوالي عشرين عاما من إجراءات محمد على الخاصة بإلغاء الالتزام وإعادة تنظيم الاستغلال الزراعى ، كانت فكرة إجراء اصلاح زراعى فى مصر قد وفدت مع حملة نابليون بونابرت ممثلة فى مفكر فرنسى هو كافاريللى الذى قدم مشروعا فى هذا المجال .

أكد كافاريللى ، الذى كان متأثرا ببداىء الثورة الفرنسية الفتية فى ذلك الوقت ، « أن هناك فى مصر ٣ مليون مواطن من بينهم ٢,٦ مليون فلاح ، وسيكن من خلال إجراء اصلاح زراعى رفع المستوى المعيشى والانتاجى لهؤلاء الفلاحين الذين يمثلون الغالبية العظمى للسكان ، أما كبار الملاك (وكلهم من المماليك والاتراك) فلا فائدة ترجى منهم من الناحية الاقتصادية » .^(١)

ولكن نابليون لم يكن لديه الوقت ، وربما أيضا لم يكن متحمسا ، لوضع أفكار كافاريللى فى التطبيق ، وكذلك كان خلفاء نابليون ، كليبر ، ثم مينو خاصة ، الذى اضطر إزاء تطورات الاحداث الساخنة أن يترك هو وجنوده الأراضى المصرية دون أى إنجاز يذكر فى هذا المجال .^(٢) ولأن قضية الزراعة فى مصر ظلت تحتل دائما أهمية خاصة ، فإن الأفكار الإصلاحية لم تتوقف . فى بداية القرن العشرين كانت هناك بالفعل أفكار مطروحة ، لعل أهمها وأكثرها فزجا الكتاب الذى أصدره ناظر مدرسة طوخ « مصطفى المنصورى » و عرض فيه تصوراتة لاجراء اصلاح زراعى تضمنت :

- إعادة توزيع الأرض على فقراء الفلاحين والمعدمين .
- تحديد قيمة الايجار بما لايزيد عن ١٠ جنيهات للفدان .
- وضع حد أدنى لأجور العمال الزراعيين ، واعطائهم حق تشكيل نقابات لهم . ومن الواضح تأثر المنصورى ، مثله مثل كثيرين غيره فى ذلك الوقت ، بالأفكار الاشتراكية . ومع صعود حركة التحرر الوطنى والشعبى فى مصر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، بدأت الأفكار فى هذا المجال تأخذ أشكالا واقتراحات أكثر تحديدا وتفصيلا .

ولو حاولنا تصنيف الاتجاهات الأساسية للأفكار الإصلاحية الخاصة بتنظيم الاستغلال الزراعى فى النصف الأول من القرن العشرين ، فسنجد أمامنا ما يلى :

١ - الأفكار الإصلاحية :

وهى التى نادى بها ممثلو الاستعمار البريطانى فى مصر وهذا أمر لا يدعو للدهشة بل إننا بتحليل أهداف هذه الإصلاحات نجد أنها فى النهاية كانت تخدم المصالح الاستعمارية ، فع أننا لا يمكن أن نتجاهل عدداً من المشاريع والاقتراحات التى تقدم بها كل من كرومر ثم كتشنر إلى الحكومة البريطانية لاجراء إصلاحات زراعية فى مصر ، إلا أن هدفها النهائى كان تحويل مصر إلى مزرعة للقطن لخدمة مصانع الغزل والنسيج الانجليزية ، ومع ذلك فقد كانت هذه الإصلاحات تبدو أكثر عصرية ، وذات طابع رأسمالى ، مقارنة بالوضع المتخلف الذى كان يفرضه كبار الملاك .

لقد كانت السياسة البريطانية فى مصر تهدف إلى وقف أى اتجاه إلى التصنيع .^(٤) وقد كان لورد كرومر واضحاً فى ذلك حين كتب يقول « إن مصر بلد زراعى وليس مؤهلاً لقيام صناعة فيه ، فهى تفتقد إلى المواد الأولية اللازمة مثل الفحم والآلات ورأس المال ، والعمالة الفنية »^(٥) . وقد ذهب الجزء الأكبر من رؤوس الأموال الاجنبية التى تدفقت على مصر فى النصف الأول من القرن العشرين فى مجالات الزراعة « التجارة بالارض والرهونات » .. والذى ذهب منها إلى الصناعة أقل القليل ..^(٦)

كانت المصالح البريطانية فى مصر وراء عدد من المشروعات الإصلاحية لدفع الانتاج الزراعى ، فقد كان الانتهاء من مشروعات الرى المرتبطة ببناء القناطر الخيرية (١٨٩١) وبناء خزان أسوان (١٩٠٢) وكذلك بناء شبكة شبه كاملة للصرف فى المكس (١٩١١) يخدم فى النهاية خطة تحويل مصر إلى مزرعة للقطن . ولكن هذه الإصلاحات فى تنظيم الرى والصرف لم تكن كل شئ ، فلقد كانت هناك مبادرات أخرى وفى مجالات أخرى .

● فقد دفعوا رئيس وزراء مصر ، ورجلهم فى نفس الوقت رياض باشا إلى العمل على إلغاء السخرة فى مواجهة معارضة عنيفة من جانب كبار الملاك ..^(٧)

● مساندة الاتجاهات التى كانت تطالب بحل أراضى الأوقاف . ولقد ظلت هذه الأراضى حتى سنة ١٩٥٢ تمثل ١١,٥ ٪ من الأراضى وتلعب دوراً سلبياً فى تطور الانتاج الزراعى .^(٨)

● الدفاع عن الملكيات الصغيرة فى مواجهة موجة الرهونات ونزع الملكية التى اتسعت فى السنوات العشر الأولى للقرن العشرين .

والتقارير التى قدمها كرومر ثم كتشنر حتى سنة ١٩١٣ للخارجية البريطانية تبدى مخاوفها بوضوح من انقراض وتضاؤل الملكية الصغيرة فى مصر ، الأمر الذى يمثل خطراً « ليس فقط على المصالح البريطانية بل وعلى النظام الاجتماعى فى مصر » . لقد شهدت بدايات القرن العشرين مصادرات واسعة لأراضى صغار الملاك من جانب بنوك الرهونات والمرايين ، وقد رأى لورد كرومر فى ذلك تطوراً خطيراً لأن هؤلاء الملاك الصغار سيتحولون إلى عمال زراعيين معدمين « الأمر الذى يجعلهم نهبا للأفكار الاشتراكية الشريرة التى نواجهها فى أوروبا » .^(٩)

وقد انشئ البنك الزراعى المصرى سنة ١٩٠٢ ، وبرؤوس أموال بريطانية من أجل هذا الغرض .
وحدد كرومر دور البنك فى « دعم وتوسيع قاعدة الملكية الصغيرة فى مصر كلما أمكن ذلك ، حفاظاً على وجود هذا العامل الحافظ فى الزراعة المصرية والذى يمثل عامل استقرار للوضع الاجتماعى كله .. »^(١٠) ولقد دافع لورد كتشنر خليفة كرومر فى مصر ، عن تلك السياسة وتوسع فيها حتى استطاع بنفذه أن يصدر قانون حماية الملكية الصغيرة (١٩١٣) ، الذى يحرم أى مصادرة للحيازات التى تقل عن خمسة أفدنة .. وبرر كتشنر صدور هذا القانون فى رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية بأنه « كان من الضرورى حماية الحيازات الصغيرة ، لأن تلك الطبقة ضرورية للمجتمع ، وإضعاف دورها يمس المصالح الأساسية لدولة زراعية مثل مصر » . وبذلك يتضح أن الحفاظ على الملكية الصغيرة وتوسيع قاعدتها كان يمثل الحلقة الرئيسية فى السياسة الإصلاحية التى اتبعتها الحكومة البريطانية فى مصر . وقد أشار ا . كروشلى فى كتابه « الاستثمارات الرأسمالية فى الشركات المصرية » إلى الدور الخطير الذى لعبته هذه السياسة والتى أدت إلى تعميق مشكلة التفكيت الزراعى .^(١٢) ولعل أخطر ما قدمته هذه السياسة أنها عكست نفسها عند عدد ليس بالقليل من الذين تعرضوا للأفكار الإصلاحية من المصريين .

ب - أفكار البورجوازية الوطنية فى الإصلاح :

كان من الطبيعى أن تتأثر الأفكار الإصلاحية لدى البورجوازية المصرية بالاتجاهات البريطانية وخاصة فيما يتعلق بفكرة « توسيع قاعدة الملكية الصغيرة » .

فكل من خليل سرى فى كتابه الهام « الملكية الريفية الصغرى » الذى صدر سنة ١٩٣٨ ، وإلى حد مايوسف نحاس فى كتابه « الفلاح » سنة ١٩٢٦ ، تأثر بهذه الأفكار . لقد هاجم خليل سرى كبار الملاك والسياسة البريطانية فى مصر هجوماً شديداً ، ولكنه عندما بلور أفكاره الإصلاحية فى الزراعة المصرية طالب هو الآخر بضرورة توسيع قاعدة الملكية الصغيرة ، بل واستخدم إلى حد كبير نفس المنطق الذى استخدمه كل من كرومر وكتشنر ، ووفقاً لوجهة نظره قال « فقدان الملاك الصغار لأراضيهم سيجعل منهم بروليتاريا زراعية تهاجر إلى المدينة وتقع فريسة للأفكار الاشتراكية الخطرة »^(١٣) وقد ردد يوسف نحاس ذلك بدرجة أو بأخرى وإن كان قد شغل نفسه أكثر بالدفاع عن العمال الزراعيين وطالب لهم بظروف عمل أفضل^(١٤) .

وجاء بعد خليل سرى ويوسف نحاس من طور أفكاراً أكثر تحديداً بالنسبة للإصلاح الزراعى فى مصر . فلقد تقدم محمد خطاب عضو مجلس الشيوخ عن الحزب السعدى ، حزب البورجوازية الصناعية ، باقتراح فى المجلس يطالب فيه بوضع حد للملكية الزراعية بـ ٥٠ فداناً . ومن المهم هنا أن نشير أن خطاب الذى كان هو نفسه مالكا كبيراً ، لم يكن يعنى تطبيق مشروعه فى ذلك الوقت (١٩٤٤) ، ولكن - كما حدد هو - للتطبيق التدريجى فى المستقبل^(١٥) . وكرر هو الآخر مخاوفه من أخطار وتهديد الأفكار الاشتراكية إذا لم تطبق هذه المشروعات الإصلاحية .^(١٦)

ولقد وافقت لجنة الشؤون الاجتماعية فى مجلس الشيوخ على المشروع الذى قدمه خطاب مع تعديل الحد الأقصى ورفعته إلى ١٠٠ فدان بدلاً من ٥٠ فدان . ولكن مجلس الشيوخ رفض المشروع فى النهاية سنة ١٩٤٧

لأنه ذهب أبعد من تصورات كبار الملاك ومثليهم في المجلس. (١٧) على أنه من بين الكثير من الأفكار الإصلاحية التي ردها المعبرون عن البورجوازية المصرية النامية في ذلك الوقت ، تبرز التصورات التي عبر عنها مريت غالى كنموذج أمثل .

وقد عبر غالى عن تصوراتها في كتابين أصدرهما « سياسة الغد » و « الإصلاح الزراعى » . في هذين الكتابين ، وفي عدد آخر من المقالات والدراسات ، قدم غالى مشروعا متكاملًا لاجراء اصلاح زراعى يقوم على الأسس التالية :

● وضع حد أقصى للملكية الزراعية تقدر بـ ١٠٠ فدان ، على أن تتاح الفرصة لمن يملكون أكثر من هذا الحد ، للتصرف في ممتلكاتهم الزائدة بالبيع أو الهبة في خلال ثلاث سنوات .

● توزيع الأراضى الزائدة عن الحد الأقصى على صغار الفلاحين بالثمن على أقساط طويلة المدى .

● وضع حد لقيمة الايجار للأراضى الزراعية .

● الاهتمام الواسع بالتعاونيات لكي تكون قادرة على مد الفلاح بالقروض الائتمانية والمتطلبات الأساسية للزراعة (١٨) . ولقد قام مريت غالى بعرض واف لتجارب الإصلاحات الزراعية التي تمت في كثير من دول العالم ، وشرح الأسس التي تقوم عليها أفكاره في الإصلاح بما يلى :

« إن الاجراء الخاص بتحديد الملكية الزراعية إجراء قاس تضطر اليه الحكومات خشية تهديد الثورة الاشتراكية . ونحن نأمل أن بتنفيذ اجراءات الإصلاح الزراعى كما أقترحناها فاننا نتفادى بذلك الاجراءات الخطيرة مثل مصادرة الأراضى . أننا بذلك نتفادى التعقيدات والآراء الخطرة التي تتمثل في الاجراءات المتطرفة ضد كبار الملاك ..» (١٩)

وإلى جانب الأفكار التي طرحها مريت غالى ، كانت هناك أفكار وبرامج مماثلة بشكل أو بآخر طرحتها أحزاب وتنظيمات مثل الحزب الاشتراكي وجماعة الاخوان المسلمين. (٢٠) ولقد قدمت تقريبا نفس التفسيرات حول ضرورة إجراء اصلاح زراعى تفاديا « لخطر الاتجاهات المتطرفة » أو مثلما حذر غالى بوضوح « من النموذج البلشفي في الإصلاح الزراعى ، والذي يمثل تهديدا بالخطر الأحمر » .

جـ - الأفكار التي طرحها الماركسيون والقوى التقدمية :

وإلى جانب هذين الاتجاهين في الإصلاح الزراعى ، سواء ما قدمه ممثلو السلطة البريطانية في مصر ، أو ممثلو البورجوازية المصرية الناشئة ، كان هناك اتجاه ثالث يمثل الأفكار والاتجاهات الراديكالية ، التي عبرت عنها المجموعات الماركسية المصرية وبعض التجمعات التقدمية الأخرى . لقد كان من الواضح تأثير هذه الأفكار بالفكر الاشتراكي العالمى في هذه الاتجاه .

فإذا تجاوزنا الأفكار المبكرة التي طرحها ناظر مدرسة طوخ في كتابه ، فإن الحزب الاشتراكي المصرى الذى تقرر حله سنة ١٩٢٤ قدم برنامجا متيزا للإصلاح الزراعى تضمن المطالبة بمصادرة أراضى كبار الملاك وتوزيعها على الفلاحين المعدمين ، وحق العمال الزراعيين في إقامة تنظيماتهم المستقلة ، والتوسع في التعاونيات الزراعية وتطويرها بحيث تتحول إلى تعاونيات انتاجية (٢١) . ورفع الحزب شعار « الأرض لمن يفلحها »

ولكن قرار حل الحزب ثم اعتقال قاداته ومطاردة أعضائه لم يمكنه طبعاً من أن يبلور أفكاره حول هذا الموضوع بالتفصيل .

وفي سنة ١٩٢٥ أصدرت جريدة الحساب ، ذات الاتجاه الماركسي ، سلسلة من المقالات المتتالية تطالب فيها بضرورة إجراء إصلاح زراعي جذري ، وطالب عمال الزراعة وصغار الفلاحين بالتنسيق فيما بينهم وتوحيد خطواتهم لخلق حركة فلاحية قوية منظمة تضم النقابات الزراعية والفلاحين .. (٢٤)

ولقد قامت أول نقابة للعمال الزراعيين في مصر في منطقة المطاعنة في الصعيد على المزارع التي كانت تمتلكها وتستثمرها إحدى الشركات الزراعية .. (٢٥) .

وفي الثلاثينيات تعرض بعض الكتاب المتأثرين بالفكر الاشتراكي العالمي لقضية الإصلاح الزراعي من أمثال عصام حفي ناصف وعدد آخر من الكتاب والمفكرين . أما في الأربعينيات فقد طرحت التنظيمات الشيوعية في ذلك الوقت برنامجاً تفصيلياً حول الإصلاح الزراعي تضمن النقاط التالية :

- ١ - مصادرة أراضي كبار الملاك التي تزيد عن ٥٠ فداناً وبدون تعويضات .
- ٢ - توزيع الأراضي المصادرة وبلا مقابل على المعدمين وصغار الملاك الفلاحين .
- ٣ - بناء تعاونيات زراعية انتاجية تقوم بمساعدة الفلاحين وتقديم المعونات وتنظيم عملية الاستغلال الزراعي .

- ٤ - تحديد الأراضي المنزرعة بأشكال الإيجار المختلفة للحد من تلك الظاهرة الخطيرة على الانتاج ببحث حالات الإيجار وإعطاء الأرض المؤجرة لمن يعمل في الزراعة بالفعل .
- ٥ - تنظيم نقابات لعمال الزراعة (٢٦)

ذلك إلى جانب البرامج التي طرحتها التنظيمات والشخصيات التقدمية التي اهتمت بهذه القضية . وقد كانت هذه الأفكار متأثرة بكل أو بآخر بالتطبيقات الاشتراكية للإصلاح الزراعي وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية في بعض دول أوروبا والصين .

فجاءة الطليعة الوفدية ، وكانت تمثل تجمعاً يسارياً داخل حزب الوفد ، قدمت بعض الأفكار الراديكالية في هذا الصدد ، تقترب بشكل أو بآخر من أفكار الماركسيين ، كما أن عدداً من الكتاب والمفكرين التقدميين تناولوا قضية الإصلاح الزراعي من منظورات ثورية ، لعل من أهمهم إبراهيم رشاد الذي كان أحد القادة الرواد للحركة التعاونية في مصر ، وقدم عدداً من المؤلفات حول هذا الموضوع أهمها كتابه « المزرعة التعاونية » الذي قدم فيه مشروعاً متكاملًا لتطوير جمعيات تعاونية زراعية انتاجية في مصر متأثراً إلى حد كبير بالنماذج التعاونية في دول أوروبا الاشتراكية . (٢٨) وكان إبراهيم رشاد في مشروعه مدركاً لمخاطر التفتيت والملكيات القزمية بالنسبة للانتاج الزراعي ، ولذلك قام مشروعه على أساس المزارع الواسعة والمتكاملة .

وأنه لأمر له مغزى خاص أن تعرف أن وزارة الشؤون الاجتماعية قد وافقت على مشروع « المزرعة التعاونية الانتاجية » الذي تقدم به رشاد وأوصت بتطبيقه . على أن يتم في المراحل الأولى في بعض المناطق التجريبية (٢٩) .

وفي سنة ١٩٥٠ أوصت « لجنة الدراسات العربية للأبحاث الاجتماعية » التابعة لجامعة الدول العربية في قرارها بالقاهرة ، بمحاولة تطبيق المشروع الذى يتقدم به ابراهيم رشاد على أساس أنه الطريق الأمثل لتنظيم الاستغلال الزراعى . وتبنت اللجنة الاقتراحات المقدمة بالكامل وأكدت أنه من الأفضل أن تقوم هذه المزارع التعاونية الانتاجية على أساس آخر غير أساس الملكية الزراعية الفردية ، ويجب على الحكومة أن توفر الظروف المناسبة لاقامة هذه التعاونيات ، ويجب تنظيم كل شئ في العمل الزراعى تعاونياً ابتداء من العمل والانتاج حتى التسويق من خلال تلك التعاونيات . إن هذا وحده هو الذى يمكنه أن يحقق اصلاحاً اجتماعياً واقتصادياً في البلاد .(٣٠)

الاتجاه الاصلاحى والاتجاه الاشتراكى

في بداية الخمسينيات كان من الواضح أن هناك اتجاهين رئيسيين بين المثقفين المصريين ازاء قضية الاصلاح الزراعى هما في الواقع انعكاس لما كان يتم على الساحة العالمية . فهناك الاتجاه الاصلاحى الذى بلوره عدد من المفكرين البورجوازيين ، الذى انتبه إلى خطورة استمرار الأوضاع الزراعية المتخلفة في الدول النامية على ماهى عليه ، والذى حاول من خلال تقديم بعض الأفكار الاصلاحية مواجهة أوحى وقف الاتجاه الاشتراكى الجذرى في هذا المجال ، وذلك بخلق بورجوازية زراعية على أنقاض النظم الإقطاعية وشبه الإقطاعية وحتى نظم ماقبل الإقطاع السائدة في أشكال وعلاقات الانتاج الزراعى في هذه البلدان .

إن الهدف من خلق هذه القوى المحافظة الجديدة هو محاولة وقف مخاطر البديل الحقيقى المتمثل في « شبح الاشتراكية والطبقة العاملة الزراعية » ..

لقد جربت هذه المشروعات الاصلاحية في بلدان مثل تركيا وايران وفورموزا وعدد آخر من بلدان أمريكا اللاتينية . وتبنت الولايات المتحدة ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، هذه الاصلاحات الزراعية ، بل واستخدمت نفوذها لفرضها على الطبقات الحاكمة في بلدان مثل اليابان وفورموزا . ولقد قدم الجنرال ماك آرثر القائد العام لقوات الاحتلال الأمريكية لليابان مشروع قانون اصلاح زراعى للحكومة اليابانية وأمر بتنفيذه في فترة لاتتعدى شهراً من إرساله المشروع .(٣١)

ومن الثابت أن الولايات المتحدة قدمت النصيحة لعدد من الدول الآسيوية والافريقية والأمريكية ، وبشكل خاص لعدد من دول الشرق الأوسط ، باجراء اصلاحات زراعية ، واتخذت الأمم المتحدة ، والتي كان النفوذ الأمريكى فيها كبيراً في ذلك الوقت ، عدداً من القرارات والتوصيات لحث الدول الأعضاء على تبني هذه الإجراءات ، وكانت مصر واحدة من الدول التى تلقت هذه النصيحة .(٣٢)

أما الاتجاه الثانى فهو الذى يدعو إلى اجراء اصلاحات زراعية جذرية وراديكالية تجرى تغييرات حقيقية في علاقات الانتاج وتعمل على تقديم حلول للعقبات التى تواجه الانتاج والمنتجين الزراعيين . ولقد طبقت هذه الاصلاحات الراديكالية في الاتحاد السوفيتى وفي عدد من دول أوروبا وآسيا الاشتراكية .

وبين هذين الاتجاهين الرئيسيين على النطاق العالمى تفاوتت الاجراءات الزراعية التى إتخذت في البلدان النامية ، بعضها اتخذ الإتجاه الراديكالى ، والبعض الآخر غلب عليه الطابع الإصلاحى الذى لم يكن

يغير كثيراً من طبيعة العلاقات القائمة .

وقد لعبت عوامل داخلية كثيرة دوراً محمداً في إتجاه هذه الدول إلى الاتجاه الاصلاحى أو إلى الاتجاه الراديكالى ، على رأسها طبيعة السلطة وعلاقات القوى الاجتماعية والانتاجية في هذه الدولة أو تلك .

الاصلاح الزراعى ، سبتمبر سنة ١٩٥٢ وأثره على توزيع الملكية

كانت الضجة السياسية التى أثارها القانون الأول للاصلاح الزراعى فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ أكبر بكثير من الآثار الحقيقية لهذا القانون فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى . وأثار ذلك دهشة عدد من المراقبين الذين لاحظوا أن مثل هذا القانون المعتدل قد أدى إلى استقالة أول حكومة تشكلت بعد إستيلاء الضباط الأحرار على السلطة ، بل وإلى قيام شكل من أشكال التردد الحلى بين البعض^(٣٣) .

إن هذا القانون الذى كان يتكون من ستة أبواب تشمل أربعين مادة كان بكل المعايير معتدلاً للغاية بمقارنته بقوانين أخرى كانت قد صدرت فى عدد من الدول الآسيوية ودول أمريكا اللاتينية^(٣٤) .

لقد حددت المادة الأولى فى القانون الحد الأقصى للملكية الزراعية بـ ٢٠٠ فدان للفرد ، وسمحت المادة الرابعة للمالك أن يهب أولاده مائة فدان وهى ملكية كبيرة جداً فى بلد كمصر . وقد سمح القانون للملاك ببيع أراضيهم الزائدة عن الحد الأقصى لمن يريدون ، وأعطى لهم الحق فى تجنب أراضى الغير المباعة . كذلك قرر القانون صرف تعويضات مجزية للملاك ، فلقد قدرت أثمان الأرض بعشرات أمثال قيمتها الإيجارية وأضيفت إليها الملكيات والتجهيزات الأخرى (الأشجار والآلات ..) القائمة على الأرض بقيمة عالية ، ونظم صرف التعويضات بسحب مستندات على الحكومة تسدد على مدى ثلاثين عاماً بفائدة سنوية قدرها ٣ ٪ . وقرر القانون توزيع الأراضى الزائدة على صغار الفلاحين بواقع من ٢ إلى ٥ فدان على أن يسددوا ثمن هذه الأراضى على أقساط لمدة ثلاثين عاماً وبفائدة قدرها ٣ ٪ سنوياً يضاف إليها ١,٥ ٪ من الثمن الكلى للأرض وفاء للموجودات التى كانت على الأرض (الأشجار والآلات .. الخ) .

وتناول الباب الثانى من القانون تنظيم الجمعيات التعاونية فى الأراضى الموزعة . أما الباب الرابع فقد حدد عدداً من الاجراءات لمنع تفتيت الأراضى الموزعة ، كما حدد ضريبة جديدة للأرض . وتناول الفصل الخامس العلاقة بين الملاك والمستأجرين . أما الفصل السادس والأخير فيتعلق بوضع حد أدنى لأجور عمال الزراعة ، وباعطائهم الحق فى تنظيم نقاباتهم الزراعية . وبلغ مجموع الأراضى التى يطبق عليها قانون سبتمبر سنة ١٩٥٢ : ٦٥٣,٧٣٦ ألف فدان تنتمى إلى ١٧٨٩ مالكا كبيراً . ولكن الأرض التى طبق عليها القانون فى واقع الأمر لم تتعد ٣٧٢,٣٠٥ ألف فدان ، أما البقية وهى حوالى النصف فقد قام الملاك ببيعها بأساليبهم الخاصة حتى أكتوبر سنة ١٩٥٣ حينما ألغت الحكومة النص الذى كان يتيح للملاك أن يقوموا بأنفسهم ببيع أراضيهم ، والمؤكد أن مبيعات الملاك الخاصة لم تذهب إلى صغار الفلاحين .

وبشكل عام فقد شمل قانون سبتمبر حوالى ٧ ٪ من الأراضى الزراعية فى مصر وزعت على ١٥٠ ألف أسرة ، أى نسبة ٥ ٪ من الأسر الفلاحية التى كانت تعمل فى الزراعة فى ذلك الوقت . ويوضح هذا الجدول المقارن الأثر الحقيقى الحدود لذلك القانون^(٣٥)

توزيع الملكية الزراعية في مصر قبل سنة ١٩٥٢

حجم الملكية	عدد الملاك « بالألف »	مساحة الأرض « ألف فدان »	النسبة المئوية % الملاك	النسبة المئوية % الأراضي
أقل من ٥ أفدنة	٢٦٤٢	٢١٢٢	٩٤,٣	٣٥,٤ %
٥ - ١٠ فدان	٧٩	٥٢٦	٢,٨	٨,٨ %
١٠ - ٢٠ فدان	٤٧	٦٣٨	١,٧	١٠,٧ %
٢٠ - ٥٠ فدان	٢٢	٦٣٤	٠,٨	١٠,٩
٥٠ - ١٠٠	٦	٤٣٠	٠,٢	٧,٢
١٠٠ - ٢٠٠	٣	٤٣٧	٠,١	٧,٣
أكثر من ٢٠٠	٢	١١٧٧	٠,١	١٩,٧
المجموع الكلى	٢٨٠١	٥٩٨٤	١٠٠ %	١٠٠ %

توزيع الملكية الزراعية سنة ١٩٦٠ « بعد القانون »

حجم الملكية	عدد الملاك « بالألف »	مساحة الأرض « ألف فدان »	النسبة المئوية % الملاك	النسبة المئوية % الأراضي
أقل من ٥ أفدنة	٣٠٣٢	٣٦٩٢	٩٤,٥	٥٧,١ %
٥ - ١٠ فدان	٧٨	٦١٤	٢,٤	٩,٧ %
١٠ - ٢٠ فدان	٦١	٥٢٧	١,٩	٨,٢ %
٢٠ - ٥٠ فدان	٢٩	٨١٥	٠,٩	١٢,٦
٥٠ - ١٠٠	٦	٣٩٢	٠,٢	٦,١
١٠٠ - ٢٠٠	٤	٤٢١	٠,٢	٦,٥
أكثر من ٢٠٠	-	—	—	—
المجموع الكلى	٣٢١١	٦٤٦٢	١٠٠ %	١٠٠ %

وبقراءة مقارنة للجدولين يمكننا أن نخرج بثلاث حقائق أساسية :

١ - بالرغم من أن الجدول الثاني لم يبين ذلك بوضوح إلا أن تحليلا حقيقيا للارقام يوضح أن من يملكون أكثر من ٢٠٠ فدان ظلوا حوالى ألفى مالك يمثلون ١ ٪ من مجموع الملاك ، بينما انخفضت ملكيتهم بشكل حاد من ١,١٧٧ مليون فدان (١٩,٧ ٪) إلى ٣٤٥ ألف فدان أى نسبة ٥,٩ ٪ من مجموع الأراضى المنزرعة .

٢ - ازدياد عدد من يملكون خمسة أفدنة فأقل واتساع المساحة الزراعية التى يشغلونها .

٣ - أما من يملكون بين ٢٠ - ٥٠ فداناً فيلاحظ ازدياد عددهم (حوالى ٧ آلاف مالك جديد) وازدياد نصيبهم من الأراضى الزراعية من ١٠,٩ ٪ إلى ١٢,٦ ٪ .

مزيد من القوانين والتطورات :

هذه الاتجاهات الرئيسية للقانون الأول للإصلاح الزراعى تطورت وتعمقت بالمزيد من القوانين والتطورات التى حدثت بعد لك (٣٦) .

ويمكننا أن نحدد أهم هذه التطورات بين ١٩٥٢ - ١٩٧٠ فيما يلى :

— قانون رقم ٥٩٨ لسنة ١٩٥٢ والذى قرر مصادرة الملكيات الزراعية للأسرة المالكة ، وتقدر بحوالى ١٦٨ ألف فدان .

— القانون رقم ١٢٧ لسنة ١٩٥٧ والذى قرر حل أراضى الاوقاف وتوزيعها على صغار الفلاحين وتقدر بحوالى ١١٠ ألف فدان .

— القانون رقم ١٢٧ لسنة ١٩٦١ ، والذى أطلق عليه اسم قانون الإصلاح الزراعى الثانى ، وأهم ما فى هذا القانون هو جعل الحد الأقصى لملكية الفرد ١٠٠ فدان ، يضاف إليها ٥٠ فداناً لبقية الاسرة « الاولاد » للانتفاع فقط ، وتحريم أى مبيعات للأرض من المالك لابنائهم ، كما ألغى القانون الاستثناءات السابقة الخاصة بالأراضى قليلة الخصوبة . وتقدر الأراضى التى آلت إلى الإصلاح الزراعى نتيجة هذا القانون بـ ٢١٤,١٣٢ ألف فدان .

— القانون رقم ١٦ لسنة ١٩٦٦ الذى حرم امتلاك الاجانب للأراضى الزراعية واستولت بمقتضاه الحكومة على تلك الأراضى التى كانت تبلغ مساحتها ٦١,٩١٠ ألف فدان ، وفى نفس العام وضعت اللجنة العليا لتصفية الاقطاع حوالى ٢٠٠ ألف فدان تحت الحراسة .

— القانون رقم ٥٠ لسنة ١٩٦٩ ، والذى أطلق عليه قانون الإصلاح الزراعى الثالث ، والذى جعل الحد الأقصى لملكية الفرد ٥٠ فداناً . على أن هذا القانون الأخير لم يجد فرصة للتطبيق فى واقع الأمر وتقول الاحصائيات الرسمية أنه حتى سنة ١٩٦٩ تم توزيع ٩٨٩,١٨٤ ألف فدان على الفلاحين منها ٧٧٥,٠١٨ ألف فدان أراضى تم الاستيلاء عليها وفقاً لقوانين الإصلاح الزراعى ، و ١٨٤,٤١١ ألف فدان كانت تتبع بعض المؤسسات المختلفة ، أما الباقى وقدره ٢٩,٧٥٥ ألف فدان فقد كان حصيلة أراضى طرح النيل ، ووفقاً لنفس هذه الاحصائيات الرسمية فقد وزعت تلك الأراضى على ٣٢٥,٦٧٠ ألف أسرة (٣٨).

وقبل الدخول في دراسة تفصيلية للأثر الحقيقي لهذه القوانين في إعادة رسم خريطة الملكية الزراعية حتى سنة ١٩٧٠ ، فإن هناك ثلاث ملاحظات رئيسية :

أولاً : لأسباب كثيرة ، لم تتح فرصة حقيقية لتطبيق القانون الذى صدر سنة ١٩٦٩ وجعل الحد الأقصى للملكية ٥٠ فداناً . فمن البداية واجه القانون معارضة وهجوم عدد من الشخصيات الكبيرة والمسؤولية فى ذلك الوقت . ومن ناحية أخرى تضاربت التفسيرات للقانون ولم يتضح اذا كان هذا الحد الأقصى يتعلق بالحاضر أم بالمستقبل .

ثم عامل آخر هو أن القانون أعطى للملاك الذين تزيد أراضيهم عن الحد الأقصى الحق فى التصرف فى الملكية الزائدة ، وأخيراً فإن الإحصائيات التى صدرت بعد ذلك ، بما فى ذلك الإحصائيات الرسمية ، لم تعكس أية تغيرات فى خريطة الملكية نتيجة هذا القانون . ولهذا كله فمن المؤكد أن هذا القانون ، بالرغم من أنه يلغ ، إلا أنه لم يكن له أثر فى الواقع العملى .^(٣٩)

ثانياً : فى سنة ١٩٦٦ قامت اللجنة العليا لتصفية الاقطاع بوضع ٢٠٠ ألف فدان من أراضى بعض كبار الملاك تحت الحراسة ، وبالرغم من الطبيعة السياسية الواسعة التى صاحبت هذا الإجراء ، إلا أنه وبعد العدوان الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧ . وسياسة التهدة التى سادت بعد ذلك ، أعيد الجزء الأكبر من هذه الأراضى المصادرة إلى ملاكها السابقين ، أما الجزء الذى تبقى حتى سنة ١٩٧٠ فإنه لم يوزع على الفلاحين ووزع بطريقة الإيجار .

ثالثاً : نظراً لاختلاف ، وأحياناً تناقض ، بعض الإحصائيات ، ونظراً لتعدد مصادر هذه الإحصائيات حتى الرسمية منها (فهناك مثلاً إحصائيات وزارة الزراعة والاصلاح الزراعى ، وإحصائيات الجهاز المركزى للإحصاء والتعبئة ، وإحصائيات وزارة التخطيط ، والمعهد القومى للتخطيط) كان من الضرورى بذل جهد لمحاولة الوصول إلى صورة حقيقية لتوزيع الملكية الزراعية بعد أكثر من ١٨ عاماً من صدور أول قانون للاصلاح الزراعى .^(٤٠)

جدول توزيع الملكية الزراعية فى مصر سنة ١٩٧٠

تغيرات فى خريطة الملكية الزراعية :

كانت القوانين والتعديلات الجديدة التى صدرت بعد قانون الاصلاح الزراعى الأول تصب كلها فى ثلاثة اتجاهات رئيسية :

- مزيد من محاصرة القمم العليا للملكية الكبيرة .
- توسيع قاعدة الملكية الصغيرة .
- دعم مراكز الملكية الوسطى .

١ - فالقمم العليا من الملكية الكبيرة (أكثر من ٢٠٠ فدان) والتى كانت تمثل ٠,١ ٪ من الملاك وتسيطر على ١٩,٧ ٪ من الأراضى الزراعية حتى سنة ١٩٥٢ ، بدأت تتقلص لتختفى بعد ذلك نهائياً من خريطة الملكية الزراعية بعد سنة ١٩٦٥ أما قطاع الملكية الكبيرة بين ١٠٠ - ٢٠٠ فدان فقد تقلصت ملكيته بشكل

طفيف من ٧,٣ ٪ إلى ٦,٥ ٪ من الأراضى الزراعية ، بالرغم من زيادة الملاك في هذه الشريحة من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف مالك وقد جرى نفس الشيء بالنسبة لشريحة الملكية من ٥٠ - ١٠٠ فدان فلقد حافظوا على نسبتهم سواء بالنسبة للملاك أو بالنسبة للأراضى مع انخفاض طفيف من ٧,٢ ٪ إلى ٦,١ ٪ .

ومن هذا يتضح أن القمم العليا للملكية الكبيرة هى التى تلقت الضربة الرئيسية .

ب - أما بالنسبة للملكية الصغيرة فبالرغم من أن نسبة الملاك في هذه الفئة ظلت ثابتة (١٩٥٢ - ٩٤,٣ ٪ : ١٩٦٥ - ٩٤,٥ ٪) إلا أن ملكيتها زادت بشكل واضح من ٣٤,٤ ٪ إلى ٥٧,١ ٪ ، ولقد جاءت هذه الزيادة على حساب أراضى كبار الملاك ، وارتفعت نسبة ملكية الفرد من هذه الشريحة من ٠,٨١ من الفدان سنة ١٩٥٢ إلى ١,٢ فدان سنة ١٩٦٥ .

ج - بالرغم من أن الاحصائيات توضح نوعاً من الثبات في الملكية الوسطى سواء بالنسبة لعدد الملاك أو مساحة الأراضى إلا أننا نلاحظ أن الفئة العليا من الملاك في هذه الشريحة بين ٢٠ - ٥٠ فداناً قد زادت ملكيتها بنسبة ٢ ٪ ، فلقد ارتفع نصيبها من الأراضى الزراعية من ١٠,٨ ٪ سنة ١٩٥٢ إلى ١٣,٧ ٪ سنة ١٩٦٥ ، كما زاد نصيب الفرد في هذه الشريحة من ٢٤,٣ فدان إلى ٢٨,١ فدان . لقد ظل هذا الاتجاه واضحاً من البداية وحتى آخر إجراء اتخذ في مجال القوانين الزراعية .

ولو قارنا هذه الاتجاهات الثلاثة التى أسفرت عنها قوانين الإصلاح الزراعى في تغيير خريطة الملكية الزراعية في مصر باجراءات مماثلة في دولة إشتراكية مثل ألمانيا الديمقراطية فنجد أن هناك تماثلاً في الاتجاه الخاص بتحجيم قمم الملكية الكبيرة . فقد انخفضت في ألمانيا الديمقراطية غداة القوانين الأولى للإصلاح الزراعى من ١٨,٦ ٪ إلى ٥,٢ ٪ من الأراضى الزراعية . وفى نفس الوقت زادت مساحة متوسطى الملاك (بين ٥ الى ٥٠ هكتار) من ٥٤,٢ ٪ إلى ٧٧,٤ ٪ من الأراضى الزراعية . أما الملكية الصغيرة (بين ٠,٥ إلى ٥ هكتار) فقد ظلت ثابتة تقريباً قبل القانون وبعده من ٩,١ إلى ٩,٧ ٪^(١) . أى أن الاتجاه الخاص بتصفية وتحجيم الملكية الكبيرة ، وأيضاً الاتجاه الخاص بدعم الملكية الوسطى كان اتجاهاً مشتركاً في القانونين .

ولكن الإصلاح الزراعى في مصر تميز بخاصية توسيع قاعدة الملكية الصغيرة ، ويمكننا القول أن هذه الخاصية ظلت هى السمة ، وفى نفس الوقت المفتاح الحقيقى ، لفهم وتقييم النتائج الحقيقية لقوانين الإصلاح الزراعى في مصر .

توسيع قاعدة الملكية الصغيرة :

إن توزيع الأراضى الزراعية على صغار الملاك والمعدمين هو مبدأ أخذت به قوانين الإصلاح الزراعى سواء في الدول النامية أو في الدول الاشتراكية أو حتى في عدد من البلدان الرأسمالية . وهو مبدأ طبق في مصر مثلاً طبق في اليابان وفي ألمانيا الديمقراطية ، فوضع حد أقصى للملكية الكبيرة وتوزيع الأرض على الفلاحين ليس مبدأ اشتراكياً في حد ذاته . ولقد اتبعت كل الدول الاشتراكية هذا المبدأ في المراحل الأولى للإصلاحات الزراعية فيها .

وقد دافع لينين عن هذا المبدأ في مواجهة معارضة شديدة داخل الحزب من الذين كانوا يرون في إعادة تمليك أراضي كبار الملاك إلى الفلاحين خروجاً عن التطبيق الاشتراكي في الزراعة . وقال في تبريره لذلك « إننا لا نريد أن نفرض رأينا على الفلاحين ، ذلك الرأي الذى يقول بأن توزيع الأراضي في قطع صغيرة على الفلاحين غير مفيد على الإطلاق ، ونحن نعتقد أنه من الأفضل أن يصل الفلاحون إلى ذلك من خلال تجربتهم الذاتية . إن توزيع الأرض على الفلاحين أمر مفيد في البداية . إن واجبنا أن نؤكد للفلاحين أن هذه الأرض لم تعد ملكاً لكبار الملاك ، وإنما هي ملك لهم ، للفلاحين .. »^(٤٢)

وعلى أية حال فإن التجربة الزراعية في الاتحاد السوفيتي ثم بعد ذلك في الدول الاشتراكية الأخرى قد أخذت بمبدأ توزيع الأراضي على الفلاحين في المرحلة الأولى باعتبارها خطوة ديمقراطية لوضع الأسس الضرورية لخطوات أكثر تطوراً لتصل بها في النهاية إلى علاقات انتاج اشتراكية في الزراعة .^(٤٣)

وفي ألمانيا الديمقراطية ثارت مناقشات واسعة حول مبدأ توزيع الأرض على الفلاحين ، ووقف قطاع هام داخل أحزاب الجبهة ضد هذا المبدأ ، وكانوا يرون أنه من الأفضل عدم تفتيت الأراضي المصادرة من كبار الملاك وتحويلها إلى مزارع وملكية تعاونية واسعة .^(٤٤) وكان الرد على هذه الدعاوى يتلخص في أن التوزيع سيساعد على كسب فقراء الفلاحين كقوة نشطة في التطور الديمقراطي ، كما سيساعد على التنمية التدريجية لاستخدام الآلات والوسائل العلمية ، وأيضاً خلق كادر فني من الخبراء والمختصين الذين تحتاج إليهم الزراعة الواسعة .^(٤٥)

أما في مصر فقد حددت قوانين الإصلاح الزراعي لهذا الإجراء هدفاً آخر ، فبالإضافة إلى تصفية القطاع ودفع النشاط الصناعى والأنشطة الإقتصادية الأخرى ، فإن توسيع قاعدة الملكية الصغيرة في مصر يهدف إلى « تجنب طريق الصراع الطبقي والحلول المتطرفة للمشكلة الزراعية . »^(٤٦) ولقد وضع هذا التطور بعد ذلك في إطار نظري واضح .

إن أحد الملامح الرئيسية للاشتراكية في مصر هو توسيع قاعدة الملكية الصغيرة في الأرض ، وهذا يتناقض جوهرياً مع الماركسية ، إن التطبيق العرقي للاشتراكية لا يؤمن بتأميم الأرض وتحويلها إلى ملكية عامة . إن تطور التجربة المصرية في الأرض محاربة القطاع تؤمن بالملكية الخاصة للأرض »^(٤٧) .

ولقد نص ميثاق العمل الوطنى الذى صدر سنة ١٩٦٢ على ذلك أى بعد ١٠ سنوات من تطبيق أول قانون للإصلاح الزراعي وبعد عام واحد من تطبيق ماسمى بقانون الإصلاح الزراعي الثانى . « وحدد الميثاق أن الطريق الثورى لحل المشكلة الزراعية في مصر يهدف إلى زيادة عدد الملاك لقد كان هذا هو الهدف من قوانين الإصلاح الزراعي ١٩٥٢ - ١٩٦١ . »^(٤٨) وفي حديث للرئيس جمال عبد الناصر حول الملكية الزراعية في مصر قال : « إن هدفنا هو زيادة عدد الملاك الزراعيين . »^(٤٩)

إن هذه الفكرة (زيادة عدد الملاك) قد تحولت إلى « تابو » Tabo ارتبط بقوانين الإصلاح الزراعي ولعب دوراً سلبياً كبيراً في تطور الزراعة وعلاقات الانتاج الزراعية ، واستخدمه كبار الملاك وأغنياء الفلاحين ضد أية محاولة لتطوير الملكية التعاونية في الأرض أو بناء تعاونيات انتاجية زراعية . فمثلاً عندما ثارت المناقشات حول مستقبل الأراضي الجديدة المستصلحة (حوالى ٩٣٩ ألف فدان) وهل توزع هي

الأخرى على الفلاحين أم تقام عليها مزارع تعاونية أو مزارع دولة واسعة تستخدم الوسائل والأساليب العلمية الحديثة ، طالب سيد مرعى ومعه عدد من كبار العاملين في الحقل الزراعى في ذلك الوقت بتوزيع الأراضى الجديدة على صغار الفلاحين ، وكان المنطق « أن الطريق المصرى لبناء الاشتراكية هو توسيع قاعدة الملكية الزراعية . » (٥٠)

إن توزيع الأرض والتوسع في الوحدة الزراعية الصغيرة كان هو الأساس الذى قامت عليه كل قوانين الإصلاح الزراعى في مصر منذ سنة ١٩٥٢ ، الأمر الذى أدى إلى زيادة حدة مشكلة التفتت في الأراضى الزراعية وحال دون استخدام الآلات والوسائل العلمية . وكانت النتيجة في واقع الأمر تدهور الانتاج الزراعى . لقد حددت التفسيرات الرسمية دور قانون الإصلاح الزراعى في مصر في هدفين رئيسيين :

أولاً : فتح السوق الداخلى وتنشيط الاستهلاك في الريف ودفع التطور الرأسمالى في الأرض .

ثانياً : توسيع قاعدة صغار الملاك لتمثل قاعدة أساسية للنظام في مواجهة الإقطاع وشبه الإقطاع ، وأيضاً في مواجهة الأفكار المتطرفة التى تنادى بتأميم الأرض ودكتاتورية الطبقة العاملة . (٥١)

التعويضات وأسس التوزيع :

قرر قانون الإصلاح الزراعى في السنوات العشر الأولى لصدوره تعويضات مجزية للملاك عن الأراضى والممتلكات التى استولت عليها هيئة الإصلاح الزراعى .

فوفقاً للمادة الخامسة من قانون سنة ١٩٥٢ قدرت التعويضات للأراضى الزائدة عن الحد بعشرة أضعاف قيمة إيجارها ، وجرى نفس الشيء على الممتلكات الأخرى المتواجدة على هذه الأراضى (الأشجار - النخيل - الآلات - المباني . الخ)

وقد أعطى القانون الحق للملاك في دفع ضرائب التركات والضرائب الأخرى المقررة عليهم من هذه التعويضات ، كذلك سمح لهم باستخدامها لشراء الأراضى البور من الحكومة (٥٢) وقد استثنيت ملكيات الاسرة المالكة التى صدر القرار بمصادرتها وبدون تعويضات .

وفي سنة ١٩٦٤ ، وبعد مرور ١٢ عاماً على صدور أول قانون للإصلاح الزراعى ، صدر القانون رقم ١٠٤ الذى ألغى دفع بقية التعويضات للملاك . إن مبدأ دفع التعويضات عن الأراضى الزائدة عن الحد الأقصى يعتبر أحد العوامل الهامة والمحددة لطبيعة الإصلاح الزراعى ، ففى الدول الاشتراكية لم تدفع أية تعويضات لكبار الملاك عن الأراضى المستولى عليها (٥٣) وقدمت المبررات لذلك في عاملين رئيسيين :

أولهما أن الإصلاح الزراعى لا يهدف فقط إلى تصفية السلطة الاقتصادية لكبار الملاك بل إلى تصفية نفوذهم السياسى كذلك .

ثانياً : عدم إعطاء كبار الملاك فرصة أخرى لبناء مراكز ضغط جديدة سواء في المجال الاقتصادى أو السياسى ، باعتبار أن ذلك سيمثل خطراً على الفلاحين (٥٤) .

وعلى العكس من ذلك ، أخذ قانون الإصلاح الزراعى في مصر بمبدأ دفع التعويضات للملاك الاقطاعيين وشبه الإقطاعيين ، وكانت هذه التعويضات في واقع الأمر ولادة ١٢ عاماً ، فرصة استغلها الملاك

إلى حد ما في الإبقاء على كثير من نفوذهم السياسى والاقتصادى في الريف. (٥٥) أما فيما يتعلق بأسس توزيع الأراضي المستولى عليها ، فإن المادة التاسعة من القانون قد استبعدت الفلاحين المعدمين والعمال الزراعيين من الاستفادة من التوزيع إذ تنص المادة على « أن توزع هذه الأراضي على صغار الملاك في القرى ، في قطع لا تقل عن ٢ فدان ولا تزيد عن خمسة أفدنة » .

وحددت المادة الأولويات في التوزيع كالآتي :

« تكون الأفضلية لمن يحوزون بالفعل في زمام القرية » سواء كانت ملكية أم إيجاراً ، « والذين يعولون عائلات كبيرة العدد وتقل مساحة حيازتهم .. » ، أما أراضي الحدائق والفاكهة والبساتين فتوزع على خريجي الكليات والمعاهد الزراعية بحد أقصى قدره ٢٠ فداناً . ووفقاً لقواعد التوزيع هذه يكون قد تم بالفعل استبعاد حوالي ٢ مليون من العمال الزراعيين والفلاحين المعدمين عن عملية التوزيع . أما ما يخص عمال الزراعة في القانون فقد نصت عليه المادة ٢٨ ، التي تقرر إنشاء لجنة ثلاثية تمثل الملاك والعمال الزراعيين والمشرف الزراعى لتقرر أجر العمال الزراعيين . ثم المادة ٣٩ التي سمحت للعمال الزراعيين بتشكيل نقاباتهم الزراعية .

وثمة مؤشرات قوية بأن الأراضي الموزعة لم تذهب دائماً إلى صغار الملاك . فالمادة الرابعة في نفس القانون أعطيت لكبار الملاك حرية التصرف في الملكيات الزائدة عن الحد الأقصى وفي حدود مائة فدان سواء بالبيع للبناء أو لصغار الملاك في قطع تبلغ مساحة الواحدة عشرة أفدنة .

وقد استفاد كبار الملاك إلى الحد الأقصى من هذه المادة فتصرفوا في مساحات هامة من الأراضي الزائدة سواء في شكل عقود بيع صورية أو البيع لأغنياء الفلاحين . وقد تم التصرف وخلال عام واحد في أكثر من ربع المساحة الكلية للأراضي الزائدة بهذا الشكل (حوالي ١٤٥ ألف فدان) وقد ألغى القانون رقم ٣٠٠ لسنة ١٩٥٣ هذه المادة بعد ذلك. (٥٦)

ووفقاً للمادة ١١ من القانون كان على الفلاحين المنتفعين من توزيع الأرض دفع ثمن الأرض « بما يساوى مبلغ التعويض الذى قرره الحكومة لكبار الملاك وبفائدة سنوية قدرها ٣ ٪ ، ويضاف إليها ١,٥ ٪ عن المبلغ الاجالى مقابل نفقات التوزيع ، وأن يسدد ثمن الأرض في أقساط سنوية وعلى مدى ثلاثين عاماً . » (٥٧)

وبذلك وضعت الحكومة على المنتفعين أعباء ثقيلة من البداية . وبالرغم من أن القانون المعدل الذى صدر سنة ١٩٥٨ قد خفض الفائدة السنوية من ٣ ٪ إلى ١,٥ ٪ إلا أنه وفي نفس الوقت زاد من ضريبة النفقات على إجمالى المبلغ من ١,٥ ٪ إلى ١٠ ٪

إلا أنه حدثت تطورات بعد ذلك في صالح المنتفعين ، فقد صدر القانون رقم ١٢٨ لسنة ١٩٦١ والذى قرر « خفض المبلغ الذى لم يسدد بعد من ثمن الأراضي الموزعة إلى النصف ، وخفض نسبة الفائدة السنوية إلى النصف أيضاً. (٥٨) وجاء القانون رقم ١٣٨ لسنة ١٩٦٤ بخطوات أبعد في هذا الاتجاه حيث خفض ربع المبلغ المتبقى .

ومن الملاحظ أن هذه القوانين اللاحقة جاءت في صالح صغار المنتفعين ولكن بعد أكثر من ١٠ سنوات تحملوا فيها دفع أعباء ونفقات زائدة أدت إلى أن بعض من وزعت عليهم الأرض قد اضطروا إلى ترك هذه الأرض بعد ذلك .

لقد أدت التعويضات المالية لكبار الملاك ثم المبالغ السنوية التي كان على المنتفعين دفعها من الثمن ، إلى التقليل إلى حد كبير من الهدف النهائي للإصلاح الزراعي في رفع إنتاجية ودخل صغار الملاك والفلاحين .

إن النماذج الديمقراطية للإصلاح الزراعي قد ألزمت الفلاحين بدفع بعض المبالغ الرمزية عن الأراضي الموزعة عليهم ، ولكن هذه المبالغ الضئيلة كانت توظف في إقامة ورش للآلات الزراعية وخلق كوادر فنية مدربة للعمل في التعاونيات واستخدام الوسائل الحديثة في الزراعة . وهي لم تصل في أى حال من الأحوال إلى أكثر من ١٠ ٪ من ثمن الأرض الموزعة بما عليها من انشاءات وحيوانات^(٥٩) ولنا هنا ثلاث ملاحظات :

● أن دفع التعويضات المجزية لكبار الملاك في السنوات العشر الأولى قد ساعدهم على الاحتفاظ بجزء هام من نفوذهم السياسى والاقتصادى في الريف .

● أن المبالغ التي كان يدفعها المنتفعون ثمنا للأرض والفوائد العالية أرهقت الكثيرين منهم وقللت إلى حد ما من مدى الانتفاع الحقيقي لهم .

● أنه من البداية استبعد حوالى ٢ مليون فلاح معدم من الاستفادة من قوانين الإصلاح الزراعي .

الأجهزة التي قامت بالتنفيذ :

من اللحظة الأولى وضع قانون الإصلاح الزراعي في يد أجهزة الدولة بشكل كامل للقيام بالتنفيذ فلم يسبق القانون أو تلحقه مناقشات جماهيرية واسعة أو إشراك بعض القوى والمنظمات الشعبية في التنفيذ . لقد كان قانونا من أعلى ظل التطبيق أيضا من أعلى . بالرغم من أن مشروعات الإصلاح الزراعي ، وخاصة في العامين السابقين على يوليو سنة ١٩٥٢ ، إحتلت حيزا كبيرا من مناقشات الأحزاب والقوى السياسية في ذلك الوقت ، ويبدو أن الضباط الأحرار كانوا في عجلة من أمرهم لإصدار القانون ، لإعلان هوية النظام الجديد الذى لم يكن قد استقر بعد ، حتى أن أول حكومة شكلوها فوجئت هي الأخرى بالقانون ، وقد ثبت بعد ذلك أنه كانت قد تشكلت لجنة سرية ، حتى على أعضاء مجلس الثورة لوضع صيغة القانون^(٦٠).

وقد أدى صدور القانون إلى استقالة الحكومة .

وقد تمت تبريرات بعد ذلك عن خوف الضباط الأحرار من معارضة الحكومة ومعارضة الأحزاب التي كانت قائمة ، الأمر الذى جعل صدور القانون في الشكل الذى تم^(٦١).

ولقد ثبت بعد ذلك أن المنهج الذى ربما كانت له مبرراته في البداية قد استمر بشكل أو بآخر حتى النهاية ، فع ازدياد الصراع الطبقي والاجتماعى ، ظلت قوانين الإصلاح الزراعي وتعديلاتها ووضعها في التنفيذ مسئولية أجهزة الدولة والمؤسسات البيروقراطية ، بعيداً عن أسلوب المناقشات العامة والعلنية . كما تجاهل النظام الجديد الحركة الفلاحية والتي كانت قد برزت كقوة ثورية في حركات التمرد والثورة التي قادها الفلاحون في الفترة من ١٩٥٠ - ١٩٥٢^(٦٢) .

والمادة ١٢ من القانون نفسه جعلت مسؤولية التنفيذ كاملة في يد الأجهزة الادارية فهي تنص على « تشكيل لجنة عليا تقوم بالاستيلاء على الأراضي الزائدة لكبار الملاك والاشراف على توزيعها . ويرأس هذه اللجنة وزير الزراعة ، وتتكون اللجنة من وكيل وزارة الزراعة ووزارة الشؤون الاجتماعية ، والمالية ، والاعتاد والاقتصاد والإعلام ، بالاضافة إلى سبع شخصيات أخرى يحددها مجلس الوزراء . (٦٣)

وعن تشكيل اللجنة العليا للإصلاح الزراعي واللجان التابعة لها ، صدر كثير من القرارات في هذا الاتجاه إلى أن صدر القانون رقم ٨٣ لسنة ١٩٦٤ بتشكيل هيئة عامة للإصلاح الزراعي تتبع وزارة الإصلاح الزراعي . (٦٤) ويرأسها وزير الإصلاح الزراعي . (٦٥)

وقد أعطيت لهذه اللجنة السلطة العليا في كل مايتعلق بقضايا الإصلاح الزراعي ، وإلى جانب ذلك شكلت لجان قضائية خاصة يرأسها مستشار وتضم موظفا في وزارة العدل وممثلا للجنة العليا للإصلاح الزراعي واثنين من المستشارين العاملين في حقل القضاء . (٦٦) وأسند إلى تلك اللجان القضائية الفصل في المنازعات التي تتعلق بقانون الإصلاح الزراعي وتطبيقاته . (٦٧)

وعلى ذلك حددت مسؤولية تطبيق الإصلاح الزراعي في جهاز الدولة من ناحية وفي اللجان القضائية الخاصة من ناحية أخرى ، دون مشاركة لأية منظمات جماهيرية . بل إنه يمكن القول إن مسؤولية تطبيق قوانين الإصلاح الزراعي لم تقتصر فقط على أجهزة الدولة البيروقراطية ، بل إن هذه التطبيقات كانت تجري على الأقل حتى سنة ١٩٦٤ في ظروف ليست ديمقراطية . ففي تلك الفترة ومنذ سنة ١٩٥٣ كانت حلت جميع الاحزاب والتنظيمات الجماهيرية القائمة ، كما كانت هناك ملاحقة بوليسية للحركة العمالية ، فبعد شهرين تماما من إصدار قانون الإصلاح الزراعي ، تقرر إعدام اثنين من القيادات العمالية في كفر الدوار لاتهامهما باثارة الشغب (٦٨) . كما وضع بضع المئات ، بل والآلاف من قيادات العمال والفلاحين والمثقفين في السجون والمعتقلات . وحوكم المئات من الشخصيات الوطنية والتقدمية والاشتراكية أمام محاكم خاصة سيئة السمعة . وفي تقرير اللجنة العليا لتصفية الاقطاع سنة ١٩٦٦ تأكيد للجو المعادي للديمقراطية الذي نفذ فيه القانون .

- فقد استطاع عدد من كبار الملاك تهريب أراضيهم من تطبيق القانون .
- كما أن عددا كبيرا من الملاك (وبعضهم لم يكن كبيرا قبل سنة ١٩٥٢) قد زاد بملكيته كثيرا فوق الحد الأقصى (ثبت أن أحدهم يمتلك فعليا ١٥٠٠ فدان بينما لم يكن يمتلك حتى سنة ١٩٥٢ إلا مساحة صغيرة من الأرض) .

- التعاون والتنسيق النشط بين كبار الملاك وأجهزة الدولة العاملة في مجال الإصلاح الزراعي .
- استفادة كبار الملاك وأغنياء الفلاحين في الأساس من السلف والقروض والمساعدات التي كانت تقدمها الدولة للمنتجين الزراعيين ، كما أن كبار الملاك وأغنياء الفلاحين كانوا في واقع الأمر هم ممثلي الفلاحين المعتمدين في البرلمان وفي التنظيمات الجماهيرية والاقتصادية والسياسية العاملة في الريف واحتل بعضهم مراكز قيادية في الاتحاد الاشتراكي العربي ، التنظيم السياسي الوحيد الذي كان مسموحا به . (٦٩)

ولقد قامت اللجنة العليا لتصفية الاقطاع والتي شكلت سنة ١٩٦٦ بعدة إجراءات لمواجهة ما سمي

بسيطرة الاقطاع كان من بينها وضع الحراسة على حوالى ٢٠٠ ألف فدان ، ١٦١٣ ماكينة زراعية ، ٢٠ ألف رأس ماشية من أملاك كبار الملاك الجدد ، ومنع بعض هؤلاء الملاك من التواجد فى القرى .

ولقد كانت اللجنة العليا لتصفية الاقطاع فى تشكيلها بعيدة تماما عن أى حركة جماهيرية فلاحية واعتمدت فى نشاطها كلية على التقارير والاجراءات البوليسية كما كان تركيبها فى الاساس يتكون من عدد من الضباط فى الجيش والبوليس والأجهزة الأمنية .

وقد الغيت اللجنة بعد عام من تشكيلها ، وبعد أن تعرضت لهجوم شديد نتيجة التجاوزات التى قامت بها أجهزة البوليس الحربى كما ألغى الكثير من قراراتها ، فرفعت الحراسة عن أراضى كبار الملاك وطرد الفلاحون من الأرض ، بل وتعرض أهالى كمشيش لكثير من ألوان الاضطهاد ووصل الأمر إلى نفى بعضهم عن القرية . (٧٢)

ويمكن القول إن انعدام الديمقراطية فى التنفيذ والاعتماد الكلى على أجهزة الدولة واستبعاد أى مناقشات أو تنظيمات ديمقراطية من المشاركة فى تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى قد أفقد هذا القانون - فى التطبيق - جزءاً كبيراً من طابعه الديمقراطى ، كما قلل كثيراً من الآثار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية له . (٧٣)

وهذا العامل يمثل فى الواقع أحد الأسس الهامة للتفريق بين الاصلاحات الزراعية المختلفة . فالاصلاحات الزراعية المحدودة وذات الطابع الرأسمالى تتميز دائماً باستبعاد الحركة الجماهيرية والاعتماد الكلى على أجهزة الدولة وغياب نشاط سياسى أو جماهيرى بين الفلاحين .

أما الاصلاحات الزراعية الواسعة ذات الطابع الاشتراكى فانها تتميز بالدور الهام الذى تلعبه المنظمات السياسية والجماهيرية للفلاحين والعمال فى تطبيقات القانون ، وإثارة القضايا والمناقشات الواسعة بين الجماهير .

إن هذه القوانين الاصلاحية الثورية لا يتوقف هدفها فقط عند تحقيق شكلى لبعض مظاهر العدالة الاجتماعية ، وتوسيع السوق الحلى ، بل إنها تسعى إلى تحرير كامل للفلاحين المنتجين الزراعيين الحقيقيين .. كما أنها تقدم حلولاً حقيقية لمشاكل وعقبات الانتاج الزراعى وتدفع الفلاحين لأن يلعبوا دوراً هاماً فى تطوير مجتمعاتهم جنباً إلى جنب مع الطبقة العاملة والثقفين والقوى الثورية الأخرى فى المجتمع (٧٤) .

- ١ - كريستوفر هيرولد - بونابرت في مصر - مترجم ص ٢٤٨ - القاهرة سنة ١٩٦٤ .
- ٢ - أحمد الختة - التاريخ الاقتصادي .. ص ٢١ - ٤٠ .
- ٣ - فتحي عبد الفتاح - القرية المصرية ص ٢١٦ - القاهرة ١٩٧٣ .
- ٤ - أشار روزنشتاين أن السياسة البريطانية في مصر كانت ضد أى تطوير للصناعة المصرية ، وقد فرضت من أجل ذلك رسوم جمركية عالية على استيراد الفحم ، وأيضا رسوما عالية على تصدير القطن والمنسوجات . تيود روزنشتاين - التاريخ المصرى قبل الاحتلال البريطانى وبمده ص ٤٥١ - ٥٠٩ - القاهرة سنة ١٩٢٧ .
- ٥ - رشيد صالح - كرومر في مصر - ص ٣٥ - القاهرة ١٩٤٧ .
- ٦ - بلغت رؤس الأموال المستثمرة في مصر سنة ١٩١٩ ، ١٠٠,١٥٢ مليون جنيه منها ٩٢,٠٣٩ رأس مال أجنبي ، كما أن المستثمر في الزراعة بلغ ٦٦,٣٣٢ مليون جنيه في الشركات الزراعية وبنوك التسليف العقارية . صبحى وحيدة - في أصول المسألة المصرية - ص ١٨٢ . أمين عفيفى - التاريخ الاقتصادى للمصرى ص ٤٠٤ .
- ٧ - جريدة المؤيد - اجتماع الجمعية العمومية المصرية - ١٨٩٢ .
- ٨ - كرومر - مصر الحديثة - ص ٤٠٩ - لندن ١٩٦٦ .
- ٩ - جابريل باير - تاريخ الملكية .. ص ٨٧ - ٨٨ - أكسفورد ١٩٦٢ .
- ١٠ - باير - المرجع السابق ص ٦٧ .
- ١١ - المرجع السابق ص ٨٩ .
- ١٢ - كروشيلى - الاستثمارات في الشركات المصرية - ٦٨ - القاهرة ١٩٣٦ .
- ١٣ - خليل سرى - الملكية الريفيه .
- ١٤ - يوسف نحاس - الفلاح - ص ٧٥ .
- ١٥ - في المشروع الذى تقدم به محمد خطاب إلى مجلس الشيوخ بتحديد الملكية الزراعية بـ ٥٠ فدانا ، كان المشروع يتعلق بالمستقبل ، أى إعطاء كبار الملاك فرصة للتصرف في الزائد عن ممتلكاتهم على مدى بعيد . وثائق اجتماع مجلس الشيوخ - يناير - أغسطس سنة ١٩٤٥ . الجزء الثالث - ص ١٧٨ - القاهرة ١٩٤٦ .
- ١٦ - في دفاعه عن مشروع القانون الذى تقدم به ، أشار محمد خطاب إلى مخاطر الأفكار الاشتراكية ما حدث في ثورة أكتوبر في روسيا وأكد أن « اقتراحه يجنب مصر مخاطر الاشتراكية » . المرجع السابق - ص ١٧٦ .
- ١٧ - رفض مجلس الشيوخ المشروع في جلسة في ١٦ يناير سنة ١٩٤٧ .

- عبد الرحمن الرفعى - في أعقاب الثورة المصرية - الجزء الثاني ص ٣٥٨ - القاهرة ١٩٥٠ .
- ١٨ - أعد هذا المشروع للإصلاح الزراعى جماعة النهضة القومية التى كان غالى عضوا فيها ، ثم تقدم به مريت غالى بعد ذلك إلى مجلس النواب الذى كان عضوا فيه سنة ١٩٥٠ .
- ١١ - مريت غالى - السياسة الزراعية - ص ٦٥ - القاهرة ١٩٤٥ .
- ٢٠ - المرجع السابق ص ٦٥ - ٦٦ .
- ٢١ - قدم ابراهيم شكرى نائب رئيس الحزب الاشتراكى مشروعه الخاص بالإصلاح الزراعى لمجلس النواب ويطلب المشروع بتحديد الملكية بـ ٥ فداناً ، وأندى شكرى محاوله من أعمال تخريبية يقوم بها كبار الملاك . وثائق الجلسات الحادية لمجلس النواب يناير - مارس ١٩٥٠ .
- ويلاحظ هنا أنه فى الانتخابات العامة التى أجريت سنة ١٩٤٩ وضع ٤٩ مرشحا ينتون إلى أحزاب مختلفة مشروعات للإصلاح الزراعى وتحديد الملكية فى برامجهم .
- ٢٢ - ابراهيم عامر - الأرض والفلاح - ص ١٢٥ .
- عبد الرحمن الرافعى - في أعقاب الثورة المصرية .. ص ٣٥٧ .
- ٢٣ - البرنامج التفصيلى للحزب الشيوعى المصرى . الأهرام - ١٤ فبراير سنة ١٩٢١ .
- ٢٤ - تحت عنوان « كيف يمكن للطبقة العاملة المصرية أن تنظم نفسها » نشرت جريدة الحساب سلسلة من خمس مقالات حول هذا الموضوع ابتداء من ٦ مارس سنة ١٩٢٥ .
- ٢٥ - عبد المنعم الغزالى - تاريخ الحركة النقابية المصري ص ٢٠٢ - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٢٦ - برنامج تنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى « حدتو » تحت عنوان : « من أجل الاستقلال التام والديمقراطية الشعبية » سنة ١٩٥١ . برنامج « لجنة العمال للتحرر القومى » .
- رؤوف عباس - الحركة العمالية فى مصر - ص ٢٧٥ - ٢٨٠ - القاهرة ١٩٦٧ .
- صادق سعد - مشكلة الملاح - ص ٦٦ - ٦٧ - القاهرة ١٩٤٧ .
- شهدى الشافعى - الحركة القومية المصرية ... ص ٤٤ .
- فتحى عبد الفتاح - القرية المصرية ... ص ٢١٧ .
- ٢٧ - كتب عدد من الشخصيات المعروفة مثل الدكتور محمد مندور و ابراهيم طلعت وغيرهم عدة مقالات فى صحف الوفد « صوت الأمة » و « الطليعة الوفدية » فى سنوات سنة ١٩٤٩ - ١٩٥٢ يطالبون فيها بإصلاحات زراعية ويقدمون فيها أفكاراً راديكالية قريبة إلى أفكار الماركسيين فى ذلك الوقت .
- وطالب خالد محمد خالد أحد كبار الكتاب وينتمى إلى الجناح اليسارى فى حزب الوفد ، بإجراء اصلاح زراعى لدفع التطور والتقدم فى مصر . خالد محمد خالد - من هنا نبدأ - ص ١١٤ - القاهرة ١٩٥٢ .
- ٢٨ - فى كتابه مشروع المزرعة التعاونية شرح الدكتور ، رشاد كيف يحصل أعضاء هذه المزرعة على دخولهم . فالحانب الأكبر من الدخل يأتى من خلال العمل اليومى ، أما الدخل الآخر فيأتى من توزيع الفائض بعد ذلك فى نهاية العام .
- ابراهيم رشاد - مشروع للمزرعة التعاونية - ص ١٧ - ١٨ - القاهرة ١٩٤٦ .
- ٢٩ - المرجع السابق ص ٢٤ .
- ٣٠ - المرجع السابق ص ١٤ - ١٥ .
- منير الزلاقي - البطالة الزراعية فى مصر - ص ٧٦ - الاسكندرية ١٩٦٩ .
- ٣١ - م . كاجيتو - مؤتمر النشاط الزراعى والغابات والمصايد - الإصلاح الزراعى فى اليابان ، الجزء الثانى ص ٢٦ - ٢٧ - طوكيو ١٩٥٩ .
- ر . دور - الإصلاح الزراعى فى اليابان ص ١٢٩ - ١٣٢ لندن سنة ١٩٥٢ .
- ٣٢ - الجلسة العادية لمجلس النواب - يناير - مارس سنة ١٩٥٠ .
- ٣٣ - دورين وارينر - الإصلاح الزراعى والتطور ... ص ٢٦ - ٢٧ .
- سيد مرعى - الإصلاح الزراعى فى مصر .. ص ٢١ - ٢٤ .

٢٤ - سيد مرعى ، وشغل منصب وزير الزراعة ونائب رئيس الوزراء للزراعة والاصلاح الزراعى ، وقد قدم مبررات للاصلاح الزراعى فى مصر بأن هناك ٩٢ دولة نفذت قوانين الاصلاح الزراعى من بينها دول ديمقراطية عريقة مثل الدينبارك وفنلندا وإيطاليا . وأشار مرعى إلى أن قوانين الاصلاح الزراعى فى مصر ليست فقط فى صالح المتفعين ، بل هى أيضا فى صالح كبار الملاك . سيد مرعى - الاصلاح الزراعى .. ص ٢ .

٢٥ - الهيئة العامة للإحصاء والتعبئة - الكتاب السنوى - ص - القاهرة ١٩٧١ .

٣٦ - فى دراسة للمركز القومى للتخطيط نشرت سنة ١٩٧٣ ، أشارت إلى أنه منذ صدور قانون الاصلاح الزراعى سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٦٦ حدث أكثر من ١١٨ تعديل أى بمعدل ٨ مواد كل عام كانت تتغير أو تُلغى . وشملت التعديلات ٧٥ ٪ من المواد الأساسية فى القاسون الأول الذى اشتمل ٤٠ مادة .

التغييرات والتعديلات فى قوانين الاصلاح الزراعى - مطبوعات المركز القومى للتخطيط - القاهرة ١٩٧٢ .

٣٧ - أخذت هذه الاحصائيات من مصادر مختلفة منها ، كتاب الاصلاح الزراعى الذى أصدرته وزارة الاصلاح الزراعى سنة ١٩٦٥ .

الهيئة العامة للتعبئة والاحصاء - الكتاب السنوى ... ١٩٦٨ - القاهرة .

الهيئة العامة للتعبئة والاحصاء - الأراضى المزرعة فى ج . م . ع - ١٩٧١ - القاهرة .

٣٨ - الهيئة العامة للتعبئة والاحصاء - الكتاب السنوى - يونيو ١٩٦٩ .

٣٩ - كتب سعد هجرس رئيس هيئة الاصلاح الزراعى أن أثر هذا القانون الفعلى كان محدودا للغاية والتقدير الجزائى للأرض التى وزعت طبقاً لهذا القانون لا يتعدى أى حال من الأحوال ٢٥ ألف فدان .

سعد هجرس - الاصلاح الزراعى - الفلسفة والاسلوب ص ٣١٥ - القاهرة سنة ١٩٧٦ .

٤٠ - الهيئة العامة للتعبئة والاحصاء - ص ٥٦ - ٥٧ القاهرة سنة ١٩٧١ .

٤١ - ج . زايدال - الزراعة فى ألمانيا الديمقراطية .

٤٢ - ف . ا . لينين - التحالف بين العمال والفلاحين - ص ٣٠٣ - ٣٠٤ - موسكو ١٩٦٦ .

٤٣ - . أننا نعرف جيداً أن الفلاحين يعيشون وأقدامهم مغروسة فى الأرض ، وهم لذلك يقاومون أى جديد يتمسكون بهناد بالتقاليد . ونعرف أيضاً أنهم لا يتحسسون لهذه العكرة أو تلك إلا مايتعلق بهم وبحياتهم بشكل مباشر . لكل هذا وافقنا على فكرة توزيع الأرض على الفلاحين بالرغم من اهتمامنا بأنها لا تقدم حلاً حقيقياً .

إن الحل الحقيقى يكن فى تشكيل تعاونيات زراعية .

لينين - المرجع السابق ص ٢٠٢ .

٤٤ - ج . جرونبيج .. من المعونة الفلاحية إلى الزراعة الاشتراكية . ص ٢٢ .

٤٥ - ح . جرونبيج .. المرجع السابق .

٤٦ - سيد مرعى - الاصلاح الزراعى .. ٣١ - ٣٢ .

يعتبر سيد مرعى من أم الشخصيات المسؤولة التى أرتبطت بالاصلاح الزراعى فى مصر ، ولقد كان المشرف الحقيقى ولفترة تزيد عن ١٥ عاماً على تطبيقات الاصلاح الزراعى .

٤٧ - ميثاق العمل الوطنى - الفصل السابع - القاهرة ١٩٦٢ .

٤٨ - المرجع السابق - الفصل السابع .

٤٩ - حديث الرئيس جمال عبد الناصر مع رئيس تحرير البرافدا والازفيسيا السوفيتية - ١٧ أغسطس ١٩٦٢ .

٥٠ - سيد مرعى - مستقبل الأرض الجديدة - سلسلة من المقالات فى الأهرام - اعداد رقم ٢٨٥٧٦ - ٢٨٦٧٧ - ٢٨٥٨٠ - ٢٨٦٠٦ .

٥١ - جاء فى التقرير السنوى للبنك الأهلى سنة ١٩٥٢ : « إنه يسمنا أن يجيء تنفيذ الاصلاح الزراعى من خلال حكومة مستقرة مسؤولة ، وفى حدود القانون وليس من خلال جماعات غير مسؤولة تعتمد على القوة والفضوية » . ولقد رددت مجلة إتحاد الصناعات المصرية هذا المفهوم فى تعليقها على قوانين الاصلاح الزراعى . كذلك نجد أن المذكرة التفسيرية للقانون تبرر صدور القانون « بالقضاء على التفاوت بين الطبقات ، وتحقيق عامل هام وهو الاستقرار السياسى والاجتماعى » . وأوردت المذكرة أسباباً أخرى « من أجل دفع التطور الاقتصادى والصناعى بأسرع درجة ممكنة » .

قانون الاصلاح الزراعى - القانون رقم ١٧٨ سنة ١٩٥٢ - المادة التاسعة .

٥٢ - تقررت التعويضات في تركيا على أساس ٤ مرات من ضريبة الأراضي ، وفي اليابان ترددت التعويضات على أساس أسعار سنة ١٩٤٦ التي قامت في واقع الأمر بكثير من أسعار سنة ١٩٤٩ حينما طبق قانون الإصلاح الزراعي ، أما في الصين فقد تقرر التعويض على أساس ٢,٥ مرة من قيمة الفلات الرئيسية .

عز الدين كامل - آراء في الإصلاح الزراعي - القاهرة ١٩٥٧ .

٥٣ - جرونيبرج - المساعدة الفلاحية المشتركة ... ص ٢١ - ٢٢ .

٥٤ - زايدال - الزراعة في ألمانيا الديمقراطية ... ص ٢٢ .

٥٥ - حفل تقرير اللجنة العليا لتصفية الاقطاع بالعديد من الأمثلة عن كيف واصل عدد كبير من كبار الملاك سيطرتهم السياسية والاقتصادية على الفلاحين وفي القرى حتى سنة ١٩٦١ .

ومن المعروف أن اللجنة العليا تشكلت في أعقاب مقتل صلاح حسين الذي كان عضوا في الاتحاد الاشتراكي ومعروف باتجاهاته الثورية ويدفاه عن الفلاحين المقراء . لمزيد من التفاصيل راجع نص تقرير اللجنة المنشور في مجلة الطليعة - مارس ١٩٦٧ - القاهرة .

٥٦ - قانون الإصلاح الزراعي - القانون رقم ١٧٠٨ - مادة ٩ - القاهرة ١٩٥٢ .

٥٧ - سيد مرعي - الإصلاح الزراعي ... ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

٥٨ - عز الدين كامل - آراء حول الإصلاح .. ص ٢٨ - ٢٧ .

تورين وإرينر الإصلاح الزراعي والإلغاء في الشرق الأوسط .. ص ٥٠ .

٥٩ - زايدال - الزراعة في ألمانيا الديمقراطية ٢١ - ٢٢ .

٦٠ - إبراهيم طلعت عضو الهيئة الوفدية ويمثل الجناح اليساري ، وآخرون مثل إبراهيم شكرى عضو الحزب الاشتراكي ، وكذلك سيد مرعي ، الذين تشكلت منهم لجنة خاصة لوضع مشروع القانون . إبراهيم طلعت - مذكرات حول الوفد والثورة - روزاليوسف - سبتمبر ونوفمبر سنة ١٩٧١ .

٦١ - بعد تولي الضباط الأحرار السلطة في يوليو سنة ١٩٥٢ طالبوا الأحزاب القائمة بوضع برامج جديدة ، وكانت غالبية هذه البرامج ضد وضع حد أقصى للملكية الزراعية فيما عد حزب الوفد الذي قدم عدة اقتراحات لحل مشكلة الزراعة من بينها توزيع الأرض على الفلاحين . وقد لاحظت دورين وإرينر خلال لقاءات متعددة مع بعض كبار الموظفين والمسؤولين أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أعت ضوءا أخضر لإجراء اصلاح زراعي ، كما لعبت وزارة الخارجية دوراً في صناعة القانون الجديد . دورين وإرينر - الإصلاح الزراعي .. ص ١٢٧ .

٦٢ - في سنة ١٩٥١ رفعت عدة هبات للفلاحين من أهمها ماحدث في كفر نجم محافظة الشرقية ، حيث ثار صغار الفلاحين والمستأجرين على الضرائب والقيمة العالية للايجارات ضد المالك الذي كان هو نفسه الأمير محمد علي ولي العهد في ذلك الوقت . وفي نفس العام وقعت ثورة الفلاحين الصغرى في بهوت محافظة الدقهلية ضد البداروى عاشور المالك الكبير . وفي كلتا الحالتين تعاونت الدولة وأجهزتها مع كبار الملاك لقمع الفلاحين بقسوة . كما حدثت في أعوام سابقة هبات فلاحية مماثلة في ساحل سليم بأسبوط والسرو بالغربية . ولمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة الكتب التالية :

شهدى عطية الشافعى - تطور الحركة القومية ص ٢٨ .

فتحي خليل - نضال الفلاحين .. ص ٢٣ .

للمصرى - جريدة يومية مصرية في مايو ويوليو سنة ١٩٥٢ .

٦٣ - قانون الإصلاح الزراعي - المادة ١٢ سنة ١٩٥٢ .

٦٤ - وزارة الإصلاح الزراعي - القانون رقم ٨٢ لسنة ١٩٦٣ .

٦٥ - عبد الودود خليل - إضافات وتعديلات في قانون الإصلاح الزراعي - من مطبوعات المركز القومى للتخطيط .

٦٦ - المرجع السابق ص ٦٢ .

٦٧ - سيد مرعي - الإصلاح الزراعي .. ص ٢٠٦ .

٦٨ - من الملاحظات الهامة في هذا الصدد أن الذين قاموا بثورة ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ لم يكن لديهم أو وراءهم تنظيم سياسى أوجهيرى حينما بدأوا في تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى . وقد بدلت بعد ذلك محاولات ، غير ناجحة ، لخلق تنظيم سياسى إبتداء من هيئة التحرير حتى الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى .

٦٩ - خميس والبقرى اثنان من القيادات العمالية الشابة في مصنع كمر الدوار للغزل والنسيج ألقى القبض عليهما مع مئات من عمال المصنع لقيامهم بالإضراب مطالبين بتحسين ظروف العمل وقد واجهتهم السلطة الجديدة بعنف شديد فدخلت قوى من الجيش إلى المصنع وألقت القبض على المئات ثم عقدت محاكم عاجلة في قناء المصنع ، وأصدرت حكمها بالاعدام على خميس والبقرى ونفذ فيها الحكم في اليوم التالي ، كما صدرت أحكام أخرى قاسية بالسجن المؤبد على عدد كثير من العمال .

٧٠ - في سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٥ ألقى القبض على عدد كبير من الشيوعيين والعناصر التقدمية والديمقراطية وحوكم بعضهم أمام محاكم خاصة ، وبعد العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ أفرج عن عدد كبير منهم وبقي في السجن حوالى ١٠٠ من القيادات العمالية والمثقفين . ومرة أخرى ، وفي نهاية سنة ١٩٥٨ ، بدأت السلطة حملة واسعة ضد العناصر الشيوعية والديمقراطية واعتقلت في هذه الأثناء عدة آلاف منهم ، بقي جزء كبير منهم في المعتقل أكثر من خمس سنوات (١١٥٩ - ١٩٦٤) ، كان من منهم عدد كبير من الكتاب والصحفيين وأساتذة الجامعات والفنانين والقيادات العمالية .

فتحي عبد الفتاح - شيوعيون وناصريون - القاهرة سنة ١٩٧٥ .

طاهر عبد الحكيم - الاقدام المارية - بيروت سنة ١٩٧٥ .

عبد العظيم أنيس - رسائل الحب والثورة - القاهرة ١٩٧٦ .

٧١ - حفلت دراسات وتقارير كثيرة بالعديد من الأمثلة للتجاوزات التي ارتكبتها كبار الملاك والتعاون مع بعض أجهزة الدولة من صغار الفلاحين . تقرير اللجنة العليا لتصفية الإقطاع - مجلة الطليعة - مارس سنة ١٩٦٧ .

طارق البشرى - تقرير حول الاصلاح الزراعى - الطليعة - سبتمبر سنة ١٩٦٦ . جريدة الجمهورية - دراسات قسم الأبحاث - ٢٤ يناير سنة ١٩٦٥ . روزاليوسف - الاعداد من يناير وأبريل سنة ١٩٦٥ .

٧٢ - لقد أدى ذلك الى اضطرابات واسعة بين الفلاحين وصلت في بعض الاحيان الى صدام بينهم وبين البوليس في كشيش ودكرنس واعتقل عدد من قيادات الفلاحين سنة ١٩٦٨ . ولقد توصلت القيادة العليا للاتحاد الاشتراكى الى حل وسط في هذا الوضع فتقرر الاستمرار في إعطاء الأرض للملاكها السابقين مع عدم وجود الفلاحين الذين وزعت عليهم وتمويل وضعيتهم من ملاك الى مستأجرين .

٧٣ - في كل كتبه وخطبه تقريباً كان لينين يؤكد دائماً على أنه لا يمكن تحقيق أى تغيير جذرى في المجتمع وفي الريف بشكل خاص بدون ديمقراطية واسعة ، وبدون مقرطة حقيقية لأجهزة الدولة أيضاً .

ف . أ . لينين قرار حول المشكلة الزراعية - البرافدا - ابريل سنة ١٩١٧ . مؤتمر ممثلى الفلاحين - البرافدا - ابريل سنة ١٩١٧ . خطاب أمام لجان الفلاحين الفقراء - نوفمبر سنة ١٩١٨ .

ف . ا . لينين - التحالف بين العمال والفلاحين - موسكو سنة ١٩٦٦ .

٧٤ - في البدايات الأولى سنة ١٩٤٥ دارت مناقشات واسعة حول الاصلاح الزراعى بين الأحزاب وجهير الفلاحين في ألمانيا الديمقراطية .. وقد كانت هناك وجهات نظر كثيرة وأحياناً متباينة وخاصة تلك التي أبداهها الحزب المسيحي الديمقراطى والحزب الليبرالى اللذان كانا في تحالف مع الحزب الشيوعى والأحزاب الأخرى في جبهة وطنية متحدة .

وفي تلك الأثناء كان الفلاحون والعمال الزراعيون يقومون بمبادرات ذاتية لتشكيل لجان لهم في المحافظات والقرى . وعقدت هذه اللجان مؤتمراً عاماً لها في ٢ يوليو في كتب Rottbns واتخذت عدداً من القرارات الهامة .

جوريج ... المساعدة الفلاحية المتبادلة .. ص ٢٠ - ٢٢ .

٧٥ - كان من بين أعضاء هذه اللجان ٢٩,٦٧٩ ألف عضو لا ينتهون الى حزب من الأحزاب القائمة ، ٢١,٦٣٩ أعضاء في الحزب الاشتراكى الألمانى الموحد (الشيوعيون والاشتراكيون) ، حوالى ألف عضو من أعضاء الحزب المسيحي الديمقراطى ويمثلهم من الحزب الليبرالى . المرجع السابق ص ٢٦ .

الفصل الثالث

قوانين الإصلاحي الزراعي وانعكاسها على قوى الإنتاج

إن محاولة الوصول الى صورة محددة للأثر الحقيقى لقانون الاصلاح الزراعى فى علاقات الانتاج ووسائله تستدعى البحث عن هذا الأثر فى ثلاثة مجالات رئيسية :

أولا - الإيجار والعلاقات والأشكال الإيجارية .

ثانيا - التعاون الزراعى : أشكاله المختلفة ودوره الحقيقى .

ثالثا - الميكنة واستخدام الأساليب العلمية .

علاقات الإيجار وظاهرة المالك الغائب :

تعتبر المواد المتعلقة بتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجرين من أهم ما جاء فى قانون الاصلاح الزراعى . ويتفق المدركون لطبيعة الأوضاع الزراعية فى مصر على أن قوانين الإيجار وأثارها تفوق فى واقع الأمر توزيع الأرض^(١) . والذى لاشك فيه أن اتساع ظاهرة الإيجار وماحبها من ظاهرة المالك الغائب بالاضافة الى قلة المساحة الزراعية أصلا مع ازدياد أعداد المعدمين تمثل جوهر المشكلة الحقيقية للزراعة المصرية منذ تقنين الملكية فى أواخر القرن التاسع عشر .

وفى سنة ١٩٥٢ كانت نسبة الأراضى المؤجرة قد وصلت الى مستو عال (٦٠ ٪) من الأراضى الزراعية^(٢) . وطوال النصف الأول من القرن العشرين كانت تلك الظاهرة تتسع وتتخذ أبعاداً خطيرة ، وذلك بعد أن أدرك ملاك الأرض أن تأجيرها أفضل من زراعتها من زاوية مكاسبهم الخاصة^(٣) .

لقد كان الجوع الى الأرض « والذى نتج عن تركيز شديد للملكية فى أيدي بضعة آلاف من الملاك الكبار فى مقابل الملايين الذين لا يملكون شيئاً وفى نفس الوقت يعتمدون على العمل الزراعى كمصدر أساسى لحياتهم ، هو الذى أدى الى خلق ظروف « مثالية » للملاك والملاك الكبار بشكل خاص لفرض شروطهم على المستأجرين والمستأجرين الصغار .. وقامت هذه العلاقة الإيجارية على أرض متخلقة وأرضية من الاستغلال المطلق من جانب الملاك ، وعلى أسس شبه اقطاعية^(٤) .

١ - القوانين الجديدة :

تناول القانون الأول للإصلاح الزراعى سنة ١٩٥٢ تنظيم العلاقات الايجارية فى خمس مواد ابتداء من المادة ٣٢ حتى ٣٧ ، وكان أهم ما جاء فى هذه المواد هو تحديد القيمة الايجارية للفدان بسبعة أمثال قيمة الضريبة السنوية ، وتبلغ هذه فى المتوسط بين ٣ إلى ٤ جنيهات . أما بالنسبة للمزارعة فقد نص القانون على أن يقتسم المستأجر والمالك المحصول بنسب متساوية (٥٠ ٪ لكل) بعد خصم تكاليف النفقات الزراعية ، كما ألغى القانون دور الوسطاء الذين كانوا يؤجرون أراضى كبار الملاك ثم يعيدون تأجير الأرض بعد تقسيمها الى قطع صغيرة على صغار الفلاحين .

وفى الفترة من ١٩٥٢ حتى ١٩٦٦ أدخلت على قوانين الايجارات عدة تعديلات وتغييرات من أهمها :

● حق المالك فى « تجنب » الأراضى المؤجرة فى أملاكه ، أى وضعها فى الجوانب وليست وسط الأملاك (٥) .

● وضع حد أقصى لاستئجار الأراضى ٥٠ فداناً للعائلة (الرجل والزوجة والأبناء) (٦) .

● إعطاء الجمعيات التعاونية حق الاشراف على عقود الايجار بين المالك والمستأجر (٧) .

● مد عقود الايجار القائمة من سنة الى ثلاث سنوات ، وفى نفس الوقت حرم القانون طرد أى مستأجر من الأرض التى يزرعها طالما يقوم بالواجبات المنصوص عليها فى عقد الايجار ويجوز طرد المستأجر فى حالة اخلاله بالتزاماته فى عقد الايجار (٨) .

● إعطاء الملاك الذين يملكون أقل من خمسة أفدنة والذين يؤجرون جزءاً من أراضيهم الحق فى فسخ عقود الايجار ، اذا كانوا يزرعون أراضيهم بأنفسهم ويعتمدون فى دخلهم الاساسى على الزراعة (٩) .

● تشكل الجمعيات التعاونية الزراعية لجنا خاصة لفض المنازعات بين المالك والمستأجر (١٠) .

وهكذا يتضح أنه ، ربما فيما عدا القانون الخاص بحق المالك فى تجنب الأراضى المؤجرة ، فإن كل القوانين الأخرى كانت فى النهاية لصالح المستأجر وتدعم موقفه ضد سلطة الملاك وكبار الملاك بشكل خاص .

ب - حجم الأراضى المؤجرة :

لقد كان الهدف من قوانين تنظيم الايجارات فى الأساس هو القضاء أو على الأقل تضيق الهوة الواسعة بين من يملك الأرض ومن يزرعها فعلاً . ولاشك أن ظاهرة المالك الغائب قد لعبت دوراً سلبياً خطيراً فى تطور الانتاج الزراعى فى مصر .

فالمالك الغائب لم يكن يهتم سوى الحصول على أكبر عائد من المستأجر وفرض الشروط القاسية عليه ، والمستأجر ، نتيجة احساسه بعدم الأمان والاستقرار لم يكن هو الآخر يهتم بتطوير الانتاج أو وسائله .

وقد لعبت قوانين الايجار الجديدة دوراً هاماً فى اتجاهين :

التقليل من ظاهرة التأجير بعد أن أصبحت غير مغرية للمالك ، من ناحية . ومن ناحية أخرى تأمين المستأجر والتقليل من المخاطر التى كان يتعرض لها وعلى رأسها الطرد من الأرض . ويوضح الجدول التالى

الأثر الايجابي للقانون على انخفاض نسبة الأراضي المؤجرة ؛

جدول

تطور نسبة الأرض المؤجرة (١٩٥٠ - ١٩٦٥)

السنة	الأراضي التي يشرف عليها الملاك	النسبة	الأراضي المؤجرة	النسبة
١٩٥٠	٢,٤٨١,٩٣٣	٤١ %	٣,٤٩٢,٤٦	٥٩ %
١٩٥٢	٢,٣٨٨,٤٧٩	٣٩,٥ %	٣,٦٦٨,٩٧٨	٦٠ %
١٩٥٨	٢,٦١٥,٦٨٣	٤٦ %	٣,٠٨١,٧٢٨	٥٤ %
١٩٦٠	٢,٩٦٠,٢٥٦	٤٩	٣,٠٢٠,٧٩٠	٥١ %
١٩٦٢	٢,٩٣٨,٦٣٦	٤٩ %	٣,٠٦٤,٧٦٧	٥١ %

ويمكن إرجاع هذه الظاهرة الايجابية الى عدة عوامل ، من أهمها أن عددا من صغار المستأجرين والذين وزعت عليهم أراضي الإصلاح الزراعي وأصبحوا ملاكا ، تركوا أراضيهم المستأجرة ، ومن ناحية أخرى فإن عدداً من كبار الملاك قد تحولوا الى الاشراف على زراعة أراضيهم بأنفسهم بعد أن أصبح الايجار ليس مجزياً وبعد أن أصبحت ملكيتهم محددة نسبياً^(١٣) .

ولو أخذنا أرقام الأحصاء الزراعي الرابع الذي أجرى سنة ١٩٦٢ على أنها دقيقة فسنفاجاً بأن جزءاً هاماً من الأراضي المؤجرة يقع في الملكية التي تقل عن خمسة أفدنة وتزداد بشكل خاص بين من يملكون فداناً فأقل . ولعل التفسير الوحيد لذلك أن ملكية أقل من فدان لم تكن بالطبع توفر لصاحبها الحد الأدنى من متطلبات المعيشة ، ولذلك غالباً ما يلجأ الى تأجيرها والعمل بشكل دائم أو مؤقت في أراضي كبار الملاك وأغنياء الفلاحين . كذلك فإن كثيراً من موظفي الدولة والعاملين في المدن الذين آلت إليهم ملكية صغيرة نتيجة الميراث كانوا يحرصون على الاحتفاظ بهذه الملكية مهما كانت صغيرة ، لأن امتلاك الأرض في حد ذاته يمثل قيمة لديهم وللمجتمع . وغالبية هؤلاء كانوا أيضاً يؤجرون أراضيهم .

أما من يملكون بين ٥ الى ٥٠ فداناً فإن نسبة الأراضي المؤجرة قد انخفضت بشكل عام ، فبالإضافة الى اتجاه كبار الملاك الى زراعة أراضيهم بأنفسهم نظراً لانخفاض مساحة ملكيتهم ، فإن إلغاء فئة الوسطاء ووضع حد أقصى للأراضي المؤجرة بـ ٥٠ فداناً للعائلة قد أدى الى خفض ملحوظ لنسبة الأراضي المؤجرة في هذه الشرائح .

جـ - دخل المستأجر :

ثمّة أثر ايجابي آخر لقوانين تنظيم الايجار هو زيادة دخل المستأجرين ، فالذي لاشك فيه أن تحديد قيمة الايجار بسبعة أمثال الضريبة المقررة على الأرض والشروط الأفضل التي جاءت بها القوانين لنظام المزارعة ، قد أدى في تقدير البعض الى زيادة دخل المستأجرين الذين قدر عددهم بحوالى مليون .

وتقدر وزارة الزراعة الزيادة السنوية في دخل المستأجر بـ ١٠ جنيهات عن الفدان ، إذ ارتفع هذا الدخل من ١٩ الى ٢٩ جنيها سنة ١٩٥٤ . أما التقدير الشامل لزيادة دخل المستأجرين فبلغت حوالى ٤٠ مليون جنيه . (١٤)

ومن الواضح أن هذه الأرقام مبالغ فيها ، فالتقدير ببساطة يضرب الزيادة التى قدرتها وزارة الزراعة فى دخل المستأجر للفدان فى العام فى عدد الأفدنة المستأجرة والتى كانت تقدر بـ ٤ مليون فدان .

ومن المؤكد أن كلا التقديرين ليس صحيحا ، ففى سنة ١٩٥٣ قدرت الأراضى المستأجرة بـ ٣,٣ مليون فدان بما فى ذلك الأراضى المستأجرة بنظام المزارعة والمشاركة على المحصول . وقد توصلت بعض الدراسات الأكثر دقة الى تقدير الزيادة فى دخول المستأجرين بحوالى ٢٥ مليون جنيه (١٥) ، ذهب أكثر من نصفها الى فئة المستأجرين من ١٥ الى ٥٠ فدانا والذين كانوا يستأجرون مساحة من الأرض تقدر بـ ١٤٩,١٩٧ ألف فدان (١٦) .

ولقد تأكد أن كبار المستأجرين هم الذين استفادوا فى الواقع بدرجة كبيرة بقوانين الإيجار مقارنة باستفادة صغارهم ، ويرجع ذلك الى عدة عوامل على رأسها أن كبار المستأجرين كانوا أقدر على مواجهة نفوذ كبار الملاك من ناحية كما كان الشكل الإيجارى السائد بينهم هو الشكل النقدى . فلقد بلغت نسبة الأراضى المؤجرة بنظام الإيجار النقدى فى الفئة بين ٥٠ - ١٠٠ فدان حوالى ٨٣ ٪ سنة ١٩٥٢ ، ٩٠ ٪ سنة ١٩٦٠ ، بينما كانت الأراضى المؤجرة بنظام المزارعة فى هذه الفئة لا تتجاوز ١٦ ٪ سنة ١٩٥٢ ، ١٠ ٪ سنة ١٩٦١ .

وغنى عن الإيضاح أن قوانين الإيجار الجديدة كانت محددة بشكل قاطع فيما يتعلق بالإيجار النقدى مما لا يعطى فرصة للتلاعب . الأمر الذى لم يكن متوافرا فى الإيجار العيني الذى ترك الفرصة واسعة لفرض كبار الملاك شروطهم وخاصة على صغار المستأجرين .

د - الأثر العملى :

من الثابت أنه فى السنوات العشر الأولى لتطبيق قوانين الإيجارات الجديدة ، كان هناك أثر واضح لزيادة دخل المستأجر وتغيير العلاقة لصالحه ، ولكن هذه الصورة - تعرضت بعد ذلك لهزات ملحوظة بعد ذلك سواء بالنسبة للارتفاع الملحوظ من جديد فى نسبة الأراضى المؤجرة أو فى تجنيب القانون نفسه والعودة بشكل أو بآخر الى إضعاف مركز المستأجر والمستأجر الصغير بشكل خاص (١٧) ، فلقد سجلت مجموعة الباحثين فى هذا الموضوع فى جريدة الجمهورية وأيضا فى مجلة الطليعة سنة ١٩٦٦ ، أن كثيرا من صغار المستأجرين قد اضطروا الى قبول شروط فرضها الملاك وتتنافى مع القوانين سواء فيما يتعلق بالإيجار النقدى أو الإيجار العيني : فهناك أولا من اضطرت تحت ضغط الملاك الى تحويل شكل الإيجار من الشكل النقدى الى المزارعة ، وفى نظام المزارعة أثبتت الدراسات أن المجال كان واسعا لتلاعب كبار الملاك ، مثل تحميل المستأجر نفقات الزراعة بل وأحيانا دفع ضريبة الأرض مع التزامه بعد ذلك بتوريد أكثر من نصف المحصول وأحيانا الثلثين .

كما لجأ كبار الملاك الى حيلة جديدة وهى أنهم لا يؤجرون الأرض لعام بل يؤجرونها بالمحصول شهريا ، مع كتابة عقود ايجار رسمية وتسجيلها فى الجمعيات التعاونية ، وقد أمكنهم بذلك أن يحصلوا على ايجارات عالية للغاية تفوق فى أحيان كثيرة الايجارات العالية قبل القانون^(١٨) . وبشكل عام يمكننا تقييم دور قوانين الايجارات الجديدة وأثرها من الناحية العملية فى علاقات الانتاج فى انها دفعت بشكل نسبي هذه العلاقات فى اتجاه أفضل وإن كانت لم تحقق الهدف النهائى فى تغيير جذرى لهذه العلاقات . ويعود ذلك الى عدة عوامل تتعلق بالقانون نفسه وبالظروف التى أحاطت بتطبيقه ويمكن تلخيصها فيما يلى :

● أن القانون نفسه اعترف بالإيجار العيني والمشاركة كأحد أشكال الايجار الهامة ، بالرغم من أن هذا الشكل المطلق للإيجار يرتبط كما سبق أن شرجنا بعلاقات الانتاج الأكثر تحلفا . ولقد أعطى ذلك للملاك ، والملاك الكبار بشكل خاص ، الفرصة للتلاعب وفرض شروطهم المجحفة والتى كان لها أثرها السلبي على الانتاج والمنتجين . وبالرغم من أن نسبة الأراضى المؤجرة بهذا الشكل المتخلف قد تراجعت فى البداية ، إلا أنها بعد ذلك عادت الى الاتساع متخذة أشكالا وأبعادا مختلفة .

● أعطى القانون لكبار الملاك الحق فى تجنب الأراضى المؤجرة ، وقد أعطى ذلك لهم سلاحاً استخدموه فى فرض شروطهم على المستأجرين الصغار بشكل خاص .

● قامت بالاشراف على تنفيذ القانون ، مثل باقى قوانين الاصلاح الزراعى ، الأجهزة البيروقراطية ، التى كانت بطبيعتها متحفزة ضد صغار المستأجرين . ولقد أعطى القانون للمالك الحق فى طرد المستأجر فى حالة إخلاله بعقد الإيجار ، ولم يحدد القانون الاشكال المحددة لهذا الإخلال . وحتى سنة ١٩٥٢ ، كانت المنازعات حول الايجارات تُعرض على المحاكم العادية ثم تقرر سنة ١٩٦٢ تشكيل لجنة « فض المنازعات » .

ولم يمنع ذلك من طرد كثير من المستأجرين من أراضيهم ، فصغار المستأجرين لا يعرفون ولا يقدرّون على الإجراءات الطويلة والمعقدة للمحاكم من ناحية ، وبالنسبة للجان فض المنازعات التى كانت تتكون من المالك والمستأجر والمشرف الزراعى وبعض الاداريين من أغنياء الفلاحين ، فإن قراراتها فى أحوال ليست قليلة لم تكن فى صالح صغار المستأجرين من ناحية أخرى .^(١٩)

على أنه بعيدا عن هذه الثغرات فى القانون ، فإن الظروف الموضوعية التى ظلت تسود الانتاج الزراعى فى مصر كانت تقلل الى حد كبير من التنفيذ العملى للقانون ، فبالرغم من وضع حد أقصى للملكية وتوزيع الأراضى على صغار الملاك ، ظل شكل التركيز الشديد للملكية من جانب والانعدام الواسع للملكية من جانب آخر قائما ويلعب دوره السلبي ، فقد ظل هناك ٥ ٪ من الملاك يضعون أيديهم على أكثر من ٥٠ ٪ من الأراضى من يملكون خمسة أفدنة فأكثر . بينما تتسع كل يوم نسبة التفتيت بين الملاك الصغار ونسبة اللاملكية بين المعدمين .

— لعبت الدولة دوراً متميزاً في السنوات العشر الأولى بالنسبة لهذه الجمعيات وذلك بإمدادها بالآلات الزراعية الحديثة ، كما زودت كل جمعية بخبير زراعى متخصص لقيادة المسائل الفنية فى العمل^(٢٤) .

وبالرغم من أن نفوذ الدولة فى هذه الجمعيات ، من وجهة نظر بعض القوى السياسية ، قد أخل بالطبيعة الديمقراطية لها ، إلا أننا ، من وجهة نظر التطبيق العملى ، نرى أن الدور الذى لعبته وزارة الإصلاح الزراعى فى رعاية هذه الجمعيات فى المراحل الأولى كان مسألة ضرورية وهامة^(٢٥) .

ولما كانت هذه الجمعيات قد قامت أساساً فى أراضى كان يملكها كبار الملاك الذين كانوا يستخدمون نسبياً الآلات والوسائل الحديثة ، فقد كانت هناك مخاطر لدى توزيعها على الفلاحين فى مساحات صغيرة . من أن يشهد الانتاج الزراعى انخفاضاً ملحوظاً ، وقد حدث بالفعل فى السنوات الأولى لتطبيق قانون الإصلاح الزراعى ، ولذلك كان دعم ومساندة الدولة لتلك التعاونيات مسألة ضرورية لمواجهة مخاطر التفتت وتأثيره على الانتاج .

وبالرغم من أنه كانت هناك العديد من الأشكال التعاونية الانتاجية فى هذه الجمعيات مثل تنظيم استغلال الأرض ، وزراعتها وحصادها .. الخ ، كما أن غالبية أدوات الانتاج مثل الآلات والمحارن وأدوات الري التى كانت مملوكة لكبار الملاك السابقين قد تحولت الى ملكية تعاونية للتنظيمات الجديدة ، إلا أن تلك التعاونيات لم تصل أبداً الى مستوى الجمعيات الانتاجية . فلقد قامت زراعة الأرض على أساس فردى ، وكان كل منتفع مسؤولاً عن قطعة أرضه .

ولقد قيلت آراء كثيرة حول هذه الجمعيات ، فالبعض يرى أنها مأخوذة عن النظام التعاونى الذى اتبعه الانجليز فى مشروع الجزيرة فى السودان ، وأن ذلك كان اسلوباً ذكياً فى الربط بين بعض عوامل الزراعة الواسعة بالتسويق التعاونى مع تشجيع المبادرات الفردية للفلاحين الصغار .

ويعتقد البعض الآخر أن القيادة السياسية فى ذلك الوقت كانت تعتقد أن تلك هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق فائض كبير فى الانتاج الزراعى فى تلك الجمعيات^(٢٦) .

ب - أثر جمعيات الإصلاح على الأشكال التعاونية الأخرى :

كان لجمعيات الإصلاح الزراعى تأثيرها على أوضاع الجمعيات الائتمانية التقليدية . إذ كان لنجاح نظام التسويق التعاونى فى جمعيات الإصلاح وكذلك تطعيم الجمعيات بالمختصين أثر واضح فى تشجيع الحكومة على ادخال تغييرات عديدة على أوضاع التعاونيات الزراعية الائتمانية التى كانت موجودة من قبل ، الأمر الذى أدى فى واقع الأمر الى التقريب بين الشكلىين التعاونيين .

لقد بدأ هذا التغيير بصدور القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٥٥ والذى نظم أعمال هذه التعاونيات . ومن أهم هذه التغييرات :

● إعادة تنظيم بنك التسليف الزراعى ، وهو البنك الذى كان مسؤولاً عن إمداد الفلاحين بالقروض والبذور ، وأصبح مؤسسة عامة ، وتغير اسمه الى مؤسسة الائتمان الزراعى التعاونى . واقتصر البنك فى سلفياته منذ ١٩٦٢ على الجمعيات التعاونية ولم يعد يقرض الأفراد ، كما تم اعفاء السلف من الفوائد مع عدم اشتراط

وقد أدى ذلك الى زيادة الطلب على الأرض واستمرار ماسمى تاريخيا بالجوع الى الأرض ، ويمثل ذلك أرضية نموذجية لاستغلال الملاك ، والملاك الكبار بشكل خاص ، ولدعم مراكزهم وفرض شروطهم على الملايين المتزايدة والتي تعيش على الزراعة ولا تملك أرضا .

ولما لم تكن القوانين فى حد ذاتها وبأسلوب تنفيذها قادرة على تغيير الواقع ، فمن الطبيعى أن يفرض الواقع نفسه من جديد متجاوزاً هذه القوانين وهذا ما حدث .

التعاونيات الزراعية

١ - أشكال جديدة :

كان بناء أشكال تعاونية جديدة على الأرض الموزعة أحد الملامح الجديدة الهامة فى تطبيق قوانين الإصلاح الزراعى . فلقد نصت المواد من ١٨ - ٢٢ فى القانون رقم ١٧٨ لسنة ١٩٦٢ على ضرورة تشكيل جمعيات تعاونية على أراضى الإصلاح الزراعى الموزعة على صغار الفلاحين ، وحددت تلك المواد المهام الملقاة على عاتق تلك الجمعيات التعاونية ، فيما يلى :

- توزيع السلفيات على الأعضاء وفقا لاحتياجاتهم .
- تزويد المزارعين بما تحتاجه العملية الزراعية من آلات وبذور واسمدة وحيوانات .
- ضمان أفضل الظروف لتحقيق زيادة الانتاج ومواجهة أية مشاكل تعوق الانتاج وبناء المخازن والقنوات .
- تنظيم تسويق الحاصلات الزراعية .
- توفير الخدمات الاجتماعية والثقافية للأعضاء (٢٠) .

ومن الوهلة الأولى يلحظ الانسان المهام العديدة التى أوكلت للجمعيات التعاونية الجديدة ، وكانت هذه المهام أوسع بكثير من المهام الائتمانية المحدودة التى كانت ملقاة على عاتق الجمعيات الائتمانية الموجودة بالفعل (٢١) .

لقد بدأت جمعيات الإصلاح الزراعى سنة ١٩٥٤ بـ ٧٢ جمعية تعاونية ارتفع عددها بعد ذلك حتى وصل سنة ١٩٦٨ الى ٦٥٠ جمعية (٢٢) ، ولقد لعبت هذه الجمعيات دوراً هاماً فى تطوير الانتاج الزراعى ، ليس فقط فى أراضى الإصلاح الموزعة بل وأيضاً فى الأراضى المنزرعة بشكل عام .

واكتسبت تلك الجمعيات ملمحاً هاماً أعطاها طابع الجمعيات التعاونية شبه الانتاجية :
— اقتصرت عضوية هذه الجمعيات على المنتفعين من قانون الإصلاح الزراعى وبذلك تحررت من السيطرة التى كان يمارسها كبار الملاك وأغنياء الفلاحين فى الجمعيات التقليدية ، فأوضاع وعلاقات الأعضاء متساوية أو متقاربة ، وقد خلف ذلك ظرفاً مواتياً لتطوير هذه الجمعيات .

— جاء التسويق التعاونى لغالبية المحاصيل مثل القطن والأرز والبصل بمكاسب حقيقية للأعضاء ، وحررهم من الوسطاء وتجار القرى الذين كانوا يستغلون الفلاح استغلالاً مكثفاً ، وقد شجع النجاح الذى تحقّق ، الحكومة على توسيع نظام التسويق التعاونى وتطبيقه فى الأشكال التعاونية الزراعية الأخرى (٢٣) .

ضمان الأرض لتقديم تسهيلات ائتمانية لصغار الفلاحين والاكتفاء بضمان المحصول^(٣٧) . وقد أدى هذا عملياً الى دعم دور الجمعيات الائتمانية وإعطائها دفعة قوية للأمام كما تصاعدت سلفيات البنك في الفترة من ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ بمقدار أربعة أضعاف ، وذهبت ٨٠ ٪ من قروض البنك وسلفياته الى من يملكون عشرة أفدنة فأقل .^(٣٨)

وأكدت دراسة أجريت على الأغراض التي صرفت من أجلها قروض البنك ، أن غالبيتها العظمى استثمر بشكل رأسالي .^(٣٩)

● فتح مجالات وآفاق جديدة أمام النشاط التعاوني الزراعي وبشكل خاص تسويق الحاصلات الزراعية ، والقطن أساساً . لقد مثل ذلك تطويراً للمهام التقليدية التي كان ينحصر فيها العمل التعاوني في مجال الزراعة وهو تقديم البذور والأسمدة ، وتنظيم مكافحة الآفات الزراعية . لقد بدأ نظام تسويق القطن في هذه الجمعيات على أسس اختيارية في البداية ، ثم جرى تعميمه وتنظيمه بعد أن ثبت نجاحه .

جدول

القروض والسلفيات المقدمة من بنك التسليف الزراعي التعاوني
١٩٥٢ - ١٩٧٠ بالآلاف جنيه

السنة	السلفيات	نصيب التعاونيات	النسبة
١٩٥٢	١٥,٩٦٠	٢,٤٠٠	٢١,٣
١٩٥٤	١٧,٤٨٨	٤,٠٤٩	٢٦,١
١٩٦٢	٦٠,٩٦٢	٦٠,٩٦٢	١٠٠
١٩٦٨	٧٨,٤٧٨	٧٨,٤٧٨	١٠٠
١٩٧٠	٨٠,٨٦٨	٨٠,٨٦٨	١٠٠

المصدر : الكتاب السنوي - الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء - القاهرة سنة ١٩٧٤

ولقد بدأ ، الى حد ما تسويق محاصيل أخرى ، ولكن ذلك لم يعمم ولم يتسع مثلاً حدث بالنسبة للقطن . ويعود ذلك الى المقاومة الشديدة لتجار الريف وكبار الملاك لنظام التسويق التعاوني بشكل عام ، كما لعبت الأجهزة البيروقراطية التي كانت مسئولة عن التنفيذ دوراً في الحد من انتشار التسويق التعاوني وتعميمه بالنسبة لكافة المحاصيل .

جدول
تطور التسويق التعاوني للقطن وعدد آخر من المحاصيل

المحصول	١٩٦٢	% ١٩٦٦	% ١٩٧٠
القطن	—	% ١٠٠	% ١٠٠
الأرز	—	% ٥٠	% ٤٥
البصل	—	% ٢٩	% ٢٨
البطاطس	—	% ١٨	—
العدس	—	% ٨٠	% ٧٠

المصدر :

الكتاب السنوي - الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء - يونيو ١٩٧٣ - مع ملاحظة أن النسبة المئوية قنا باستخراجها من الأرقام المتاحة الخاصة بالانتاج الكلي والانتاج المسوق تعاونيا .

وبشكل عام فإن تسويق القطن وبعض المحاصيل الأخرى تعاونيا قد مثل خطوة هامة في اتجاه تحقيق ما جاء عن دور التعاون الزراعي في ميثاق العمل الوطني الصادر سنة ١٩٦١ ، والذي أشار الى ضرورة أن تلعب التعاونيات الزراعية دوراً انتاجياً بارزاً في إعادة صياغة الحياة في القرية المصرية .

ولقد أثبتت كل الدراسات التي أجريت في هذا المجال ، أن صغار ومتوسطى الفلاحين قد استفادوا ودافعوا عن التسويق التعاوني بالرغم من بعض الأخطاء التي ارتكبتها الأجهزة البيروقراطية العاملة في هذا المجال ، إلا أنه من ناحية أخرى ، فقد نظم كبار الملاك وتجار القرى الأقوياء حملة مكثفة من أجل إلغائه . وقد أدت هذه الحملة الى الحد بدرجة كبيرة من تعميم تجارب تسويق المحاصيل الأخرى فيما عدا القطن^(٣٠) .

لقد كان لسياسة التسويق التعاوني أثر فعال في أكثر من مجال ، فبالإضافة الى الدور الذي لعبته في مجالات العلاقات الاجتماعية وحماية الفلاح الصغير والمتوسط من بعض الفئات الطفيلية الخطيرة التي كانت تستغله مثل كبار الملاك وتجار القرى ، فإن دورها كان واضحاً في تحقيق فائض واضح في الانتاج الزراعي مما أتاح للدولة فرصة توجيه وتنظيم هذا الفائض لصالح الاقتصاد الوطني ككل .

جـ - التعاون الزراعي والديمقراطية :

لقد كان التوسع في التعاونيات وقاعدة العضوية العريضة مرتبطاً بالعمل على جعلها منظمات جماهيرية ديمقراطية . ويعنى هذا أن يكون للفلاحين الفقراء والذين يمثلون القاعدة العريضة للعضوية في هذه التعاونيات دور كبير في قيادتها^(٣١) . ولقد تمت محاولات على هذا الطريق من أهمها النص على أن تقوم الجمعية العمومية بانتخاب مجالس إدارة التعاونيات ، على أن يكون لكل فرد صوت واحد بغض النظر عن حجم الملكية^(٣٢) .

ومنها أيضا النص في قانون انتخاب مجالس الإدارة على أن يكون ٨٠ ٪ من أعضائه ممن يملكون خمسة أفدنة فأقل .

وفي سنة ١٩٦٩ أصدرت الحكومة قانونا بإنشاء مجلس أعلى للتعاون يشرف على نشاط الجمعيات التعاونية^(٣٥) . لقد استهدفت هذه الخطوات دعم مركز فقراء وصغار الفلاحين ودورهم في التعاونيات . ولكن الدراسات التي أجريت على عينات معبرة عن التعاونيات أثبتت أن النفوذ الرئيسى فيها كان فى أيدي أغنياء الفلاحين والذين كانوا فى الواقع يتمتعون بمساندة كبار الملاك وبعض كبار الموظفين العاملين فى مجال العمل الزراعى التعاونى^(٣٦)

وفى سنة ١٩٧٠ كانت مجالس الإدارات فى حوالى ٥٠ ٪ من التعاونيات الزراعية قد صدر قرار بملها وتولى السلطة مشرف أو موظف تعينه وزارة الزراعة^(٣٧) . ولقد أدت الظروف المواتية لأغنياء الفلاحين طوال فترة الستينيات ، وكذلك سياسة المهادنة التى اتبعتها الحكومة بعد العدوان الاسرائيلى وهزيمة ١٩٦٧ ، الى أن يحتل هؤلاء الأفراد مركزا متميزا حال دون اتساع الديمقراطية فى الجمعيات التعاونية ، وحولوها الى تنظيمات تخدم فى الأساس مصالحهم الخاصة^(٣٨) .

د - بعض الملاحظات :

لقد حاولت الدولة أن تلعب بالنسبة للتعاونيات الدور الرئيسى باعتبارها مصدر التمويل ، وعملت على تحرير العمل التعاونى من كثير من القيود التى كانت تشله فى الماضى ، وقد سعى النظام الى ذلك مستهدفا دفع الانتاج الزراعى ، واستخدام الفائض فى مشروعات صناعية واجتماعية ، ولقد كان ذلك فى واقع الأمر فى صالح المنتجين الزراعيين ، إذ حررهم من القيود المالية والاجتماعية التى كانت تكبلهم على أيدي كبار الملاك والتجار والمرايين . ولقد أدى هذا بالطبع الى دفع وتطوير علاقات الانتاج ، ولكن هذه التعاونيات ، وبرغم كل الجهود التى بذلت لم تصل أبدا الى مستوى التعاونيات الانتاجية .

ويعود ذلك الى عاملين أساسيين :

١ - الإلحاح المستمر من جانب النظام على توسيع قاعدة صغار الملاك . الأمر الذى تحول الى « تابو » وقف حائلا دون المضى فى تطبيقات علمية من أجل تطوير التعاونيات الى تعاونيات انتاجية حقا . وحينما بدأت بعض التجارب التعاونية المتقدمة مثلما حدث فى كفر الشيخ وبنى سويف ، انطلقت أصوات من داخل النظام تحذر من هذه التجارب تحت دعوى « أنها تمثل خطرا على أيديولوجية النظام بالنسبة للزراعة ، والتى تقوم على أساس توسيع قاعدة الملكية وحمايتها »^(٣٩) وتسترون تحت المظلة التى جاءت فى ميثاق العمل الوطنى حول « السمات الخاصة للحل المصرى للمشكلة الزراعية » للوقوف فى وجه أية محاولة جادة للانتقال بالتعاونيات الزراعية الى مرحلة التعاونيات الانتاجية الحقيقية .

بل إن فكرة استكمال البناء التعاونى ، وإيجاد مجلس أعلى للتعاون يكون مسئولا ومشرفا بشكل ديمقراطى على النشاط التعاونى الزراعى ، وجدا مقاومة عنيفة من كبار الموظفين العاملين فى الحقل الزراعى^(٤٠) ، فبذلوا جهودا كبيرة ومكثفة للحيلولة دون تطوير المنظمات التعاونية الزراعية الى منظمات جماهيرية انتاجية حقا مرددين دائما « أن الحل المصرى للمشكلة الزراعية يقوم على أساس توسيع ودعم حق الملكية الخاصة »^(٤١)

٢ - غياب حركة جماهيرية ديمقراطية بشكل عام ، وبين الفلاحين بشكل خاص ، وفي مجال التعاونيات الزراعية ، كانت الدولة هي التي تقوم بالمبادرات في شكل اصدار قرارات وقوانين . يتحكم فيها نخبة من البيروقراطيين وتشرف على تنفيذها أجهزة بيروقراطية تقليدية ، فالمؤسسة العامة للتعاونيات الزراعية كانت هي السلطة الحقيقية في الإشراف على تعاونيات الائتمان الزراعي ، كذلك المؤسسة التعاونية للإصلاح الزراعي^(٤٢) .

ونظرا لغياب حركة سياسية حقيقية بين الفلاحين ، والحساسية المفرطة من جانب النظام إزاء خلق مؤسسات جماهيرية فلاحية مستغلة ، أصبح الباب مفتوحا لتزايد نفوذ أغنياء الفلاحين . وأصبحوا في واقع الأمر يمثلون القيادة الفعلية في التعاونيات ومجالس إدارتها ، كذلك في قيادة وحدات الاتحاد الاشتراكي العربي في الريف وهو التنظيم السياسي الوحيد الذي كان مسموحا له بالعمل^(٤٣) . ولقد أدى ذلك الى تحالف بين أغنياء الفلاحين وكبار الملاك ومعهم قطاعات من العناصر البيروقراطية العاملة في الحقل التعاوني ، الأمر الذي حاصر المبادرات الجماهيرية الفلاحية من أجل تطوير جوهرى حقيقى في وضع التعاونيات الزراعية ومهامها^(٤٤) .

وبالرغم من أن هذه اللجنة قد اتخذت عددا من القرارات الهامة ضد نفوذ عدد كبير من كبار الملاك وسيطرتهم المادية والمعنوية ، إلا أنها ، في نفس الوقت ، وقفت حائلا دون انطلاق حركة جماهيرية سياسية بين الفلاحين . ولقد تشكلت اللجنة في الأساس من عناصر أمنية عاملة في البوليس والجيش مثل المباحث العامة والبوليس الحربي وهي أجهزة كان لها تراثها الطويل في العداء لأية تحركات أو تنظيمات جماهيرية ، وحينما حاول الممثل الوحيد للتنظيم السياسي في اللجنة أن يطرح قضية الاستعانة بالفلاحين أنفسهم لمواجهة تعسف وظلم كبار الملاك ، رد المشير عبد الحكيم عامر رئيس اللجنة والقائد العام للقوات المسلحة في ذلك الوقت قائلا : إن تقارير أجهزة الدولة أكثر دقة وفاعلية ، وإذا أعطينا هذا الحق للفلاحين فسيتحول الأمر الى مسألة انتقامية وحسد ومطامع شخصية .^(٤٥)

وهذا المنطق بالتحديد (الثقة المطلقة في الأجهزة مع التشكك والحذر الدائم من أية حركة جماهيرية منظمة) لعب دورا سلبيا خطيرا في تطبيقات الإصلاح الزراعي بشكل عام ، وفي تطور التعاونيات الزراعية بشكل خاص .

فالحركة التعاونية بطبيعتها حركة جماهيرية . ولايعنى هذا مصادرة حق الدولة بقيادتها الوطنية في الخمسينيات والستينيات في أن تلعب دورا في توجيه وتطوير هذه الحركة ، بالعكس فلقد كان هذا مطلوبا وخاصة في المراحل الأولى ، ولكن الذي حدث هو اعتماد كلى على أجهزة الدولة واستبعاد شبه تام لدور جماهير المنتجين الحقيقيين في الريف . وقد أدى ذلك الى سيطرة العناصر البيروقراطية وتحالفها مع أغنياء الفلاحين في السيطرة على العمل الانتاجي (التعاونيات) والسياسي (الاتحاد الاشتراكي) . الأمر الذي حاصر بدرجة كبيرة دور وفاعلية صغار وفقراء الفلاحين الذين يمثلون الغالبية العظمى من أعضاء هذه التنظيمات والذين لهم مصلحة أكيدة في تطوير العمل في هذه المؤسسات الانتاجية والسياسية .

ولهذا ، وبالرغم من كل الخطوات والاجراءات التقدمية التي اتخذت في مجال التعاونيات الزراعية ، إلا أنه من الواضح أن هذه التعاونيات لم تصل أبداً الى وضع التعاونيات الانتاجية ، ولم تحقق الأهداف التي تحدث عنها ميثاق العمل الوطني في هذا المجال ، ذلك الميثاق الذي كان يعبر عن فكرية تجريبية (براجماتية) ذات توجهات تقدمية واشتراكية . (٤٨)

ولقد احتلت التعاونيات والعمل التعاوني مكانا بارزا في الأدبيات والتطبيقات الماركسية ، ونظر إليها على أنها السبيل الحقيقي لإجراء تغييرات جذرية في المجتمعات الريفية وخاصة في مجال علاقات الانتاج . وكان السؤال المطروح دائما ، تعاونيات من ومن أجل من ؟ (٤٩)

فالتعاون في المجال الزراعي يعنى تغيير أوضاع صغار ومتوسطي الفلاحين وحيازاتهم الصغيرة التي كانت تحد من قدراتهم الانتاجية وأيضا من فعاليتهم السياسية ، وذلك لتهيئة الظروف الملائمة للانتاج الكبير والواسع من خلال الملكيات التعاونية . الأمر الذي يهيئ للفلاحين ظروف عمل وحياة أفضل ويجرهم من نير الاستغلال الطويل (٥٠) . ومن الطبيعي أن تلعب الظروف والقسمات الخاصة بكل بلد دوراً في تكييف العمل التعاوني ، إلا أن الأدبيات الماركسية أكدت ملمحين بارزين للعمل التعاوني :

- دور الدولة التي تتبنى مصالح العمال والفلاحين ، وتقدم المساعدات الفعالة للحركة التعاونية .
- دور الحركة الجماهيرية الفلاحية القادرة على إعطاء الدفعة الثورية للعمل التعاوني وتطويره .

وفي كثير من التطبيقات في الدول الاشتراكية ، لم يكن الأمر هينا فقد ووجهت الحركات التعاونية الجديدة بمعارضة ، وأحيانا . بمقاومة ، أغنياء الفلاحين وتجار القرى ، بل إنه أحيانا ما كان الفلاحون المتوسطون بل وبعض الفقراء لا يتقبلون الأمر بسهولة . وقد لعبت الحركة الجماهيرية الفلاحية في تلك البلدان الدور الأساسي في مواجهة العقبات العملية والدعائية التي يخلقها وبروجها عادة أصحاب المصالح الاستغلالية . (٥١) .

وفي مصر ، لم يكن هناك حزب سياسى حقيقى فعال ، ولم تكن هناك حركة جماهيرية نشطة بين الفلاحين ، واعتمدت القيادة الوطنية في الأساس على أجهزة الدولة بترائها البيروقراطى التقليدى . والنتيجة أن معظم الاجراءات التي اتخذت في مجال الإصلاح الزراعى بشكل عام ، والتعاونيات الزراعية بشكل خاص ، قد أدت الى نتيجة محققة ، وهى دفع علاقات الانتاج في الريف خطوات أوسع في اتجاه علاقات الانتاج الرأسمالية ، وهو أمر يعتبر في حد ذاته خطوة الى الأمام .

لقد استطاعت الفئات والشرائح الرأسمالية في الزراعة تدعيم مواقعها ونفوذها . ففى خلال عملية التصفية المستمرة لقوى وعلاقات الانتاج الاقطاعية وشبه الاقطاعية ، برزت الفئات الرأسمالية العاملة في الزراعة واحتلوا مراكز القيادة في المؤسسات الانتاجية والسياسية والتشريعية العاملة في الريف ، في الجمعية التعاونية ووحدات الاتحاد الاشتراكي والمجالس المحلية ، وحتى في البرلمان .

وفي أواخر الستينيات كان من الواضح أن هذه الفئات الرأسمالية تملك السلطة حقا في الريف (٥٢) .

خطوات في اتجاه تغيير وسائل وعلاقات الانتاج

١ - وسائل الانتاج المتخلفة :

ظلت وسائل وأدوات الانتاج المستخدمة في الزراعة المصرية وحتى سنة ١٩٥٢ متخلفة للغاية ، وكانت الساقية والشادوف والطمبور ، هي الوسائل الأساسية المستخدمة في الري ، وهي تكاد تكون نفس الوسائل التي استخدمها الفراعنة والبطالسة في مصر القديمة ، كما ظل المحراث الخشبي الذي يجره الحيوان هو الوسيلة الأساسية لحث الأرض وتجهيزها .^(٥٢)

وقد كان هناك حتى ثورة يوليو حوالي ٩٧٢ جرار هي كل ما كان يستخدم في الزراعة المصرية من آلات ، ومعظمها من النوع البسيط والقديم ، وتتواجد فقط في الأراضي التي تملكها بعض الشركات الزراعية أو أراضي بعض كبار الملاك الذين كانوا يزرعون جزءا من أراضيهم بأنفسهم .

وهذا التخلف الشديد في أدوات ووسائل الانتاج كان انعكاسا لتخلف الانتاج الزراعي وعلاقاته لفترات طويلة .

وقد شرحنا في فصل سابق الأسباب التي أدت الى هذا التخلف الشديد في وسائل وعلاقات الانتاج ، ومن أهمها ظاهرة التفتت الشديد في الملكيات الزراعية ، والتي كانت إحدى النتائج السلبية البارزة لسوء توزيع الملكية ، كذلك انتشار ظاهرة الايجار كنتيجة حتمية لوجود المالك الغائب والطفيلي ، ووجود أعداد كبيرة من العاملين في الزراعة أكبر بكثير من المساحة المزروعة والمحدودة أصلا .

ومن الناحية الانتاجية ، كان التفتت الشديد في الحيازات الزراعية هو أخطر المشاكل التي تحتاج الى مواجهة حقيقية ، وخاصة بعد قوانين اصلاح الزراعى . فالتفتت ، ووجود مساحات قزمية كثيرة ، يعنى ضياع مساحات واسعة من الأرض في الحدود والبتون والجسور التي تفصل بين حيازة وأخرى ، وتقدر هذه المساحة الضائعة بحوالى ٢٥ ٪ من إجمالى المساحة المزروعة .

وهو يؤدي أيضا الى انعدام سياسة محصولية موحدة ، بل إلى فوضى محصولية بالمعنى الحقيقي ، الأمر الذى يؤثر تأثيراً سلبياً خطيراً على الانتاج . كما يعنى فوق هذا استحالة تطوير أدوات الانتاج ووسائله واستخدام الآلات الحديثة والوسائل العلمية ، والتي تتطلب مساحات واسعة .

ولكل هذه النتائج السلبية الخطيرة كان هناك الانعكاس الأخطر على علاقات الانتاج والتي تخدم في الأساس مصالح كبار الملاك ، وقد حرصت سياسة الاحتلال البريطانى بالتعاون مع كبار الملاك على الحفاظ على هذا النوع الذى يؤدي الى استقلال كل مالك أو حائز بحيازته القزمية والتي وإن كانت في واقع الأمر لا تقدم له الحد الأدنى من ضروريات المعيشة ، إلا أنها تميزه عن المعدمين والعمال الزراعيين . وقد أدى هذا الى تعطيل التحديد الطبقي في الريف والى تشويه بنية الطبقة العاملة الزراعية^(٥٥) .

ولذا كان من الطبيعي أن يولى النظام الجديد أهمية لتلك المشكلة والبحث عن حلول لها .

الاجراءات التى اتخذت لعلاج مشكلة التفتيت :

سارت هذه الاجراءات فى اتجاهين :

أولا : المادتان ٢٣ ، ٢٤ من القانون الأول. للاصلاح الزراعى وتنصان على عدم جواز تفتيت الأراضى الموزعة على الفلاحين لأقل من خمسة أفدنة .^(٥٦)

ثانيا : قانون « تنظيم الاستغلال الزراعى » الذى وضع نظاما جديدا فى الانتاج الزراعى واستغلاله .
لقد كان الهدف من المادتين ٢٣ ، ٢٤ فى القانون الذى صدر فى سبتمبر ١٩٥٢ هو عدم تعريض الأراضى الموزعة من الاصلاح الزراعى لمزيد من التفتيت حماية للانتاج^(٥٧) .

ولكن هذا القانون ، ولأسباب عديدة ، لم تتح له الفرصة فى أن يوضع موضع التطبيق الجدى ، منها :
● نص القانون على عدم تقسيم الأراضى الموزعة بين الورثة ، على أن يتفق هؤلاء الورثة على أن يستقل أحدهم بالأرض ، وتعويض باقى الورثة ، ومن الناحية العملية لم يحدث أن قبل أحد من الورثة التعويض ، وخاصة أن القانون كان عاجزا عن التحديد وظل مجرد نص عام ، كما أن قانون الوراثة ظل معمولاً به ، الأمر الذى لم يكن من الممكن معه تفادى تفتيت هذه الأراضى بين الورثة .

● أن قانون الاصلاح الزراعى نفسه قد سمح فى الواقع بتفتيت الأراضى الموزعة لأقل من خمسة أفدنة ، فلقد أعطى القانون الحق لكبار الملاك فى أن يبيعوا الأرض الزائدة عن الحد الأقصى لصغار الملاك فى قطع تتراوح بين فدانين وخمسة أفدنة^(٥٨) بل إن القانون نص فى توزيع الأراضى على القرى « فى مساحات لاتقل عن فدانين ولا تزيد عن خمسة أفدنة »^(٦٠) وعمليا تم توزيع أراضى الاصلاح فى الأغلب فى قطع تتراوح بين فدانين وثلاثة ، وبهذا أصبح النص على عدم جواز تفتيت الأراضى الموزعة لأقل من خمسة فدادين بلا معنى أو مغزى .

وبهذا الشكل انضمت مساحات كبيرة من الأراضى الموزعة الى النسبة الكبيرة من الأراضى الأخرى التى تعاني من التفتيت . . .

وفى سنة ١٩٥٢ كانت هناك مساحة من الأرض قدرها ٢,١٢٢ مليون فدان فى حيازات صغيرة تقل عن خمسة أفدنة ، وفى سنة ١٩٦٣ كانت مساحة الحيازات الصغيرة والمفتتة قد اتسعت لتشمل ٣,٦٩٣ مليون فدان ، وإذا وضعنا فى الاعتبار ماذهب اليه المختصون من أن ثلاثة أفدنة تعتبر هى الحد الأدنى للقبول من الناحية الانتاجية بالنسبة للعائلة الفلاحية ، يتضح أنه من بين الحائزين للأرض الزراعية الذين يبلغ عددهم ٣,٢١١ مليون ، هناك ٢,٢٥٠ مليون حائز لمساحات لاتتجاوز الفدان لكل حيازة^(٦١) . وحتى سنة ١٩٦٢ كان هناك ١,١٠٧ مليون عائلة فلاحية تملك كل منها أقل من ثلاثة أفدنة ، ويحوزون مساحة من الأرض تقدر بـ ١,٣٦٥ مليون فدان ، « أى أن متوسط الحيازة بينهم تبلغ ١,٢ فدان بالنسبة للأسرة »^(٦٢) .

والتفتيت لايعنى فقط الحيازة القزمية والصغيرة التى تقل عن الحد الأدنى لصلاحية الحيازة الانتاجية ، بل إن هناك أشكالا أخرى من التفتيت حتى بين متوسطى الملاك وأحيانا كبار الملاك ، فبعض هؤلاء يمتلكون عددا من الحيازات الصغيرة والمفتتة التى يقل بعضها عن ثلاثة أفدنة وموزعة فى مناطق وأحواض زراعية مختلفة .

جدول
عدد مساحة الحيازات التي تتكون من ١٠ قطع فأكثر

فئة الحيازة	المساحة	العدد	متوسط القطعة
خمس أفدنة فأقل	(فدان)		(فدان)
٥ - ٥٠	١٦٤٢٩	٥٢٣١	٠,٣
أكثر من ٥٠	٢٦٠٦١٩	١٦٧٢٢	١,٦
الجملة	٣٩٧٧٦٦	٢٦٢٧	١٥,٠
	٦٨٤٨١٤	٢٤٥٨١	٤,٠

جدول
عدد مساحة الحيازات التي تتكون من ٤ الى ٩ قطع

فئة الحيازة	المساحة	العدد	متوسط القطعة
خمس أفدنة فأقل	٥٩٣٤٨٥	٢٢٧٠٢٥	٠,٤
٥ - ٥٠	١,١٢٩,٩٨١	١١١٨١٩	١,٧
أكثر من ٥٠	٣٩٠٢٥٠	٣٢٩٠	١٧,١

وتوضح الجداول أن هناك حيازات تبلغ حوالى ٣٥٠,٧٩٥ وتعطى مساحة قدرها ٣,٠٠٠,٥١٤ فدان ، ومتوسط مساحة الحيازة حوالى ٣٣, من الفدان . فإذا أضفنا إلى هذا ١,٨١٥ مليون حيازة التي تتراوح مساحة الحيازة فيها ما بين فدان إلى ٠,٣٠ من الفدان ، تتضح أماننا الأبعاد الخطيرة لظاهرة التفتيت ، وتأثيرها السلبي للغاية على الإنتاج الزراعى وعلاقاته وأدواته . وبالرغم من أن هناك اعترافا من جميع المسؤولين عن السياسة الزراعية بخطورة التفتيت ، إلا أنه لم تتخذ في الواقع العملى أية خطوات جادة لحل هذه المشكلة . ووصفها بعض المسؤولين بأنها مشكلة ليس لها حل^(٦٤) .

٣ - تنظيم الدورة الزراعية :

اتخذت حكومة الرئيس عبد الناصر اجراءات أخرى في محاولة لحصار الآثار السلبية الخطيرة لظاهرة تفتيت الأراضى الزراعية على الإنتاج . وتعرف هذه الاجراءات بـ « تنظيم الاستغلال الزراعى » وقد طبق هذا التنظيم بداية كتجربة في قرية نواج سنة ١٩٥٧ وبعد خمس سنوات من التجربة عم التنظيم في أراضى

الجمهورية . ويتلخص هذا التنظيم في تقسيم الأراضى التابعة لكل قرية إلى ثلاثة أحواض زراعية ، ويمثل كل حوض ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ فدان تتناوب فيها بينها دورة زراعية لمحصول واحد^(٦٥)

واستهدف التنظيم الحد من مخاطر التفتيت في تنوع وفوضى المحاصيل في الحيازات الصغيرة وذلك دون الدخول في حل مباشر للمشكلة ، وألزم كل حوض بزراعة محصول واحد لدورة زراعية واحدة ، كأن يزرع قطناً والآخر قمحاً والثالث أرزاً ، وهكذا .. ومن الناحية النظرية يقدم المشروع إلى حد ما حلاً لمشكلة تنوع المحاصيل ، كما يتيح الفرصة لاستخدام الآلات والوسائل العلمية الحديثة بضمان مساحة واسعة لزراعة محصول واحد .

وفي السنوات الأولى للتجربة ، تحققت نتائج إيجابية ملحوظة انعكست في شكل زيادة الانتاج ، إلا أنه وبعد تعميمه واجه صغار الحائزين مشاكل عديدة في التطبيق ، مما جعلهم في النهاية يقاومون تنفيذ الدورة الزراعية بالرغم من العقوبات التى ينص عليها القانون^(٥٧) .

فالحائز الصغير الذى كانت تقع أرضه هذا العام في الحوض المخصص لزراعة القطن يواجه بالطبع مشاكل جمة في الحصول على غذاء عائلته وغذاء ماشيته ، مما يضطره لشراء هذه المنتجات التى لا تتوافر سوى لدى كبار الملاك وأغنياء الفلاحين حيث تتوزع حيازة أغلبهم بين الأحواض الثلاثة وقد أدى ذلك في واقع الأمر إلى خلق سوق سوداء في القرية وزيادة تبعية الفلاح الصغير لأغنياء الفلاحين وكبار الملاك^(٦٨) .

وقد حاول مخططو مشروع الدورة الزراعية البحث عن حل لهذه المشكلة بتقديم نظام « المهايأة » بمعنى أن يقوم فلاح تقع حيازته بالكامل في حوض القطن ، بالاتفاق مع فلاح آخر تقع حيازته بالكامل في حوض القمح بتبادل جزء من المساحة المنزرعة أو جزء من المحصول .

ومن الواضح أن هذا النظام لا يفيد صغار الحائزين كثيراً إذ لا تسمح لهم حيازتهم القزمية بأى شكل من أشكال « المهايأة » ، وإن كان قد أتاح فرصة أوسع لأصحاب الحيازات المتوسطة والكبيرة . وقد نتج عن ذلك الوضع أن ارتفعت أسعار السوق السوداء وخاصة المواد الغذائية وعلف الماشية ، كما ارتفعت أيضاً وبشكل ملحوظ قيمة الايجارات من الناحية الفعلية^(٦٩) .

وقد ارتاح المسؤولون عن السياسة الزراعية لهذا الحل الذى هو في الواقع لا يقدم حلاً حقيقياً للمشكلة ، وعوقب صغار الفلاحين الذين رفضوا تنفيذ الدورة أو خرجوا عن بعض قواعدنا بإنزال غرامات فادحة عليهم ، وصور هؤلاء على أنهم يقفون ضد تطوير وزيادة الانتاج مع أنهم في واقع الأمر ، يعانون من البحث عن لقمة الخبز لأسرهم والعلف الأخضر لمواشيهم^(٧٠) .

واستخدم هؤلاء المسؤولون « تابو » الملكية ، وحق الملكية المقدس ، والطريق المصرى لبناء الاشتراكية في الزراعة ، كأسلحة هجومية ضد كل من حاول أن يقدم حلولاً حقيقية وعلمية لمشاكل التفتيت^(٧١) .

ولقد دافع سيد مرعى المسؤول الأساسى عن السياسة الزراعية في الخمسينيات والتسعينيات عن القوانين التى وضعها وهاجم بعنف الاقتراحات التى قدمت لحل مشكلة التفتيت من خلال تطوير الأشكال التعاونية إلى تنظيمات تعاونية إنتاجية واتهم المنادين بذلك بأنهم يروجون لحلول شيوعية غير قابلة للتطبيق في مصر .

وقد وصف سيد مرعى مشكلة التفتيت بأنها مشكلة معقدة لا يمكن التخلص منها ، لأنه لا يوجد هناك حل مباشر لها (٧٢) .

وتؤكد الأبحاث والدراسات في هذا الميدان ، أن مشكلة التفتيت لم تبقى على حالها السابق بعد قوانين الإصلاح الزراعى بل إنها زادت في تعقيداتها ، ولم يقدم أى حل حقيقى لها ، وواصلت آثارها السلبية الخطيرة على الانتاج وعلاقاته وأدواته . ويمكن أن نجعل أهم هذه النتائج فى :

● فقدان ما بين ٢٠ إلى ٢٥ ٪ من المساحة الكلية للأرض المزروعة فى القنوات والجسور والبتون التى تفصل بين ملكية وأخرى .

● العجز فى تخطيط نظام محصولى فعال .

● الحيلولة دون استخدام واسع للآلات والوسائل الزراعية المتقدمة .

● زيادة اعتماد الفلاحين الصغار على كبار الملاك وأغنياء الفلاحين .

تعطيل عملية الاستقطاب والبلورة الاجتماعية والطبقية بين الفلاحين وخلق حواجز منصنعة بين صغار الملاك والمستأجرين من ناحية والعمال الزراعيين المعدمين من ناحية أخرى . (٧٣) .

ميكنة العمل الزراعى :

لا تعنى ميكنة العمل الزراعى وتحديث الأساليب الزراعية مجرد زيادة ملموسة فى الانتاج ، بل إنها مشروع فى دفع علاقات الانتاج القائمة وتطويرها لصالح الغالبية العظمى من المنتجين الحقيقيين (٧٤) .

فبالإضافة إلى توفير الوقت والجهد وضمان زيادة الانتاج ، فهى فوق ذلك لها مفعولها المباشر على تطوير القوى العاملة فى الزراعة ، فاستخدام الآلات والوسائل العلمية تحطم فى طريقها أيضا « اسلوب ومنهج العمل الضيق المحدود » الذى ارتبط بالانتاج والمنتجين الزراعيين فترات تاريخية طويلة كما تؤدى الى زيادة التقارب فى نفس الوقت بين قطاعات القوى العاملة المختلفة فى الزراعة والصناعة (٧٥) .

فمجرد تخلف أساليب أدوات الانتاج فى الزراعة المصرية حتى سنة ١٩٥٢ كان انعكاسا للتخلف الشديد فى علاقات الانتاج القائمة ، ولما كانت قوانين الإصلاح الزراعى قد استهدفت تصفية علاقات الانتاج الاقطاعية وشبه الاقطاعية ، فقد كان من الضرورى العمل على تحديث أدوات ووسائل الانتاج ، وحرص النظام الجديد على تزويد تعاونيات الإصلاح الزراعى بالآلات الحديثة ، الجرارات وآلات الري فى الغالب ، وإقامة ورش الصيانة والإصلاح لهذه الآلات .

جدول
الآلات الزراعية المستخدمة في جمعيات الاصلاح الزراعى
(القديمة والحديثة)

المجموع الكلى	الجديدة	الموجودة أصلا	
٣٧٥	٢٥٥	١٢٠	الجرارات
١٣١٥	٦٩١	٦٢٤	آلات الرى
١٣١	٣٨	٩٣	آلات الحصاد
٤٤٨	٣٥٨	٩٠	آلات النقل
٣٢٦٩	١٢٤٢	٩٢٧	

المصدر : احصائيات وزارة الاصلاح الزراعى - القاهرة ١٩٦٤ ص ٧٤ - ٧٥

جدول
تطور وعدد الآلات المستخدمة في الزراعة
١٩٥٠ - ١٩٦٩

العدد ١٩٦٩	العدد ١٩٥٠	الآلة
٢٠٠٦٢	١٩٧٢	الجرارات
٣١٤٧٣	١٥١٧٠	آلات الرى
٣٢٦٣		آلات الحصاد
٢٨٨٣		آلات النقل

المصدر : محسوبة من احصائيات التعداد الزراعى الثالث والرابع ١٩٥٤ - ١٩٦٤

واتخذت خطوات أيضا لتوسيع استخدام الآلات الزراعية خارج إطار أراضى الاصلاح الزراعى وأصبح تزويد الفلاحين بالأدوات الزراعية الحديثة إحدى مهام الجمعيات التعاونية الائتمانية (٧١) . إلا أن أهم الجهود التى بذلت لتحديث الزراعة المصرية قد تم فى الأراضى المستصلحة والتى تقدر بحوالى ٩٣٨ ألف فدان . وقد كان هذا طبيعيا حيث أن هذه الأراضى الجديدة متحررة من بصمات الملكية التقليدية التى تحول دون استخدام المساحات الواسعة كما أن الدولة حرصت فى ذلك الوقت على إقامة مزارع دولة فى مساحات واسعة

من تلك الأراضى ، وقد قدمت هذه الأراضى قاعدة نموذجية لميكنة العمل الزراعى واستخدام الوسائل العلمية المتقدمة (٧٧) .

وفى الفترة من ١٩٥,٢ حتى ١٩٦٩ قفزت أعداد الآلات الزراعية المستخدمة فى الزراعة المصرية إلى الضعف .

الميكنة وعلاقات الانتاج :

إن زيادة الآلات الزراعية المستخدمة - قد أدى إلى خلق نواة كبيرة من الكوادر الزراعية المتخصصة فى هذه المجالات قدرت بحوالى ٧٨٠٠ من العاملين على الجرارات والآلات والميكانيكيين (٧٨) وبالرغم من الزيادة الملحوظة فى الآلات الزراعية ، إلا أنها ظلت أقل بكثير من المستوى المطلوب . لو بدأنا بميكنة العمل الحيوانى ، وهى المرحلة الأولى الضرورية ، فإن الباحثين يذهبون إلى أن كل مائة فدان تحتاج إلى قوة ميكانيكية تبلغ ٧٥ حصان . ولو حسبنا ذلك بالنسبة للزراعة المصرية فسنجد أن ٦٧,٥ ٪ من المساحة الزراعية التى تقع بين حيازات فدان إلى عشرين تعاني من نقص خطير فى قوة العمل ، حتى ولو حسبنا كل مصادر العمل من آلات وحيوانات (٧٩) . وتتضح الصورة جلية فى الجداول الآتية :

جدول

عدد الجرارات فى كل مائة هكتار فى عدد من

الدول

عدد الجرارات المتواجدة فى مائة هكتار

(مساحة محصولية)

جدول

المساحة التى يخدمها الجرار الواحد فى عدد من

الدول

٣٠	هولندا
١٠٠	الولايات المتحدة
٤٣٨	اليونان
٥٤٠	مصر
٧٨٠	أسبانيا

٠,٤٤	مصر
٢,١	ألمانيا الديمقراطية
٣,٥	بلجيكا
٤,٥	الدانمرك
٧,٢	انجلترا

المصدر : أكاديمية العلوم فى ألمانيا الديمقراطية - الكتاب

السنوى برلين ١٩٦٨

وتوضح الجداول أن الدفعة التى قامت بها الدولة لتحديث أدوات الانتاج فى الزراعة ظلت قاصرة إلى حد كبير ، الأمر الذى عطل عملية تطوير علاقات وقوى الانتاج ، ويرجع ذلك إلى عدد من الأسباب على رأسها التمسك بسياسة توسيع قاعدة الملكية الصغيرة ، ووجود ظاهرة المالك الغائب واتساع نظم الايجار ، فالملكية تتطلب عددا من الشروط حتى يكون استخدامها اقتصاديا وفعالا :

● مساحات واسعة من الأراضي ، والثابت أنه مع عدم توافر المساحات الواسعة ، فإن استخدام الآلات الزراعية يصبح غالى التكاليف وغير اقتصادى بالمرّة .

● توفير الكوادر والخبرات المتخصصة والقادرة على تشغيل وصيانة الآلات .

● إعادة تخطيط الانتاج الزراعى بما يخدم عملية التحديث والتكثيف ، مثل إقامة الطرق الحديثة والمخازن والورش ، ولو استثنينا مزارع الدولة ، فإنه يمكن التأكيد على أنه لم تكن هناك خطط حقيقية لنشر الميكنة ، ويتضح ذلك من حقيقة أن التعاونيات الزراعية تملك من الجرارات والآلات أقل بكثير مما تملكه بعض المزارع الخاصة^(٨٠) .

وفى إحصائية للجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء سنة ١٩٦٩ قدرت الآلات الزراعية العاملة فى الريف سواء فى الملكيات الخاصة أو فى التعاونيات على النحو التالى :

الآلة	ملكية خاصة	ملكية تعاونية
الجرارات	١٩١٠٥	٣٧٦٩٠
آلات الرى	٣٠٣١٨	١١٥٥
آلات الحصاد	٢٢٣٠	١١٣٣
آلات النقل	١٥٣٥	١٣٤٨

ومن الملاحظ أن كبار الملاك وأغنياء الفلاحين وممثليهم داخل مؤسسات النظام المختلفة كانوا يقفون دائما ضد فكرة التوسع فى الميكنة تحت دعوى أن هناك فائض عمالة فى الريف .

وبالرغم من أن هؤلاء يستخدمون أغلب الآلات المتواجدة ، إلا أنه يمكن فهم منطلقهم من زاوية أخرى ومعروفة جيدا فى الأوساط الرأسمالية : فوجود فائض فى العمالة الزراعية يعنى رخص هذه العمالة ، ويفضل الرأسماليون هذا الوضع ، لأنهم ينظرون إلى الأمر كله من زاوية تحقيق أعلى قدر من الربح بغض النظر عن تطوير الوسائل والأدوات الزراعية^(٨١) ، كما أن احتكارهم للآلات الموجودة يتيح لهم فرصة تأجيرها لصغار الفلاحين ومتوسطيهم بأسعار عالية ، كما يزيد من نفوذهم فى الجمعيات التعاونية ، وهو الأمر الذى تحقق واستطاعوا من خلاله أن يعطلوا تقريبا كل الآلات الزراعية التى تمتلكها هذه الجمعيات^(٨٢) .

وقد أعلن واحد من أهم ممثليهم والذى كان يحتل مركز رئيس مجلس إدارة المؤسسة التعاونية العامة أن استخدام التعاونيات للآلات الزراعية مسألة ليست مفيدة أو فعالة ، وفيها تبديد لأموال التعاونيات ، بالرغم من الحقيقة التى تقول إن الأموال التى أنفقتها التعاونيات الزراعية فى شراء الآلات الزراعية لم تتجاوز نسبة ٢,٥ ٪ من مجمل القروض التى حصلت عليها^(٨٣) .

ويعطى هذا الجدول التفصيلى صورة عن تطور استخدام الآلات من سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٦٥ من ناحية ، ويعكس توزيع هذه الآلات على فئات الحياة المختلفة ، من ناحية أخرى .

جدول
توزيع الآلات الزراعية وفقا للحيازة (١٩٥٠ - ١٩٦٥)

١٩٦٥		١٩٥٠		
النسبة	عدد الآلات	النسبة	عدد الآلات	حجم الحيازة
١٧	٥٠٣٩	٧	١٠٩٧	٥ أفدنة فأقل
٣٦	١٠٥٣٠	٢٨	٤٢١٤	٥ - ٢٠
٢٢	٦٦٣٢	٢١	٣١٢٥	٢٠ - ٥٠
١٢	٣٤٤٣	١٥	٢٢٨٤	٥٠ - ١٠٠
١٣	٣٧٤٢	٢٩	٤٤٥١	١٠٠ فأكثر

المصدر : محسوبة من التعداد الزراعى الثالث (١٩٥٢) والتعداد الزراعى الرابع (١٩٦٤) وبعض احصائيات وزارة الزراعة سنة ١٩٧٠

والخلاصة أن هناك جهودا ملموسة قد بذلت في مجال تطوير أدوات ووسائل الانتاج وتنظيمه سواء بالنسبة للايجارات أم التعاونيات الزراعية ، وفي مجالات الميكنة وتنظيم الدورة الزراعية . ولكن هذه الجهود والقوانين والتنظيمات ، فقدت الكثير من فاعليتها لعدة أسباب :

- عدم وجود حركة جماهيرية فلاحية منظمة .
- الاعتماد في الأساس على أجهزة الدولة في التنفيذ .

- أن القوانين نفسها بالرغم من توجيهاتها التقدمية ، كانت تنطلق من مفهوم دفع العلاقات الرأسمالية في الريف على حساب تصفية العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية ، وقد تحقق هذا بالفعل وبدرجة كبيرة .

هوامش

- ١ - د . دارينر - الاصلاح الزراعى والائتماء .. مرجع سابق - ص ٢٣
- ٢ - تقدر بعض المصادر مساحة الأراضى المؤجرة سنة ١٩٥٢ ب ٥٩ ٪ من المساحة الكلية للأراضى المزروعة .
النشرة الاقتصادية الزراعية .. وزارة الزراعة سنة ١٩٥١ .
بينما تقدر مصادر أخرى أن نسبة الأراضى المؤجرة قد قفزت من ١٧,٣ ٪ سنة ١٩٣٩ الى ٦٠,٧ ٪ سنة ١٩٥٤ .
سيد مرعى - الاصلاح الزراعى فى مصر ... مرجع سابق ص ٢٣ .
- ٣ - انظر ح . صعب - الاصلاح الزراعى المصرى ١٩٥٢ - ١٩٦٢ ، لندن ١٩٦٧ .
● محمد رياض الغنمى - التنظيمات الاقتصادية والميكانيكية للزراعة المصرية منذ ١٩٥٢ - منشورة فى كتاب « مصر منذ الثورة ف . ج فاننيكيوش - نيويورك ١٩٦٨ - ص ٦٩ .
- وقد قدر سيد مرعى البالغ المدفوعة فى إيجار الأراضى على النحو التالى (اذا اعتبرنا سنة الاساس ١٩٣٨) : (١٠٠) ١٩٤٦ (٢٦٩) - ١٩٥٠ (٤٧٢) .
- سيد مرعى - الاصلاح الزراعى .. مرجع سابق ص ٢٢٠ .
- ٤ - د . دارينر - الاصلاح الزراعى والائتماء .. مرجع سابق ص ٤١ . خليل سرى - الملكية الريفية الصغرى - القاهرة سنة ١٩٣٨ - ص ١٣٦ .
- ٥ - القانون رقم ٤٠٦ لسنة ١٩٥٢ المادة ٣٩ ، القانون رقم ٣١٥ لسنة ١٩٥٦ .
ويعنى التجنيب حق المالك فى تجنيب الأرض المؤجرة فى جانب من ممتلكاته ، وهذا يعنى أن تبقى الأرض المؤجرة خاضعة لإرادة المالك وخاصة فى مجال الرى والحصاد .
- ٦ - القانون رقم ١٢٧ لسنة ١٩٦١ ، والقانون رقم ٥٢ لسنة ١٩٦٠ .
- ٧ - القانون ١٩ لسنة ١٩٦٢ .
- ٨ - القانون ٥٢ لسنة ١٩٦٦ .
- ٩ - القانون ٥٢ لسنة ١٩٦٦ .
- ١٠ - القانون ٤٧٦ لسنة ١٩٥٢ ، القانون ١٧ لسنة ١٩٦٣ المادة ٢٥ ، القانون ٥٢ لسنة ١٩٦٦ .
- ١١ - عز الدين همام - الأثر الحقيقى للاصلاح الزراعى على توزيع الدخل . المعهد القومى للتخطيط - القاهرة - سبتمبر سنة ١٩٦٤ ص ١٩ .
- ١٢ - فى الفترة بين ١٩٥٠ - ١٩٦٠ انخفضت نسبة الأراضى المؤجرة للحيازات التى تزيد عن خمسين فداناً بنسبة ٨١,٥ ٪
أحمد حسن - الايجار والتعاونيات الزراعية فى مصر ، رسالة ماجستير - جامعة عين شمس - القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٠٩ .
- ١٣ - فى الاصلاح الزراعى فى اليابان وهو القائم على أسس رأسمالية : على ظاهرة المالك الغائب .
ر. ب. دور - الاصلاح الزراعى فى اليابان - لندن ١٩٥٩ ص ١٣١ .

- ١٤ - سيد مرعى - الإصلاح الزراعى .. مرجع سابق ص ١٦٤ .
- ١٥ - أجمعت غالبية الدراسات حول هذا الموضوع أن دخل المستأجر قد زاد بما قيمته ١٠ جنيهات عن كل فدان مقارنا بدخله قبل سنة ١٩٥٢ ، وتقدر هذه الدراسات الزيادة الاجمالية في دخل المستأجر بحوالى ٢٠ مليون جنيه .
- محمود عبد الفضيل - التنمية والدخول .. مرجع سابق . ص ٥٣ .
- ١٦ - تذهب تقديرات البعض أن النسبة العالية من الزيادة في دخل المستأجرين قد ذهبت في الأساس لكبار المستأجرين أو المستأجرين الرأسماليين (٥ - ٥٠ فداناً) .
- عادل غنيم - ملاحظات حول تطور العلاقات في الريف - مجلة الطبيعة - القاهرة - سبتمبر سنة ١٩٦٦ .
- ١٧ - تقرير اللجنة العليا لتصفية الاقطاع ، يعطى نماذج عملية كثيرة عن أساليب كبار الملاك في التهرب من القوانين وفرض شروطهم على صغار المستأجرين ، كأن يفرضوا عليهم أن يوقعوا على أوراق تثبت مديونيتهم للملاك ، أو حتى على بياض كنوع من التهديد .
- التقرير الكامل للجنة تصفية الاقطاع - مجلة الطبيعة - القاهرة سبتمبر ١٩٦٦ .
 - محمد رشاد - سرى للغاية - محاضر اللجنة العليا لتصفية الاقطاع القاهرة ١٩٧٨ ص ٢٩٢ - ٣١٠ .
- ١٨ - تقرير عن الوضع في قرية بنى هلال - محافظة الشرقية ، وقرية بسنديلة - محافظة الدقهلية .
- مجلة الطبيعة - القاهرة - سبتمبر ١٩٦٦ .
- دراسة في عشر قرى . جريدة الجمهورية ١٣ - ١٧ يونيو سنة ١٩٦٨ .
 - دراسة في بعض قرى الوجه القبلى (محافظتى أسيوط وبني سويف) قام بها المعهد العالى للدراسات الاشتراكية - القاهرة سنة ١٩٦٧ . (قاد المؤلف مجموعة البحث في العملية الأولية) .
- ١٩ - مجلة الطبيعة - سبتمبر سنة ١٩٦٦ ، مارس سنة ١٩٦٧ .
- ٢٠ - المادة العاشرة من القانون ١٦٨ لسنة ١٩٥٢ .
- ٢١ - قبل سنة ١٩٥٢ كان هناك ١٧٢٧ جمعية تعاونية زراعية تضم حوالى ٤٩٨ ألف عضو ، ورأسالها حوالى ٦٦٠ ألف جنيه . الكتاب السنوى - الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء - القاهرة سنة ١٩٧٣ .
- ٢٢ - تطورت الجمعيات التعاونية التابعة للإصلاح الزراعى من ٧٢ جمعية سنة ١٩٥٤ الى ٥٥٣ جمعية سنة ١٩٦٦ ، وقد أسست أول جمعية من هذا النوع في ٤ مارس سنة ١٩٥٤ .
- الإصلاح الزراعى واستصلاح الأراضى - وزارة الإصلاح الزراعى القاهرة سنة ١٩٦٤ ص ٨٤ .
- ٢٣ - قدرت الزيادة المائدة من تسويق القطن تعاونيا بحوالى ٢,٨ جنيه بالنسبة للقنطار ؛ المعروف أن الفدان ينتج حوالى خمسة قناطر (المرجع السابق - ص ٥٣) .
- ٢٤ - في سنة ١٩٦٥ كان هناك ٧ مراكز صيانة وإصلاح أساسية و٦ ورش إصلاح للألات . (للمرجع السابق ص ٦٠) .
- ٢٥ - دافع سيد مرعى الذى كان مسؤولا عن الإصلاح الزراعى عن اشراف الدولة على جمعيات الإصلاح الزراعى .
- سيد مرعى - الإصلاح الزراعى ومشاكل السكان - القاهرة سنة ١٩٧١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .
- ٢٧ - محمود عبد الفضيل - توزيع الدخل والتغيرات الاجتماعية في الريف المصرى .. مرجع سابق ص ٨٣ / ٨٤ .
- فتحى عبد الفتاح - التعاونيات الزراعية في مصر - مجلة مشاكل السلم والاشتراكية - براج - فبراير سنة ١٩٧٢ .
- ٢٧ - انشئ البنك الائتمالى الزراعى سنة ١٩٢١ برأس مال قدره مليون جنيه - وساهمت الحكومة بـ ٥٠ ٪ من رأس المال . وفي سنة ١٩٦٤ دخلت الجمعيات التعاونية الائتمانية كساحم في البنك وبلغ رأسماله ١٢,٩ مليون جنيه ، وكانت معظم خدماته تذهب لكبار الزراع .
- شارل عيسوى - مصر الثورة - لندن سنة ١٩٦٢ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .
 - فتحى عبد الفتاح - القرية المعاصرة - القاهرة سنة ١٩٧٣ ص ٥٠ - ٥٣ .
- ٢٨ - يؤكد الدكتور فؤاد مرسى أن معظم سلفيات البنك قد ذهبت الى الطبقات الرأسمالية التى استخدمها في شراء الآلات أو مزيد من الأرض .
- فؤاد مرسى - هذا الانفتاح الاقتصادى - القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٦ .
- ٢٩ - بلغت القروض الأخيرة والمتوسطة المدى حوالى ٢١ مليون جنيه ، ذهب ٧٥ ٪ منها أى حوالى ٢٥ مليون جنيه في شراء آلات ودفع أجور العمال .
- وزارة الزراعة - الاقتصاد الزراعى - القاهرة - يوليو ١٩٦٨ .

- ٣٠ - في نهاية سنة ١٩٦٧ خرجت أصوات من البرلمان تطالب بإلغاء نظام التسويق التعاوني للمحاصيل تحت حجة أن ذلك يحد من حرية الفلاح في بيع محاصيله .
فتحى عبد الفتاح - القرية المعاصرة .
مجلة الطليعة - القاهرة - سبتمبر ١٩٦٧ .
- ٣١ - كانت سياسة تحديد سعر تسويق القطن تعاونيا بحجة بالفلاح الصغير ، فقد كان سعر القطن المحدد سنة ١٩٦٧ ١٤,٥ جنيه مصرى في حين كان سعر تصديره ٢٠,٥ جنيه وقد أمكن تحصيل ٤٤ مليون جنيه من فروق السعر في الفترة من ١٩٦٠ - ١٩٦٧ .
المذكرة رقم ٩٣٣ - من مطبوعات المعهد القومى للتخطيط القاهرة - ١٩٦٩ .
روبرت ماريو ، الاقتصاد المصرى من ١٩٥٠ - ١٩٧٠ ، القاهرة ١٩٧٦ ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- ٣٢ - ارتفع عدد الجمعيات التعاونية الزراعية في الفترة من ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ من ١٧٢٧ جمعية الى ٥٠٣٥ جمعية ، وفي نفس الفترة زادت العضوية من ٤٩٨ ألف عضو الى ٢,١٤٠ مليون عضو كما زاد رأس المال من ٦٨١ ألف الى ٧,٤ مليون جنيه .
الكتاب السنوى - الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء - القاهرة ١٩٧٣ .
- ٣٣ - القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٥٦
٣٤ - جرت تغييرات على هذا القانون ، وأصبح تعريف الفلاح هو من يملك أقل من عشرة أفدنة (أغنياء الفلاحين) ، وجرم الفلاحون الذين لا يعرفون القراءة والكتابة من عضوية مجالس إدارات الجمعيات التعاونية .
- ٣٥ - يجب أن ندرك أنه في سنة ١٩٧٠ لم يكن هناك مجلس أعلى للجمعيات التعاونية ، وكانت تشرف عليه المؤسسة التعاونية وهى مؤسسة حكومية .
- ٣٦ - ثبت أن ٨٠ ٪ من القروض التى قدمتها الجمعيات التعاونية والمؤسسات الأخرى التى تقدم القروض قد ذهبت إلى أغنياء الفلاحين .
على صبرى - مشكلات التحول الاشتراكي - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٣٧ - أثبتت أبحاث كثيرة كيف أن المشرفين الزراعيين كانوا يعملون ضد مصالح فقراء الفلاحين وفي تعاون مع أغنياء وكبار المزارعين .
مجلة الطليعة القاهرة - سبتمبر سنة ١٩٦٦ .
جريدة الجمهورية - ١٣ - ١٦ يونيو ١٩٦٨ .
- ٣٨ - عبد الباسط عبد المعطى - الصراع الطبقي في القرية المصرية - القاهرة ١٩٧٨ .
- ٣٩ - فتحى عبد الفتاح - التعاونيات الزراعية في مصر - مجلة مشاكل السلم والاشتراكية براغ - سبتمبر ١٩٧٢ .
- ٤٠ - كتبت عدة مقالات سنة ١٩٦٨ اقترح فيها توحيد التعاونيات الزراعية وانتخاب . مجلس أعلا للتعاون بهدف تحويل التعاونيات الزراعية إلى أشكال إنتاجية ، وقد رد البعض على ذلك بأنها أفكار شيوعية محزية .
- ٤١ - جرت مناقشات كثيرة حول هذا الموضوع ، من أهمها ماكتبه محمد حسنين هيكل في الأهرام معبرا عن رأى عبد الناصر بتحويل هذه الأراضى إلى مزارع دولة . ورد سيد مرعى الذى كان يعمل نائبا لرئيس الوزراء فرفض هذه الفكرة وطالب بتوزيع الأراضى المستصلحة ، ووصف فكرة مزارع الدولة بأنها فكرة شيوعية تتنافى مع التطبيق الاشتراكي في الزراعة المصرية .
سيد مرعى - الأهرام العدد رقم ٢٨٥٧٦
- ٤٢ - ليس صدفة أن ينضم كل من رئيس الهيئة العامة للتعاونيات خلال الستينيات (محمود فوزى) وكذلك أمين الفلاحين (عبد الحميد غازى) لحزب الأحرار بعد الساج بتكوين الأحزاب في منتصف السبعينيات ، وهو حزب ليبرالى يمينى .
- ٤٣ - محمد رشاد - سرى للغاية «من ملفات اللجنة العليا لتصفية القطاع» القاهرة ١٩٧٧ .
- ٤٤ - على صبرى - مشكلة التطوير الاشتراكي .
- ٤٥ - خطاب جمال عبد الناصر دمنهور - ١٥ يونيو ١٩٦٦ .
- ٤٦ - محمد رشاد - سرى للغاية ص ٤٦ ، ٤٨ .
- ٤٧ - من الملاحظ أن كل أعضاء اللجنة (٢٣) كانوا ضباطا في الجيش أو البوليس (١٠ من الخابرات والباقي من المباحث العامة) .
محمد رشاد - سرى للغاية ص ٥٢ - ٨٠ .
- ٤٨ - أعطى ميثاق العمل الوطنى من الناحية النظرية أهمية واسعة للدور الذى يمكن أن تلعبه التعاونيات الزراعية لإعادة الحياة في الريف من جديد ، ولكن التطبيق جاء مختلفا في أحوال كثيرة .
- ٤٩ - قال أنجلز « إننا نقف بحزم إلى جانب الفلاح الصغير ، ويجب ألا نرغمه على دخول التعاونية الزراعية قبل أن يقتنع ، نشرح له الأمر ونترك

له حرية اتخاذ القرار . »

وقال لينين « إن التعاونية الزراعية هي الحل الوحيد ، فهي السبيل إلى التقليل من مخاطر توزيع الأرض قطعا صغيرة ، والتعاونيات هي الطريق لدعم القوى الفلاحية ضد الكولاك والطفيلين .»

ف . ا . لينين - التحالف بين العمال والفلاحين - طبعة موسكو سنة ١٩٦٦ ص ٢٩٧ ، ٢٩٩ .

٥٠ - جرينبرج : من المساعدة الفلاحية إلى الزراعة الاشتراكية .. ص ٥٧ .

٥١ - المرجع السابق .

٥٢ - فؤاد مرسى - هذا الافتتاح الاقتصادي ص ٢٢٩ - ٢٦٤ .

٥٣ - الشادوف والطمبور والمحراث والساقية ، ولكنها أدوات كانت تستخدم منذ أكثر من ألف عام .

٥٤ - تفاصيل أكثر في الفصل الأول .

٥٥ - في الفصل الأول مزيد من التفاصيل حول الموضوع .

٥٦ - القانون رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ الجزء الثالث مادة ٢٣ .

٥٧ - نلاحظ أن كبار الملاك استخدموا هذه النقطة « التفتيت » في المذكرة التي قدموها من خلال اضرائهم ضد توزيع الأراضي : متجاهلين أنهم تاريخيا المسؤولون من تلك الظاهرة .

٥٨ - سعد هجرس ؛ الاصلاح الزراعي ، الفلسفة والتاريخ - القاهرة ١٩٧٠ - ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

سيد مرعى : الاصلاح الزراعي في مصر ص ١٨٣ .

٥٩ - القانون ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ ؛ المادة الرابعة .

٦٠ - القانون ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ ؛ المادة التاسعة .

٦١ - سيد مرعى - تفتيت الأراضي الزراعية في مصر - مطبوعات المعهد العالي للدراسات الاشتراكية .

٦٢ - محمود عبد الرؤوف - التخطيط الزراعي في مصر - مطبوعات المعهد القومي للتخطيط يونيو ١٩٧٣ - ص ٢٥ ، ٢٦ .

عبد الفتاح فرج - التخطيط في القرية - مطبوعات المعهد القومي للتخطيط - القاهرة ١٩٧٢ .

٦٣ - جمعت هذه الاحصائية من مصادر مختلفة ، منها مطبوعات المعهد القومي للتخطيط والاحصاء الزراعي الرابع ، والجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء .

٦٤ - سيد مرعى - تفتيت الأراضي الزراعية في مصر - ص ٥ ، ٦ .

٦٥ - طبقت في البداية سنة ١٩٦٠ في مائة قرية ثم عمت في جميع القرى بعد خمس سنوات .

٦٦ - قرر محمود فوزى رئيس المؤسسة التعاونية أن الأجهزة الانبارية لعبت دوراً كبيراً في تطبيق تجربة نواج .

أحمد حسن - دراسة ميدانية عن الندوة الزراعية - مطبوعات المعهد القومي للتخطيط - ١٩٧٠ .

٦٧ - أحمد حسن - المرجع السابق / ص ٢٣ .

٦٨ - د . جلال رجب ، وأحمد حرب ، عقبات في طريق التطور الزراعي ، مجلة الطليعة - سبتمبر سنة ١٩٧٠ .

٦٩ - دراسة لقسم الابحاث في جريدة الجمهورية - ١٢ يونيو سنة ١٩٦٨ .

- تقرير عن قرية بسنديلة - مجلة الطليعة - سبتمبر سنة ١٩٦٦ .

٧٠ - ندوة عن التعاونيات الزراعية - جريدة الجمهورية - مارس سنة ١٩٦٨ .

فتحى عبد الفتاح - القرية المعاصرة بين الاصلاح والثورة ، ص ٧٠ ، ٧٢ .

٧١ - ابراهيم العيسوى - نقد للاستراتيجية الرأسمالية في الزراعة ، مطبوعات المعهد القومي للتخطيط - القاهرة سنة ١٩٧٣ .

٧٢ - سيد مرعى - التفتيت في الأراضي الزراعية المصرية ص ١١

٧٣ - مشاكل في طريق التطور الزراعي - الطليعة - سبتمبر سنة ١٩٧٠ .

L. Lends carge – D. Alexander

The a gricuetural Potentials of the middle east New York 1971 – S. 243

٧٤ - عمرو محي الدين وآخرون - ندوة عن ميكنة الزراعة المصرية مجلة مصر المعاصرة - القاهرة - يناير سنة ١٩٦٨ .

محمود عبد الرؤوف - اقتصاديات الميكنة الزراعية ، مطبوعات المعهد القومي للتخطيط - القاهرة يونيو سنة ١٩٧٣ .

٧٥ - قروض التعاونيات الزراعية - نشرة بنك التسليف التعاونى - القاهرة سنة ١٩٦٤

- ٧٦ - فتحى عبد الفتاح - القرية المعاصرة بين الاصلاح والثورة - القاهرة سنة ١٩٧٤ .
- ٧٧ - جريدة الجمهورية - ندوة حول مستقبل الأراضى الجديدة - ١٣٢٦ فبراير سنة ١٩٦٩ .
- سيد مرعى - ست مقالات فى جريدة الأهرام - ابتداء من العدد ٢٨٥٧٦ إلى ٢٨٥٨٠ .
- ٧٨ - محمود عبد الرؤوف - اقتصاديات الميكنة الزراعية ص ١٩ .
- ٧٩ - محمود عبد الرؤوف - المرجع السابق ص ٢١ . ٢٢ .
- ٨٠ - وزارة الزراعة - تقرير عن الميكنة الزراعية - القاهرة - ١٩٥٩ .
- ندوة عن ميكنة الزراعة المصرية - مجلة مصر المعاصرة - يناير سنة ١٩٦٨ .
- ٨١ - مكرونا - التطور الاقتصادى فى المجتمع الاشتراكى - موسكو ص ٨٤ .
- ٨٢ - محمد رشاد - سرى للغاية - ص ١٢٠ .
- قسم الأبحاث بجريدة الجمهورية - دراسة ميدانية فى عشر قرى مصرية ١٣ يونيو سنة ١٩٦٨ .
- ٨٣ - محمود فوزى - التعاونيات وتطور الادارة المحلية - وزارة الادارة المحلية - القاهرة سنة ١٩٦٩ .
- ٨٤ - أورد الدكتور فؤاد مرسى فى كتابه « هذا الانفتاح الاقتصادى » إحصائية عن توزيع الملكية فى الفترة من ١٩٦٥ - ١٩٧٣ مأخوذة عن نشرة للجهاز المركزى للأسعار ، وهى توضح أن من يملكون حصة أفدنة فأقل انخفضت نسبتهم من ٩٤ ٪ من الملاك سنة ١٩٦٥ إلى ٨٥ ٪ كما انخفضت ملكياتهم من ٥٧ ٪ إلى ٢٦ ٪ من الأراضى الزراعية ، أما من يملكون من ٥ - ١٠ أفدنة فقد زادت ملكيتهم من ٩,٥ ٪ إلى ١١ ٪ ، أما من يملكون أكثر من ١٠ أفدنة فقد ازدادت نسبتهم من ٢ ٪ إلى ٦ ٪ ، وزادت ملكياتهم من ٢٢,٤ ٪ إلى ٦٢,٧ ٪ .

الفصل الرابع

تطور القوى العاملة في الزراعة وتوزيع الدخل

قبل الدخول في القضية الرئيسية لهذه الدراسة والخاصة بالطبقات في الريف ، لابد من عرض قضيتين تحتلان أهمية خاصة :

أولا - تطور القوى العاملة في الريف في الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٧٠ من خلال تطور القوى العاملة المصرية بشكل عام ، وتدخل في هذا الاطار السمات الخاصة لهذا التطور ، توزيع القوى العاملة الزراعية وفقا لحجم الحيازات وحجم القوى العاملة العائلية والقوى المأجورة ، البطالة الزراعية السافرة أو المقنعة ، هجرة القوى العاملة من الريف الى المدينة وعوامل الطرد والجذب .

ثانيا - تطور الدخل الزراعى ونصيبه في الدخل العام ، مساهمة الزراعة في الاقتصاد القومى بشكل عام ، ثم توزيع هذا الدخل بين الطبقات والفئات المختلفة العاملة في الزراعة ، الأمر الذى يسهل كثيرا توصيف هذه الطبقات والفئات على أسس اقتصادية واجتماعية واضحة .

حجم وتطور القوى العاملة الزراعية

من الحقائق الشائعة أن حجم ونسبة القوى العاملة الزراعية في بلد ما يمكن أن يحدد الفرق بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة ، وتستند هذه الفكرة على أساس توصيف المجتمعات المتخلفة أو النامية بأنها تلك التى تزيد فيها نسبة القوى العاملة الزراعية عن ٥٠ ٪ من القوى العاملة بشكل عام (الصناعة - التجارة - الإنشاءات - الخدمات .. الخ)^(١)

وإذا كنا نتفق بشكل عام على هذه المقولة فإننا نتحفظ بضرورة أن نضع في الاعتبار الظروف المحددة في مجتمعات معينة وسماتها الخاصة .

وترتبط بهذه الحقيقة ، حقيقة أخرى هى أنه كلما زاد حجم القوى العاملة في القطاعات غير الزراعية وخاصة الصناعة كلما أدى ذلك ليس فقط الى انخفاض نسبة العاملين في الزراعة بل وأن يصبح القطاع الصناعى هو العامل الديناميكي في تطوير المجتمع ومؤسساته الإنتاجية بما في ذلك الزراعة^(٢) .

وفي البنين الاقتصادى المصرى كان واضحا منذ ثلاثينيات هذا القرن سيادة القطاع الزراعى ، فبين كل عشرة من العاملين كان هناك سبعة يعملون في الزراعة^(٣) .

وفي نفس الوقت كانت مؤشرات تطور السكان في الفترة من ١٩٣٧ - ١٩٦٦ توضح انخفاضاً نسبياً في سكان الريف لحساب السكان في المدن .

جدول
تطور السكان في الريف والمدن في مصر^(٤)
١٩٣٧ - ١٩٦٦

عدد السكان «بالألف»	١٩٣٧	١٩٤٣	١٩٦٠	١٩٦٦
سكان الريف	١١٤٨٤	١٢٧٠٤	١٦١٣٠	١٧٨٧٣
سكان المدن	٤٤٣٦	٦٣٦٢	٩٨٦٤	١٢١٨٣
مجموع السكان	١٥٩٢٠	١٨٩٦٦	٢٥٩٨٤	٣٠٠٥٤
نسبة سكان الريف الى السكان عامة	% ٧٢,١	% ٦٧	% ٦٢	% ٥٩,٤

المصدر : الكتاب السنوي الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء (١٩٦٦)

وإذا أضفنا الى ذلك صورة لتطور القوى العاملة وتوزيعها بين القطاعات المختلفة وخاصة بعد سنة ١٩٥٢ فسنجد هناك عددا من المؤشرات الواضحة (انظر الجدول) .

جدول
توزيع القوى العاملة على القطاعات المختلفة
١٩٤٧ - ١٩٧٠ « بالألف »

القطاع	١٩٤٧	%	١٩٦٠	%	١٩٦٥	%	١٩٧٠	%
الزراعة	٤٠٨٦	% ٦١,٧	٣٦٠٠	% ٥٦,٨	٣٧٨٠	% ٥١,٥	٤٠١٢	% ٥٠,١
الصناعة	٧١٠	% ١٠,٧	٨٠٤	% ٩,٦	٨٢٥	% ١١,٢	٩٢١,٦	% ١١,٥
الخدمات	٢١٩٩	% ٢٧,٨	٢١٠٧	% ٣٣,٦	٢٧٢٨,٤	% ٣١,٣	٣٠٤٠,٦	% ٣٨,٤
المجموع	٦٩٩٥	% ١٠٠	٦٥١١	% ١٠٠	٧٣٣٣,٤	% ١٠٠	٨٠٠٤,١	% ١٠٠

المصدر : الكتاب السنوي للجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء

القاهرة - يونيو ١٩٧٠ - السكان ، العمالة الانتاجية - المعهد القومى للتخطيط القاهرة - ديسمبر سنة ١٩٧٤

● تراجعت نسبة العاملين في الزراعة من ٦١,٧ % سنة ١٩٤٧ الى ٥١,١ % سنة ١٩٧٠ وبالرغم من هذا التطور ، فإن القطاع الزراعى ظل هو القطاع الرئيسى في الاقتصاد حيث يعمل فيه أكثر من نصف القوى العاملة . ويتضح من تطور الصناعة أنه بالرغم من زيادة نسبة العاملين فيها إلا أنها ليست في الوضع الذى يمكنها من استيعاب الفائض من القوى العاملة الزراعية ، فلقد زادت نسبة العاملين في الصناعة في هذه الفترة بنسبة ٦ % ، في حين زادت بشكل ملحوظ نسبة مايسمى « بالقطاع الثالث » أى قطاع الخدمات^(٥) .

● إن التغيرات التي طرأت على توزيع القوى العاملة في تلك الفترة والارتفاع الشديد في نسبة العاملين في الخدمات لا يعكس ملامح صحية تماما ، والتفسير المنطقي لتلك الزيادة الكبيرة في العمالة في قطاع الخدمات هو أنها جاءت نتيجة سياسة الحكومة في الستينيات سواء في التوسع في الانشاءات والمشروعات الكبيرة أو في الالتزام بتعيين خريجي الجامعات والمعاهد الفنية .

ولا يمكننا أن نتجاهل حقيقة أن الارتفاع في نسبة قطاع الخدمات هو أمر غير مفيد من الناحية الاقتصادية ويحمل معه أضرارا في بعض النشاطات التي يمارسها .

ويذهب الباحثون الى أن من الأسباب الرئيسية لتضخم قطاع الخدمات في الدول النامية ، ومصر منها ، هو وجود أعداد كبيرة ممن يطلق عليهم « ذوى الأعمال الحرة » من أمثال الحرفيين أو الباعة المتجولين ، والخدم ومنادى السيارات .. وغيرهم من أصحاب الحرف الهامشية والذين تقدر نسبتهم من القوى العاملة في مصر بحوالى ٢١٪^(٦)

وقبل الدخول في تحليلات حقيقية لتوزيع القوى العاملة في مصر ، فإنه من الضروري رصد ظاهرة هجرة العمالة من الريف الى المدينة والآثار المترتبة عليها .

الهجرة الى المدينة وعوامل الجذب

تعتبر هجرة القوى العاملة من الريف الى المدينة إحدى السمات المميزة لدول العالم النامي وخاصة في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وقد أوضحت الإحصائيات أن الهروب من الريف (نحو المدينة) أصبح اتجاها عاما في كل دول آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية^(٧) ، وذلك تطور طبيعي في تلك البلدان .

فالهجرة من الريف الى المدينة بحثا عن العمل والرزق ، وحيث تتوفر ظروف خدمات أفضل مثل التعليم والصحة ، كانت تحدث في مصر بشكل واضح ، وازدادت في الخمسينيات والستينيات وخاصة بعد القيام بمشروعات صناعية كبيرة والتوسع في المرافق والخدمات ، وقد بان هذا الاتجاه واضحا في أعقاب الحرب العالمية الثانية (انظر الجدول)

جدول تطور سكان الحضر والريف في مصر

(١٩٢٧ - ١٩٧٠)

السنة	تعداد السكان	سكان الريف	%	سكان المدن	%
١٩٢٧	١٤,٠٨٣	١٠,٣٦٧	% ٧٤	٣,٧١٦	% ٢٦
١٩٣٧	١٥,٨١١	١١,٤٢٩	% ٧٢	٤,٣٨٢	% ٢٨
١٩٤٧	١٨,٨٠٥	١٢,٠٦٠	% ٦٧	٦,٣٠٢	% ٣٣
١٩٦٠	٢٥,٧٧١	١٦,١٢٠	% ٦٣	٩,٦٥١	% ٣٧
١٩٧٠	٣٣,٣٢٩	١٩,٣٣١	% ٥٨	١٣,٩٩٨	% ٤٢

المصدر : تطور السكان في مصر - الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء - القاهرة ١٩٧٠

ولقد أخذت الهجرة في مصر اتجاهين :

اتجاه الهجرة من الصعيد الى وجه بحرى بشكل عام .

واتجاه الهجرة من المحافظات الريفية نحو المدن الكبرى والقاهرة والاسكندرية بشكل خاص^(٨) انظر

الجدول :

جدول

الهجرة من وإلى المحافظات المختلفة

(١٩٦٠ - ١٩٦٥) التعداد بالآلاف

القاهرة	٢٧٤	+	الغربية	٤٥	—
الاسكندرية	٧٢	+	المنوفية	٧٤	—
بورسعيد	٨	+	البحيرة	١٣	—
الاسماعيلية	١٢	+	الجيزة	٤٦	+
السويس	١٢	+	بنى سويف	٥٤	—
الدقهلية	٢	—	الفيوم	٢٢	—
الشرقية	٢٠	—	المنيا	٧٢	—
القليوبية	٦	—	أسيوط	١١	—
كفر الشيخ	٢٧	—	سوهاج	٢٨	—
قنا	٦٠	—	أسوان	١٩	+

المصدر : تطور السكان في مصر - الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء

ويوضح هذا الجدول اتجاهات الهجرة . فهناك سبع محافظات فقط ، وكلها مراكز حديثة ، هي التي ازدادت فيها القوى العاملة ، أى أنها كانت مراكز جذب وهى القاهرة والاسكندرية والجيزة وأسوان والسويس والاسماعيلية وبورسعيد . بينما فقدت بقية المحافظات ذات الطابع الريفى نسبة واسعة من القوى العاملة المهاجرة . بل إنه بتحليل مفصل للهجرة داخل كل محافظة ريفية على حدة نجد هناك هجرة داخلية أيضا من القرى الى المدن الكبيرة والصغيرة داخل المحافظة نفسها .

ولهذه الهجرة من الريف الى المدينة عوامل كثير يرتبط بعضها بظروف القوى العاملة في الزراعة والبعض الآخر بالطموحات والآمال التي تقدمها المدينة وترتبط بها . فعوامل الطرد تتمثل أساسا في النقص الشديد في الأرض الزراعية والأعداد الكبيرة من المعدمين ، وأيضا الحائزين القزميين الذين لا توفر لهم ممتلكاتهم الصغيرة هم وعائلاتهم ضروريات الحياة .

وبالإضافة الى ذلك هناك دوافع أخرى منها مثلا الهجرة طلبا للعلم أو للعمل . وفي دراسة أجراها المركز القومى للبحوث الاجتماعية^(٩) نجد أن : ٥٠ ٪ من المهاجرين الى المدن الكبرى كان دافعهم البحث عن

عمل ، ١٨ ٪ بسبب تغيير مواقع عملهم ، ١٨ ٪ بسبب الزواج ، ٢,٥ ٪ طلبا للعلم ، ٢,٥ ٪ بسبب كوارث غير محددة وحوالى ١٠ ٪ لم يكن هناك دوافع محددة^(١٠) .

وترتبط الهجرة فى الأساس بالوضع الاقتصادى للمهاجرين ، وغالبيتهم من الفلاحين المعدمين أو الذين يحوزون مساحات قزمية .

وهناك عوامل أخرى للهجرة تختلف من مدينة الى أخرى ، وبشكل عام تقدم المدينة نموذجا أفضل للتقدم وحياة أسهل بالنسبة للمهاجرين ، ونذكر هنا على سبيل المثال توافر العلاج الطبى نسبيا وإمكانيات التعليم والعمل المتوافرة بشكل أفضل .

ومن الناحية التاريخية أدت المركزية وكذلك عمليات الاحتلال الأجنبى المتعاقبة لحقبة تاريخية طويلة الى أن تتحول المدينة المصرية إلى مركز إدارى فى الأساس ، وتميزت بذلك عن نشأة وتطور غالبية المدن الأوروبية كمراكز تجارية . فلقد كانت المدينة المصرية هى مركز الحاكم أو من ينوب عنه ، وبالتالي استحوذت على الجانب الأكبر من الخدمات والمزايا التى جعلتها أملا جاذبا لقطاعات واسعة من السكان وخاصة الفلاحين المقهورين وعائلاتهم^(١١) .

أما فى الخمسينيات والستينيات فقد كانت هناك عوامل جذب أخرى :

● بالنسبة لمدن كأسوان والسويس وحلوان وكفر الدوار والاسكندرية ، تعود عوامل الجذب الى التطور الصناعى فى هذه المدن . لقد أدى بناء السد العالى وعدد من مشروعات الصناعة الثقيلة فى أسوان الى تصاعد سريع فى عدد السكان فيها ، والتى كانت حتى أوائل الخمسينيات مجرد قرية كبيرة . وقد حدث نفس الشيء بالنسبة للسويس والمدن الأخرى التى ذكرناها والتى أقيم فيها فى تلك الفترة عدد من المشروعات الصناعية^(١٢) .

● ومثلا فى القاهرة ، أدى الازدهار الصناعى النسبى الى إتاحة حوالى ٣٥٠ ألف فرصة عمل جديدة فى الفترة من ١٩٥٢ حتى ١٩٦٤ بينما كان السكان يتزايدون كل ثلاث سنوات بنفس هذا الحجم .

ويتضح من ذلك أن عوامل الطرد من الريف كانت أكبر من عوامل الجذب فى المدينة ، الأمر الذى جعل إمكانية المدينة فى استيعاب المهاجرين محدودة . وقد نتج عن ذلك أن غالبية الشرائح المهاجرة للمدن ظلت بدون عمل أو انشغلت فى أعمال جانبية وطفيلية وأحيانا قدرة . وأقام هؤلاء فى أحياء وعشش فى ظل أوضاع وظروف قاسية للغاية ، الأمر الذى نراه بوضوح فى تلك الأحياء الفقيرة فى القاهرة والاسكندرية .

البطالة كعامل مؤثر فى الهجرة من الريف

للبطالة فى الريف أشكال مختلفة ، فهناك البطالة الكاملة ، وهناك البطالة الموسمية ثم هناك أيضا البطالة المقنعة . ولقد أدى هذا الى صعوبة الوصول الى صورة محددة عن البطالة فى الريف . وقد ذهب عدد من الباحثين الى التقليل بدرجة كبيرة من نسبة البطالة الزراعية . وقد قدرت إحدى هذه الدراسات تلك البطالة بما لايزيد عن ٢,٥ ٪ من القوى العاملة (أى حوالى ١٧٥ ألف عاطل)^(١٣) . وذهبت الى اعتبار هذه النسبة مسألة طبيعية فى النشاط الزراعى الانتاجى وقد قامت على بحث أجراه المعهد القومى للتخطيط

بالاشتراك مع منظمة العمل الدولية سنة ١٩٦٤ ، وأشارت في تفصيلاتها أنه في شهور الذروة في الزراعة (الإعداد - تنقية الدودة - الحصاد) لا توجد بطالة على الإطلاق ، ولكنها توجد فقط في الشهور الأخرى وبشكل محدود . (١٥)

وهناك تحفظات كثيرة على هذه التقديرات . فالواضح من النظرة الأولى أن الدراسة لم تضع في اعتبارها البطالة المقنعة ، أي أن يقوم عدد كبير بعمل لا يحتاج في الواقع إلا عددا أقل بكثير . ومن ناحية أخرى فإن دراسات كثيرة قد ذهبت الى تقدير نسبة البطالة في العمل الزراعي بـ ٢٥% من مجموع القوى العاملة الزراعية ، وأن هذه النسبة أو الفائض من القوى العاملة موجود أيضا حتى في شهور عمل الذروة . (١٦)

ونعتقد أن الفروق الرئيسية في هذه الدراسات ترجع الى الخلط بين فائض العمالة البشرية في الريف والبطالة دون تحديد علمي لحجم كل منها ، ويعود ذلك الى الافتقار الشديد لإحصائيات دقيقة ، كما يعتقد من ذلك أيضا طبيعة الإنتاج الزراعي وحجم العمل العائلي الذي يصعب تحديده .

ومع ذلك فقد بذلنا بعض المحاولات معتمدين على أسس معقولة لتحديد حجم البطالة في الريف .

وقد قدرت إحدى الدراسات عدد العائلات المقيمة في الريف كالآتي : (١٧)

١٩٦١ -	٩٧٠,٠٠٠	ألف عائلة وبنسبة ٣٠ % من العائلات العاملة
١٩٦٥ -	٩٢٥,٠٠٠	ألف عائلة وبنسبة ٢٨ %
١٩٧٠ -	١,٢٧١	مليون عائلة وبنسبة ٣٣ %

ويقدر متوسط العائلة الريفية بخمسة أشخاص . وهذا لا يعني أن كل أفراد العائلات المقيمة لا تعمل ، فبالأكيد هناك من يجد عملا دائما أو موسميا .

فإذا عرفنا أن ٤٠ % من أفراد هذه العائلات المقيمة من الأطفال تحت سن ١٢ سنة فإنه لا يمكن حسابهم ضمن القوى العاملة (١٨) تصبح الإحصائية كالتالي ح

١٩٦١ -	٥٨٢,٠٠٠	عائلة أي	٢,٩١٠	مليون شخص عامل
١٩٦٥ -	٥٤٥,٠٠٠	عائلة أي	٢,٧٢٥	مليون شخص عامل
١٩٧٠ -	٧٦٦,٠٠٠	عائلة أي	٣,٨٤٠	مليون شخص عامل

فإذا خصمنا من هذه الأعداد التقديرات الخاصة بالقوى العاملة بالفعل في الزراعة سواء عمل دائم أم موسمي ، يمكن أن نحصل على صورة تقريبية للبطالة في الريف .

وتقدر القوى العاملة بالفعل في الزراعة في السنوات المذكورة كالآتي :

١٩٦١ - ٢,٤٥٨ مليون ، فإذا طرحنا هذا الرقم من التقديرات الاجالية ، لعدد من هم في سن العمل في الريف في ذلك الوقت ، يبقى لدينا ٥٠٠ ألف شخص هم من يمكن أن نعدم في إطار البطالة الدائمة .

ووفقا لهذا المنهج فإن البطالة الدائمة في الريف تقدر بـ ١٦ % من مجموع القوى العاملة في الريف سنة ١٩٦٠ ، ١٤ % سنة ١٩٦٥ ، ٣٠ % سنة ١٩٧٠ .

أما بالنسبة لفائض العمالة ، أى الذين يعملون بالفعل ولكنهم يعتبرون من الناحية الإنتاجية أكثر مما يحتاجه العمل (العمالة الكاذبة) ، فهناك دراسة قام بها أحد أساتذة جامعة الاسكندرية ، حاولت تحديد حجم هذا الفائض من خلال حصر الاحتياجات الحقيقية للإنتاج الزراعى مقدرا بساعات العمل فى سنوات محددة .

وتوصلت هذه الدراسة إلى أنه فى سنة ١٩٦١ كانت احتياجات العمل الحقيقى تتطلب ٢,٥ مليون عامل فى حين كان عدد الذين يعملون فى الزراعة ٤,٣ مليون (سواء عمال أو ملاك يعملون فى أرضهم) .

ووفقا لذلك يصبح هناك ١,٨ مليون يعتبرون كفائض عمالة أو عمالة كاذبة ، يمكن الاستغناء عنهم دون أن يتأثر الإنتاج .

وأكدت دراسات لاحقة صدق هذه الدراسة وما أسفرت عنه ، وخاصة دراسة قام بها المعهد القومى للتخطيط بالتعاون مع منظمة العمل الدولية^(٢٠) .

ولاشك أن وجود فائض عمالة بهذا القدر لايعنى فقط سوء توزيع شديد للقوى العاملة ، بل إنه يؤثر بشكل سلبى خطير على الانتاج الزراعى والدخل الزراعى معا .^(٢١)

وحتى نهاية الستينيات كانت هذه المشكلة تمثل عبئا حقيقيا ليس فقط بالنسبة للإنتاج الزراعى بل وبالنسبة للإنتاج القومى بشكل عام .

وقد لعبت عوامل عدة دوراً فى ذلك ، منها تخلف أساليب ووسائل الإنتاج ، كما أدت الى استمرار الجمود النسبى فى علاقات الانتاج^(٢٢) .

توزيع القوى العاملة الزراعية

جدول توزيع القوى العاملة الزراعية وفقا لحجم الملكية

حجم الملكية	عدد الحائزين الذين يعملون فى أرضهم	القوى العاملة التى لاتأخذ أجر	العمالة المأجورة الدائمة	العمالة المؤقتة
أقل من فدانين	٨١٠ ألف - ٥٠%	٨٤٤ ألف ٢٣%	٥٢ ألف ٨%	٢٣١ ألف ٨٢%
٢ - ٥	٥٤٧ ألف ٣٤%	١٠٥ ألف ٤٢%	٢١٧ ألف ٣٦%	٥٤٩ ألف ٣٥%
٥ - ٢٠	٢٢٢ ألف ١٤%	٥٦٤ ألف ٢٢%	٢١٧ ألف ٣٦%	٥٤٩ ألف ٣٠%
أكثر من ٢٠	٢٣ ألف - ٢%	٨٩ ألف ٣%	٢١٢ ألف ٣٥%	٤٦٨ ألف ٣٥%
المجموع	١٦١٢	٢٥٤٧	٦٠٨	١٨٥٠

المصدر : التعداد الزراعى الرابع - الجزء الأول - الباب الرابع ص ٢٠٧ - القاهرة ١٩٦١ .

في دراسة أجريت في أوائل السبعينيات حول تقسيم القوى العاملة الزراعية ، أكدت هذه الصورة :

- في الحيازات الزراعية الصغيرة والقزمية (أقل من فدانين) يعمل ٥٠ ٪ من مجموع القوى العاملة في الزراعة أي ٢,٥١٧ مليون شخص ، ١٩ ٪ (٥٠٠ ألف شخص) من العمالة الموسمية . وتبلغ نسبة العمالة العائلية ٨٥ ٪ ، أما بالنسبة للعمالة المأجورة فلا تتعدى ١٥ ٪ (٢٣) .

- في المزارع التي تقع بين ٥ إلى ٢٠ فدانا يعمل بها ٢٣,٤ ٪ من مجموع القوى العاملة الزراعية ، منها ٥٠ ٪ عمالة عائلية ، ٥٠ ٪ عمالة مأجورة .

- في المزارع التي تقع بين فدانين وخمسة أفدنة ، يعمل ١٩ ٪ (٩١٢,٠٠٧ ألف شخص) من مجموع القوى العاملة الزراعية ، منها ٢٠ ٪ عمالة موسمية ، وتبلغ العمالة العائلية ٦٥ ٪ والعمالة المأجورة ٣٥ ٪ .

- المزارع التي تزيد عن ٢٠ فدانا ، يعمل بها ١٢,١ ٪ من مجموع القوى العاملة الزراعية منها ٨٤,٩ ٪ عمالة مأجورة (٢٤) .

جدول

العمالة المأجورة في الزراعة وفقا لحجم الحيازة

حجم الحيازة	العمالة الدائمة	العمالة العائلية	العمالة المأجورة
٢ فدان فأقل	١,٧٠٦ مليون	٩١ ٪	٣ ٪
٢ - ٥	١,٧٢٤	٩٣ ٪	٧ ٪
٥ - ٢٠	١,٠٠٣	٧٤ ٪	٢٢ ٪
٢٠ فأكثر	٣٣٤	٣٥ ٪	٦٥ ٪
المجموع	٤٧٦١	٨٠ ٪	١٥ ٪

المصدر : مأخوذ من إحصائيات الإحصاء الزراعي الرابع الجزء الأول - - الفصل الرابع ص ٢٠٨ .

ويتضح من هذه الجداول :

- إنه كلما قل حجم الحيازة كلما زادت نسبة العمل العائلي ، وعلى العكس ، تزداد نسبة العمالة المأجورة مع زيادة حجم الحيازة .

- إن العمالة المأجورة تتركز في الحيازات الكبيرة والمتوسطة إذ تبلغ ٨٥ ٪ من مجموع القوى العاملة فيها ، بينما تستحوذ الحيازات التي تزيد عن ٢٠ فدانا على ثلثي العمالة المأجورة الدائمة .

- أما بالنسبة للعمالة الموسمية والمؤقتة ، نجد نسبتها عالية في الحيازات التي تقع بين خمسة فدادين وعشرين فدانا إذ تبلغ حوالي ٦٢,٥ ٪ من مجموع العمالة الموسمية ، وفي الحيازات التي تزيد عن ٢٠ فدانا تبلغ ٢٥ ٪ ، وتقل نسبة العمالة الموسمية في الحيازات الصغيرة لأقل من فدانين إذ تبلغ حوالي ١٢ ٪ .

الأمية كعامل اقتصادى

تعتبر الأمية مظهرا من مظاهر تخلف علاقات ووسائل الإنتاج ، وبقدز ماهى نتيجة لهذا التخلف ، بقدر ماتلعب دورا مساعدا فى الحفاظ على جمود هذه العلاقات . ولذلك يمكن اعتبارها عاملا من عوامل التمايز الطبقي والفئوى فى الريف باعتبار أن لها أبعادا اجتماعية واقتصادية .

ولقد أدت الفكرة الخاطئة فى اعتبار مشكلة الأمية مجرد مشكلة ثقافية ، إلى التقليل من خطورتها ، الأمر الذى انعكس فى الأساليب والوسائل المتراخية وغير الجادة فى بعض الأحيان لمواجهتها .

وإذا عرفنا أن نسبة الأمية تبلغ ٥٠,٥ ٪ من جميع القوى العاملة فى الزراعة والتى تقع فى سن الإنتاج بين ١٢ إلى ١٨ سنة ، فإننا نستطيع أن ندرك الدور السلبي الخطير الذى تلعبه بالنسبة للإنتاج الزراعى .^(٢٦) وبالرغم من الإجراءات التى اتخذت لمواجهة هذه المشكلة ، مثل جعل التعليم الأساسى إلزاميا (ست سنوات) ومجانيا ، إلا أن الأمية ظلت تحتل نوبا عالية بين القوى العاملة الريفية .

جدول

نسبة الأمية فى مصر

(الأعمار التى تزيد عن ١٠ سنوات)

السنة	الرجال	النساء	النسبة الكلية
١٩٣٧	٧٦ ٪	٩٤ ٪	٨٥ ٪
١٩٤١	٦٥ ٪	٨٤ ٪	٧٥ ٪
١٩٦٠	٥٦ ٪	٨٣ ٪	٧١ ٪
١٩٦٦	٥٢ ٪	٧٩ ٪	٦٥ ٪

المصدر : السكان والتنمية - من مطبوعات الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء - القاهرة يونيو سنة ١٩٧٢

وهناك إحصائيات تفصيلية توضح أن نسبة الأمية فى الريف أعلى منها فى المدن ، ٧٦,٧ ٪ فى مقابل ٥٦,٨ ٪^(٢٧) .

وقد توصلت الدراسات الجادة حول مشكلة الأمية فى مصر والريف بوجه خاص إلى عدة عوامل اجتماعية واقتصادية :

● عدم توافر المدارس الكفيلة باستيعاب كل من هم فى سن الإلزام (٦-١٢) . ووفقا لإحصائيات وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٦٣ أمكن استيعاب ٧١,٦ ٪ من الأطفال الذين بلغوا سن المدرسة الابتدائية ، وفى سنة ١٩٦٨ بلغت هذه النسبة ٧١,٩ ٪ ومعنى هذا أنه من البداية ، هناك حوالى ٣٠ ٪ ممن هم فى سن الإلزام لم تتح لهم الفرصة لدخول المدارس الابتدائية وهم بمثابة رصيد سنوى كبير للأمية^(٢٨) .

● وتتضح الصورة أكثر عندما ندخل فى تفاصيل حول هذه النسبة ، فبينما تبلغ نسبة الإلزام فى المدن الكبرى (القاهرة - الاسكندرية) حوالى ٩٥ ٪ ، تنخفض هذه النسبة بدرجة كبيرة فى الأقاليم وخاصة

المحافظات الزراعية . في البحيرة تبلغ نسبة الإلزام التي أمكن استيعابها ٦٦ ٪ وفي القليوبية ٥٢ ٪ وفي كفر الشيخ ٦١ ٪ ، وقد نتج ذلك عن سوء التوزيع التقليدي لميزانية التعليم ، فبينما استأثرت العاصمتان بنصيب الأسد ، قلت الميزانيات الموجودة للتعليم في المحافظات ، فالتلميذ في المدارس الابتدائية في محافظة القاهرة يكلف ١٣,٨ جنيها في العام بينما يتكلف زميله في محافظة الغربية أو المنيا حوالى ستة جنيهات فقط^(٢٩) .

● ثم هناك مشكلة التسرب خلال المرحلة الابتدائية ، فقد ثبت أن أعداداً كبيرة من التلاميذ يهجرون المدرسة في الفصل الأول أو الثانى أو الثالث ، وينضمون بذلك الى جيش الأمية الخطر .

وتقدر الإحصائيات الرسمية عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية في الفترة بين ١٩٥٦ - ١٩٦٧ بحوالى ٦,٦٥ مليون طفل ، تسرب منهم في السنة الدراسية الأولى ٣٢١ ألف ، أى بنسبة ٥ ٪ من المجموع ، وفي السنة الثانية تسرب ٧٢١ ألف ، أى ١١ ٪ من المجموع ، وحتى السنة السادسة تسرب ١,٣ مليون تلميذ أى بنسبة ١٩ ٪ .

ومعنى ذلك أن ٦٥ ٪ من التلاميذ الذين يدخلون المدرسة الابتدائية يهجرونها بعد عام أو عامين أو ثلاثة دون نحو حقيقى لأميتهم ، الأمر الذى الذى يزيد تعقيد المشكلة ويوضح أبعادها الخطرة .

● إنخفاض مستوى ونوعية التعليم ، الأمر الذى يساعد على الأمية ، حتى أنه ثبت في بعض الحالات أن التلاميذ الذين ينهون دراستهم الأساسية (حتى الفصل السادس) لا يجيدون القراءة والكتابة . ويقوم بالتدريس في المدارس الابتدائية ، مدرسون ليسوا على درجة عالية من الكفاءة ، بعضهم لم يحصل إلا على شهادة الابتدائية .

وحتى بالنسبة لفصول نحو الأمية المسائية ، فقد ثبت وجود خلل خطير جعلها أداة عاجزة ، وتقول الإحصائيات إنه في الفترة من ١٩٥٥ - ١٩٦٠ ، التحق بهذه الفصول حوالى ١٣ مليون شخص بالغ لم يحصل على شهادة نحو الأمية منهم سوى ٥٤٠ ألف ، أى بنسبة ٦ ٪ فقط^(٣٠)

إنها صورة مؤلة تعكس ولاشك خلا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا . فالظروف الاقتصادية الحادة التي يعيشها فقراء الفلاحين وعمال الزراعة تحرمهم من استفادة أطفالهم بفرص التعليم ، فهم يحتاجون لهم إما للعمل في حقولهم أو للعمل لدى الآخرين .

ولنفس الأسباب تتعثر الجهود المبذولة نحو أمية الكبار . فهؤلاء ليس لدى غالبيتهم وقت فراغ يعطونه للدراسة حيث يكونون مطالبين بالعمل اليومى الشاق بحثا عن لقمة العيش لهم ولأسرهم^(٣١) .

كما أن الأجهزة الإدارية العاملة في الريف والتي ترتبط ارتباطات عضوية بأغنياء الفلاحين ليست متحمسة للعمل على نحو أمية فقراء الفلاحين وعمال الزراعة .

ومن ناحية أخرى طالب ممثلوا أغنياء الفلاحين وكبار الملاك في البرلمان بحرمان الأميين من تولى أى مراكز قيادية في الجمعيات التعاونية وبحرمانهم من حق ترشيح أنفسهم للأجهزة التشريعية .

وهذا وقعت تلك الطبقات الكادحة بين شقى الرحى ، أجهزة غير حريصة على نحو أميتهم وظروف اقتصادية صعبة لا تتيح لهم « نعمة » التعليم ، ومطالبة في نفس الوقت بحرمانهم من حقوقهم السياسية .

وقد أدى ذلك الى عدة حقائق :

● إن الهدف المعلن في هذه الفترة بالقضاء على الأمية لم يتحقق من الناحية الفعلية وظلت الإنجازات محدودة للغاية في هذا المجال ، ومازالت نسبة الأمية عالية وخاصة بين عمال الزراعة وفقراء الفلاحين .

● إنه بالرغم من أن الأمية في حد ذاتها هي انعكاس للتخلف الشديد في علاقات الإنتاج القائمة ، إلا أنها لعبت دورا في الحفاظ على هذا التخلف ، وظلت تلعب دورها في عزل قطاعات واسعة من القوى العاملة في الزراعة عن المشاركة الفعلية في الحياة السياسية والاجتماعية ، كما قدمت أرضية مثالية لأشكال الاستغلال المتخلفة ، وللحفاظ على مفاهيم وتقاليد وقيم عتيقة يرجع بعضها الى عصور الرق والإقطاع كالقدرية والخوف الزائد من السلطة والجهل الشديد وتدشين البؤس الطبقي تحت دعاوى تتخذ من الدين ستارا لها (٣) .

● إن الأمية ليست مجرد مشكلة ثقافية ، فبالإضافة الى أبعادها السياسية والاجتماعية الخطيرة ، فإن لها بعدا اقتصاديا أشد خطورة ، وهناك دراسات وأبحاث عديدة أثبتت ارتباط الأمية بانخفاض الإنتاج ووسائله وعلاقاته بشكل مباشر (٣) ، ولعل هذا هو السبب الرئيس في الخلل الذي حدث في تناول هذه القضية ، فلقد كان ومازال الهم الأول للمسؤولين هو تحجيم القضية في صورتها الأدنى كمشكلة ثقافية ، ولذلك تركزت الجهود في اللجوء الى جهاز الدولة العتيق لحلها مستخدما وسائل تقليدية غير ناجعة . وجرى عليها ماجرى على معظم القوانين والإجراءات التقدمية والوطنية التي اتخذت ، حين ضاعت وتضاءلت في متهاتات الأجهزة البيروقراطية ذات الطابع الطبقي المعادي لحركة الجماهير .

الدخل الزراعى - التطور والتاريخ

من السهل وفقا للإحصائيات الحصول على صورة لتطور الدخل الزراعى بل وصافى هذا الدخل في تلك الفترة ، ولكنه من الصعب الحصول على صورة دقيقة لتوزيع هذا الدخل ، فلقد تطور الدخل الزراعى من ٢٦٩ مليون جنيه سنة ١٩٥٢ الى ٤١٧ مليون جنيه سنة ١٩٦٠ الى ٦٩٠ مليون جنيه سنة ١٩٦٧ .

جدول

الدخل القومى من الزراعة

السنة	القيمة الاجمالية للإنتاج الزراعى	قيمة النفقات الزراعية	صافى الدخل
١٩٥٢	٤١٨,٢٧٠	١٤٨,٣١٧	٢٦٩,٩٥٣
١٩٥٥	٤٤٠,٤٣٤	١٢٦,٥٩٥	٣١٣,٨٣٩
١٩٦٠	٥٨٣,٦٤٥	١٦٦,٠٤٣	٤١٧,٦٠٢
١٩٦٥	٩٠٦,٠٥٣	٢٩١,٤٦٧	٤١٦,٥٨٧
١٩٦٩	١٠٧٤,٧٨٣	٢٩٩,١٤٠	٧٧٥,٦٤٣

الإنتاج ، ٢٠ ٪ من خلال ارتفاع أسعار الحاصلات الزراعية ، وليس لدينا شك أن هذه التقديرات فيها مبالغة .

بداية فليس لدينا أى دليل على أن نفقات وتكاليف الزراعة لم ترتفع وبنفس القدر في هذه الفترة ، بل ربما كان العكس صحيحا ، ففي دراسة أجرتها مجموعة في جريدة المساء القاهرية (أغسطس سنة ١٩٥٨) ، أشارت الى أنه كان على المنتفعين أن يدفعوا سنويا ٤٠ جنيها مصريا عن كل فدان^(٢٨) ، ومن ناحية أخرى فلا بد أن يكون الدخل الحقيقي أقل بكثير من هذه التقديرات ، هذا اذا وضعنا في الاعتبار ارتفاع نفقات المعيشة في المناطق الزراعية في تلك الفترة بنسبة ٦٥ ٪ .

جدول

دخل الفدان الصافي في مناطق الاصلاح الزراعى
(من سنة ١٩٥٢ - ١٩٦٥) بالجنيه المصرى

١٩٦٥	١٩٦٠	١٩٥٢	
٨٤	٧٥	٥٥	الدخل العام
١٣ -	١٠ -	١٠ -	نفقات الانتاج
٦ -	٦ -	٦ -	النفقات العادية
١ -	١٢ -	١٢ -	ثمن الأرض
٦٤	٤	٢٧	الصافي

المصدر : كمال واسحق ، الإصلاح الزراعى في الجمهورية العربية المتحدة نشرة جامعة اكسفورد - الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء ، مايو - سنة ١٩٦٨ .

وفي دراسات عديدة أخرى أجريت في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات ثبت أن ظروف الإنتاج في أراضي الإصلاح الزراعى قد زادت نفقاتها بدرجة كبيرة ، وخاصة النفقات التعاونية حتى أن البعض من هؤلاء المنتفعين كان في حالة مديونية متصلة .^(٢٩)

أما بالنسبة للإيجارات ، فلا شك أن القانون الذى حدد إيجارات الأراضي الزراعية بسبعة أمثال الضريبة المدفوعة على الأرض قد أدى من الناحية العملية الى زيادة دخل حوالى ٧٠٠ ألف عائلة تستأجر حوالى ٣ مليون فدان ، وتقدر هذه الزيادة بما يتراوح بين ١٠ ، ٢٠ جنيه للفدان الواحد .^(٣٠)

وأيا بالنسبة للإيجارات العينية والمشاركة فقد نص القانون على أن يتقاسم المالك والمستأجر نفقات العمل الزراعى والمحصول ، وهذا يعنى أن ظروف المستأجر قد تحسنت بالفعل عما كان عليه الوضع سنة ١٩٥٢ ، حيث لم تكن هناك أسس محددة تحكم هذه العلاقة ، وخاصة بالنسبة لمحصول القطن الذى ثبت أن المستأجرين لم يكونوا يحصلون منه إلا على نسبة الخمس من إنتاج الأرض المؤجرة .^(٣١) ومن الطبيعى أن

المصدر : الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء وتقديرات الدخل القومى من الزراعة القاهرة - - يونيو سنة ١٩٧٣ : ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

وبالرغم من الازدياد النسبى للدخل من الزراعة إلا أن مساهمة الزراعة فى الدخل القومى انخفضت من ٣١ ٪ الى ٢٨ ٪ ، وهذا أمر إيجابى فى حد ذاته ، إذ ازدادت مساهمة الصناعة فى نفس الفترة من ٢٠ ٪ الى ٢٢ ٪ (٣٤) . وتأتى مساهمة الدخل الزراعى من ستة مصادر مختلفة :

- الضريبة الزراعية .
- فرق الأسعار لبعض الحاصلات الزراعية المصدرة .
- ضرائب التصدير .
- الدخل من الإصلاح الزراعى .
- ملكية الشعب لأراضى الاوقاف .
- تسويق بعض المنتجات الزراعية .

وقد بلغ الدخل من الضريبة الزراعية سنة ١٩٦٧ حوالى ٢١,٨ مليون جنيه ، أما الدخل من فروق أسعار الحاصلات المصدرة فقد بلغ فى نفس العام ٨ مليون جنيه ، وبلغ دخل المنتفعين من الإصلاح الزراعى ٨,٢ مليون جنيه . أما تسويق بعض المنتجات الزراعية فقد بلغ ١,٤ مليون . وبلغ مجموع الدخل الناتج من هذه المصادر الستة ١٠٦,٢ مليون جنيه سنة ١٩٦٧ (كان فى سنة ١٩٥٢ ٣٣,٥ مليون جنيه) وهذا يعنى أنه تضاعف حوالى ثلاث مرات (٣٥) . وتوضح هذه الحقيقة أن المساهمة المالية للزراعة فى مصادر الدخل القومى قد ازدادت بنسبة أكبر من زيادة الدخل الزراعى نفسه الذى لم يتعد الضعف فى هذه الفترة (٣٦)

أثر الإصلاح الزراعى فى الدخل :

تدور تساؤلات كثيرة حول الدراسات التى أجريت حول الدخل من الإصلاح ، وهى دراسات محدودة وغالبيتها مستعجلة ومصادرهما الاساسية الاحصائية الرسمية . وبالرغم من التحفظات على كثير من هذه الدراسات إلا أنها قد تفيد فقط فى عكس الاتجاه العام . ولقد حاول المعهد القومى للتخطيط إجراء دراسة ميدانية حول التوزيع الحقيقى للدخل الزراعى فى مصر فى الستينيات ، وحتى نهاية السبعينيات لم يكن هذا البحث قد تم ، وقامت عقبات عملية ومالية كثيرة فى مواجهته . ومع ذلك فلقد كان علينا بذل محاولات للوصول الى صورة لتوزيع هذا الدخل أقرب الى الحقيقة ، معتمدين على بعض إحصائيات المتاحة سواء بشكل رسمى أو بجهود ذاتية .

دخل المنتفعين من الإصلاح :

شمل توزيع الأرض وفقا لقوانين الاصلاح الزراعى ٣٤٢ ألف عائلة ، وقدرت بعض الدراسات أن دخل هذه الأسر قد زاد بنسبة ٥٠ ٪ (٣٧)

فى حين أن دراسات أخرى قد توصلت الى أن الدخل الصافى من القدان سنة ١٩٦٥ قد بلغ ضعف الدخل الصافى سنة ١٩٥٢ . وقسمت الزيادة التى بلغت ٥٠ ٪ الى قسمين : ٣٠ ٪ ناتجة عن زيادة حقيقية فى

يلعب قانون الإيجارات الجديد دورا في زيادة دخل المستأجر على حساب « المالك الغائب » .

جدول

نسبة الايجارات النقدية من الدخل الزراعى
(١٩٥٠ - ١٩٧٠)

العام	الدخل الزراعى	%	الإيجارات النقدية	%
١٩٥١	٣٥٢	١٠٠	٥٨	١٦ %
١٩٦١	٣٧٣	١٠٠	٤٨	١٣ %
١٩٦٥	٥٢٨	١٠٠	٤٦	١٠ %
١٩٦٨	٦٤٤	١٠٠	٤٨	٧,٥ %

المصدر : محمود عبد الفضيل - التطور والتغيرات الاجتماعية في مصر الزراعية ص ٦٤ - سمير رضوان : الإصلاح الزراعى - القاهرة سنة ١٩٧٨ ص ٣٤ .

وقد لعبت عوامل أخرى دورا في محاصرة هذه الزيادة ، منها تحايل كبار الملاك وأغنياء الفلاحين على القوانين ، ومنها الحاجة الملحة لصغار المستأجرين وحضوعهم لبعض الشروط الجائزة وغير القانونية . وفى سنة ١٩٦١ ، أكدت وثائق اللجنة العليا لتصفية الإقطاع أن المستأجرين كانوا يتعرضون لضغوط شديدة من أجل قبول شروط للإيجار يفرضها كبار الملاك ،^(٤٢) وسواء بالنسبة للإيجارات النقدية أم بالنسبة للإيجارات العينية .^(٤٣) ولكن المؤكد أن كبار المستأجرين (من ١٠ - ٥٠ فدان) قد استفادوا بشكل مطلق من قوانين الإيجارات .^(٤٤)

ولقد كان لقوانين الإيجارات أثرها المباشر على دخل العمال الزراعيين وخاصة المادة التى تنص على جعل الحد الأدنى لأجر العامل الزراعى ١٨ قرشا ، كما نص على ألا تتجاوز ساعات العمل فى اليوم ٨ ساعات ولم يبدأ تطبيق ذلك من الناحية الواقعية إلا عندما بدأت الدولة مشروعاتها الكبرى فى أواخر الخمسينيات فى بناء السد العالى ، واستصلاح مساحات واسعة من الأراضى الزراعية . وفى عديد من الدراسات التى أجريت على دخل وأحوال العمال الزراعيين ثبت أنه لم يحدث تغير جذرى فى تلك المجالات .^(٤٥)

• ويقدر روبرت مابرو فى دراسة له الدخل السنوى لعائلة معدمة سنة ١٩٥٠ بحوالى ٢٦ جنيها وفى سنة ١٩٦٥ (٥٩ جنيها) فإذا وضعنا فى اعتبارنا أن تكاليف المعيشة قد زادت فى هذه الفترة بنسبة ١٠ % ، تكون الزيادة الحقيقية ٣٠ % فقط .^(٤٦) ولقد أجرى سمير رضوان دراسة تفصيلية ، وقائمة على بعض الأسس المتينة ، حول تطور الدخل الزراعى . وقد اعتمد فيها على دراسة لم تنشر قام بها المعهد القومى للتخطيط مع منظمة العمل الدولية فى هذا المجال . وقد حاول إعطاء صورة لحركة وتطور الأجور الحقيقية لعمال الزراعة منطلقا من اعتبار سنة ١٩٣٨ هى سنة الأساس .

جدول
تطور الأجر الحقيقي لعمال الزراعة

العام	متوسط الأجر قرشا	النسبة	معدل تكاليف المعيشة	معدل الزيادة الحقيقية في الأجر
١٩٣٨	٣	١٠٠	١٠٠	١٠٠
١٩٤٨	١٠	٣٣٣	٢٧١	١٣
١٩٥٢	١٢	٤٢٠	٢٦٥	١٦٠
١٩٦٢	١٢,٥	٤١٧	٣٣٧	١٢٣
١٩٦٥	٢٢	٧٠٤	٥١٩	١٣٥
١٩٧٠	٢٥	٨٠١	٥٧٦	١٣٨

المصدر : سمير رضوان - الإصلاح الزراعي - مرجع سابق ص ٢٠ - ٣١ .

وهناك دراسة أخرى أجريت على الفترة بين ١٩٥٠ - ١٩٧٠ بالنسبة لدخل عمال الزراعة ، توصلت الى نفس النتائج تقريبا ، فعلى اعتبار أن سنة الأساس (١٠٠) هي سنة ١٩٥٠ ، بلغت الزيادة سنة ١٩٧٠ (١٩٠) . (٤٧)

وتستطيع القول أن غالبية الدراسات الجادة حول توزيع الدخل الزراعي قد توصلت الى حقائق متقاربة ، من أن الإصلاح الزراعي قد لعب دوراً إيجابياً في إعادة توزيع هذا الدخل ، وخاصة بالنسبة لعمال الزراعة من خلال وضع حد أدنى للأجور ، والبدء في مشروعات زراعية كبيرة أتاحت فرص عمل أوسع وخاصة بالنسبة للعمال الموسمية . وأن هذه الفترة قد شهدت كذلك زيادة ملموسة في تكاليف المعيشة ، وخاصة أسعار الحاصلات والمواد الغذائية الضرورية (٤٨) .

توزيع الدخل الزراعي

إن أحد الأهداف الرئيسية لهذه الدراسة هو الوصول الى صورة حقيقية واضحة لتوزيع الدخل الزراعي على الطبقات والفئات المختلفة في الريف بعد تطبيقات قوانين الإصلاح الزراعي ، وقد دفعنا الفقر الشديد في الإحصائيات المتوفرة حول هذا الموضوع الى اعتماد عدة وسائل ، منها البحث في تطور الأنماط الاستهلاكية في القرية ، وحساب الزيادة الحقيقية في دخل الفدان (إيجار أم ملكية) كذلك حساب الأجور ونسبتها من الدخل وكذلك عائد الملكية ، والعوائد الحقيقية للأراضي المؤجرة .

واعتدنا في ذلك الأساس على بعض الدراسات التي لم تنشر أو نشر بعضها ، مع إجراء بعض التعديلات ، وتظل الدراسة التي أجراها سمير رضوان من خلال العمل المشترك بين المعهد القومي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية ، هي أقرب الدراسات الى الحقيقة .

جدول

العام	الدخل الزراعى مليون جنيه	الأجور بالمليون جنيه	نسبتها من الدخل %	عائد الملكية بالمليون جنيه	% من الدخل
١٩٥١ / ١٩٥٢	٣٥٢	٦٠	١٧	٢٩٢	٨٣
١٩٥٩ / ١٩٦٠	٤٠٦	٩٨	٢٤	٣٠٧	٧٦
١٩٦٤ / ١٩٦٥	٥٢٨	٦٧	٣٢	٣٦١	٦٨
١٩٦٨	٦٨٨	٢١١	٣١	٤٧٧	٦٩
١٩٧٩	٧٢٧	٢١٨	٢٨	٥٥٤	٧٢
١٩٧٠	٧٧٤	٢٢٥	٢٩	٥٤٩	٧١

المصدر : سمير رضوان - اصلاح الزراعى ص ٢٤ . محمد عبد الفضيل - تطور وتوزيع الدخل ص ٦٢ .

ومن قراءة الجدول يتضح أن نسبة الأجور في الدخل الزراعى قد أخذت في الارتفاع منذ أوائل الخمسينيات وحتى نهاية الستينيات مع تراجع نسبي لنصيب عوائد الملكية ، ولاشك أن ذلك يعكس تطورا إيجابيا في توزيع الدخل حيث يؤكد قيمة الدخل من العمل على حساب الملكية ، ولكننا نلاحظ في نفس الوقت أن هذا الاتجاه الإيجابى قد بدأ في التراجع النسبى مرة أخرى منذ منتصف الستينيات .

وفي دراسة منفصلة لسمير رضوان حول تطور التناسب بين الأجر والملكية في توزيع الدخل الزراعى وصل الى أنه في السنوات الأولى للسبعينيات وصلت نسبة الدخل من الأجور ٢١ % ، بينما قفزت نسبة عوائد الملكية مرة أخرى الى ٧٨ % وهى صورة قريبة إلى الوضع الذى كان في سنوات (١٩٥٠ - ١٩٥٢) .

كما أن نسبة الدخل من الإيجارات وصل إلى أدنى مستوى له سنة ١٩٦٧ فكان ٧ % ، وهو تطور ايجابى آخر في صورة توزيع الدخل ، وإن كان هناك ما يؤكد أن تلك النسبة قد بدأت ترتفع من جديد في السنوات التالية . (٤٩) .

دراسات سابقة :

وهناك محاولات وجهود بذلت لمحاولة الوصول الى صورة واقعية لتوزيع الدخل الزراعى بين الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة . ويلاحظ أن الغالبية العظمى لهذه المحاولات قد انطلقت من أرضية منهجية واحدة .

لقد بذل كل من سمير أمين وشارل عيسوى محاولات مبكرة في هذا الصدد ، تقف عند نهاية الخمسينيات ، ولقد وصل الاثنان الى رسم صورة هذا التوزيع على النحو التالى :

جدول
توزيع الدخل الزراعى بين الفئات والطبقات الاجتماعية
العاملة فى الريف

الفئات	العدد الاجالى بالمليون	نسبتهم الى سكان الريف	الدخل بالجنيه	النسبة	دخل الفرد بالجنيه
المعدمين	١٤	% ٧٣	٥٠	% ١٥	٣,٥
فقراء الفلاحين أقل من فدان	١,١٧٥	% ٦	٧	% ٢	٦,١
الفلاحون المتوسطون ١ - ٥ فدان	٢,٠٨٥	% ١٥	٧٩	% ٢٣	٢٦,٨
الفلاحون الأغنياء ٥ - ٢٠ فدان	٠,٨٧٥	% ٥	٧٦	% ٢٣	٨٦,٤
الرأسمالين الزراعيين أكثر من ٢٠ فدان	٠,١٥٠	% ١	١١٦	% ٣٦	٧٧٣,٣
المجموع		% ١٠٠	٣٢٥	١٠٠	١٧,١

المصدر : سمير أمين - مصر الناصرية - باريس سنة ١٩٦٤ ص ١٠ ، ١١

شارل عيسوى - مصر الثورة - مرجع سابق ص ٢١٨ جدول

توزيع الدخل الزراعى بين الفئات والشرائح المختلفة ١٩٦١

الشرريحة	الدخل مليون جنيه	النسبة الى الدخل الزراعى العام %	عدد العائلات بالالف	النسبة الى سكان الريف	متوسط دخل الفرد بالجنيه
عمال الزراعة والمعدمون	٣٩	٩,٧	٩٧٠	٣٧	٤٠
أقل من ٥ أفدنة	١١٣	٢٨	١,٣٨١	٥٣	٨٢
٥ - ٥٠ فدان	١٣٠	٣٢,٣	٣٥١	٩	٥٨
أكثر من ٥٠ فدان	٦٩	١٧	١٠	١	٦٩٠٠
عوائد الايجار المالك الغائب	٥٢	١٣			
الاجالى	٤٠٣	١٠٠	٢,٦١١	١٠٠	١٥٥

ومع عدم تقليصنا من الجهد المبذول ، إلا أن لنا تحفظات كثيرة بالنسبة لهذا التوزيع ، فبداية هناك خطأ فى حصر عدد سكان الريف فى سنة ١٩٥٨ ، فقد كانوا لا يتعدون فى هذه الفترة ١٦ مليون ،

وليس ١٩ مليون ، مثلما أثبت الجدول .

كما أن توزيع الفئات والشرائح لم يكن دقيقا ، واعتمد التقسيم على أسس نظرية بحتة وليست واقعية ، منها مثلا اعتبار الشريحة الحائزة بين فدان الى خمسة من متوسطى الفلاحين . فضلا عن أن هذا التوزيع لا يعطى صورة عن التطور الذى حدث فى توزيع الدخل ، فلقد حصر نفسه فى سنة ١٩٥٨ ، وكانت قوانين الإصلاح الزراعى جديدة ومحدودة ولم تعكس نفسها بالكامل بعد .

على أن المحاولة التى بذلها فيما بعد كل من دونالد ميد وروبرت ماريو فى هذا الصدد كانت أكثر نضجا إذ تعرضا لمساحة زمنية واسعة كفيلة بعكس بعض أهم نتائج الإجراءات والقوانين التى اتخذت فى المجال الزراعى وتأثيرها الفعلى على الدخل الزراعى وتوزيعها .^(٥٠) وقد توصلا الى بعض الحقائق التى نوجزها فيما يلى :

- أنه لم يحدث تغيير جذرى بالنسبة لدخول العائلات المعدمة .
- أن ثمة ارتفاع ملحوظ قد جرى فى نصيب أغنياء الفلاحين من الدخل الزراعى . وقد حدد فى هذه الفئة بين من يحوزون فدائين وبين من يحوزون خمسة الى ١٠٠ فدان .
- إن دخل كبار الملاك قد انخفض بشكل ملحوظ . وبالرغم من أن الصورة التى قدمها ماريو كانت أكثر تحديدا ، إلا أن هناك الكثير من التحفظات والشكوك حول واقعية هذا التوزيع ، وهناك الخطأ أيضا فى منهج توزيع الفئات والشرائح الريفية ، وخاصة بالنسبة لتوصيفهم لأغنياء الفلاحين ، والصورة التى قدمها عبد الفضيل تمضى على نفس الأسس التى قدمها كل من ماريو وميد ولنا هنا بعض التحفظات كذلك :
- لقد اعتمد مثلما فعل من سبقوه الى متوسط الدخل الإجمالى للفدان ثم قام بضرب هذا الدخل ومضاعفته وفقا لما تحوزه الشريحة حسب تقسيمها ، وقد اعترف ماريو بهذا الخطأ إلا أن المفروض الوصول الى الدخل الصافى وليس الدخل الإجمالى .
- هناك خلل فى تقييم عدد العائلات المعدمة ، وخلط بين عدد السكان الحائزين ، وعدد العائلات المعدمة .
- وضع « المالك الغائب » كشريحة منفصلة الدخل ، وهى بالتأكيد ليست كذلك ، فهى موزعة على شرائح الحيازة المختلفة .

وبالرغم من كل هذه التحفظات ، إلا أن كل تلك المحاولات قد ساعدت ولاشك على إعطاء ملامح عريضة ، وإن لم تكن دقيقة ، لأثر الإصلاح الزراعى فى توزيع الدخل القومى ، أو على الأقل رصد الاتجاهات الأساسية لهذا التوزيع . ولقد حاولنا من ناحيتنا ، معتمدين على بعض النتائج التى توصل لها سمير رضوان ، الدخول الى صورة أدق لتوزيع الدخل الزراعى ، وذلك من خلال تحليل لبعض الإحصائيات التى توفرت عن تطور الأنماط الاستهلاكية المختلفة بين الطبقات والفئات الاجتماعية فى الريف .

كذلك الاعتماد بشكل أساسى على التقديرات الرسمية أو تقديرات بعض الرسميين المسؤولين عن الزراعة فى ذلك الوقت ، مضافا الى ذلك أنهم توقفوا عند سنة ١٩٦٥ ، وهى وإن كانت تحتل مساحة زمنية كفيلة

بعكس الاتجاهات الرئيسية لأثر الإصلاح الزراعى فى توزيع الدخل ، إلا أنها ليست مكتملة ولا تغطى المرحلة الناصرية بالكامل .

وبالرغم من أن محمود عبد الفضيل ، مستفيدا من كل الجهود السابقة ، قد حاول إعطاء صورة أخرى تفصيلية عن توزيع الدخل الزراعى إلا أن محاولته ، تثير نفس التحفظات السابقة ، بالإضافة الى أنه حصر نفسه فى السنوات العشر الأولى للإصلاح الزراعى .

جدول
أنماط الاستهلاكات بين السكان فى الريف وفقا لمجموعات
الدخول - ١٩٥٨ / ٥٩ - ١٩٦٤ / ٦٥

أولا : ١٩٥٨

فئة الدخل	متوسط استهلاكات الأمرة	عدد الأسر (بالآف)	مجموع الاستهلاكات السوى بالجنيه	نسبة المترام
٣٥ جنيه	٢٠,٦	٤٢	٨٦٤	٠,١٩
٢٥٠ - ٥٠	٣٩,٤	٢٧٩	١٠٩٩٤	٢,٦٤
٥٠ - ٧٠	٦٣,١	٤٦٠	٣٩٠٤٤	٩,١٢
٧٠ - ١٠٠	٨٨,٣	٤٤٢	٣٩٠٢٨	١٧,٨٢
١٠٠ - ١٥٠	١٢٣	٧٤٨	٩٢٠٠٧	٢٨,٢٣
١٥٠ - ٢٠٠	١٧٢,٧	٤٤٣	٧٦٤٩١	٥٥,٢٨
٢٠٠ - ٢٥٠	٢٢٢,٠	٢٤٦	٥٤٦٠٨	٦٧,٥٦
٢٥٠ - ٣٠٠	٢٧١	١٣٤	٣٦٤٢٥	٧٧٥,٦٨
٣٠٠ - ٣٥٠	٣٣٨	١٢٧	٤٣٠١٣	٨٥,٢٧
٤٠٠ - ٦٠٠	٤٧٥,٩	٨٩	٤٢٣٥٢	٩٤,٧
٦٠٠ - ٨٠٠	٧٠٧	١٨	١٢٧٣٧	١٧,٥٥
٨٠٠ - ١٠٠٠	٨٦٨٦,٥	٤	٣٤٦٦	٩٨,٣٢
١٠٠٠ فأكثر	١٥٠٨	٥	٧٥٧٤	١٠٠
المجموع	١٤٧	٣٠٣٧	٤٤٨٥٧٤	

جدول
توزيع الانماط الاستهلاكية في الأسر الريفية

تقسيم نفقات الاستهلاك	%	١٩٥٨	١٩٦٤	١٩٧٤
الفئة الدنيا	٢٠	٦,٣٥	٦,٩٥	٥,٨٠
الفئة الثانية	٢٠	١١,٢٩	١١,٨٥	١١,٢٧٠
الفئة الثالثة	٢٠	١٥,٦٥	١٦,٠١	١٥,٧١
الفئة الرابعة	٢٠	٢٢,٧٨	٢٢,٤١	٢١,٠٩
الفئة الخامسة	٢٠	٤٣,٩٣	٤٢,٧٢	٤٦,١٣
القيمة	١٠	٢٨,٢٢	٢٧,٥٢	٣١,٠١

جدول
توزيع الدخل الزراعي بين الفئات والشرائح المختلفة

الشريحة	الدخل ملين جنيه	النسبة الى الدخل الزراعي	عدد العائلات (بالآلف)	النسبة الى سكان الريف	متوسط دخل الفرد بالمهنة
عمال الزراعة (الأجر)	٢٠	٥,٥ %	١,٢١٧	٥٥ %	١٦,٤
الحائزون لأقل من ٥ فدان	٥٥	١٥ %	٨٧ %	٣٥ %	٧٠
٥ - ٢٠	٩٢	٢٥ %	٢٠١	٩ %	٥٨ %
أكثر من ٥٠ فدان	١٤٤	٣٩ %	١٥	١ %	٩٦٠٠
الايجار الملاك	٥٨	١٥,٧ %			
الاجمالي	٣٦٩	١٠٠	٢,٢٢٠	١٠٠	١٦٦

ويتضح من الجدول أنه كان هناك تحسن نسبي في سوء توزيع الانماط الاستهلاكية في الأسر الريفية في الفترة بين ١٩٥٨ - ١٩٦٥ .

كما يتضح كذلك أن الاستهلاك السنوي للشرائح الدنيا من الدخل قد ازداد بشكل نسبي في الستينيات ، في نفس الوقت الذي شهدت الأنماط الاستهلاكية للشرائح العليا بعض الانخفاض .

ثانيا ١٩٦٥

فئة الدخل	الأجرة ألف	عدد الأسر (بالآلف)	مجمل الاستهلاك (بالآلف جنيه)	نسبة التراكم
٢٥ فأقل	١٩,٤	١٢	٢٣٣	٠,٢
٢٥ - ٥٠	٣٨,٦	١٢٥	٤٨٢١	٠,٥٠
٥٠ - ٧٠	٦٤,٢	٢١٨	١٣٩٩٩	١,٨٩
٧٥ - ١٠٠	٨٨,٤	٣٤٤	٣٠٤١٢	٤,٩٣
١٠٠ - ١٥٠	١٢٥,٦	١٠٠٧	١٢٦٤٧٩	١٧,٥٢
٢٠٠ - ٢٥٠	٢٢٣,٨	٦١٣	١٣٧١٥٩	٤٦
٢٥٠ - ٣٠٠	٢٧٢,٨	٤١٠	١١١٨٤٩	٥٧,١٤
٣٠٠ - ٤٠٠	٣٤٢,٣	٤٦٦	١٥٩٥٢٩	٧٣,٠٢
٤٠٠ - ٦٠٠	٦٧٨,٧	٨٤	٥٧٠٠٧	٩٢,٧٥
٦٠٠ - ١٠٠٠	٨٨٩,٥	٢٤	٢١٣٤٨	٩٤,٨٨
١٠٠٠ فأكثر	١٥١٢,٤	٣٤	٥١٤٢٣	١٠٠٠
المجموع	٤٤٨٠	١٠٠٤٢٨٠		

المصدر : ١ - بحث عن ميزانية الأسرة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ - اللجنة المركزية للإحصاء
٢ - الجهاز المركزي للسكان والتعبئة والإحصاء (١٩٦٤ - ١٩٦٥) القاهرة - ١٩٧٢

ويلاحظ في النهاية أن هذا الاتجاه في التقارب النسبي بين الأنماط الاستهلاكية لشرائح الدخل المختلفة قد بدأ يتوقف ، بل وتزداد الهوة مرة أخرى في نهاية الستينات ، وهو نفس الشيء الذي حدث بالنسبة لتوزيع الدخل . وفي السبعينات تحقق هذا الاتجاه بشكل واضح .
ويمكننا رصد ذلك بسهولة من مقارنة لتوزيع الأنماط الاستهلاكية للأسرة الريفية وفقا لشرائح الدخل بين سنوات ١٩٥٨ - ١٩٦٤ - ١٩٧٤ .

إن الجدول يوضح اتجاهها في المرحلة الأولى من ١٩٥٨ - ١٩٦٤ الى ازدياد نصيب الشرائح الدنيا (٤٠ ٪) وفي نفس الوقت انخفاض في نصيب شرائح القمة (٣٠ ٪) . بينما ينعكس ذلك الوضع في المرحلة الثانية - ١٩٦٤ - ١٩٧٤ ، ويرتفع من جديد نصيب شرائح القمة مع انخفاض نسبي للشرائح الدنيا . وفي النهاية يمكننا أن نلخص أثر قوانين الإصلاح الزراعى في توزيع الدخل على الفئات والطبقات العاملة في الزراعة في النقاط التالية :

- أن توزيع الدخل هو في المحل الأول انعكاس مباشر لتوزيع الملكية ، وبالتالي فلقد تأثر توزيع الدخل بمدى التغير الذي طرأ على توزيع الملكية بعد القوانين الإصلاحية .
- لما كانت قوانين الإصلاح الزراعي قد أصابت بالدرجة الأولى طبقة كبار الملاك الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين ، فقد انعكس ذلك بشكل واضح في انخفاض دخولهم .
- ساعدت قوانين تحديد الايجارات وكذلك وضع حد أدنى ، لأجور عمال الزراعة والتراحيل في محاصرة علاقات الانتاج شبه الاقطاعية لصالح علاقات رأسمالية أكثر تقدماً .
- تمكن متوسطو الفلاحين وأغنياؤهم من زيادة نسبتهم من الدخل الزراعي .
- ازاداد بشكل نسبي دخل صغار وفقراء الفلاحين ، وكانت الزيادة أقل بالنسبة للفرد .
- تحسن أيضا وبشكل نسبي دخل عمال الزراعة .
- استفادة مطلقة لأغنياء الفلاحين وكبار الملاك .

هوامش

R. Slepenshagen- Lozial Klassen in der A grangesells chaft.

Hoselit 2= Socioloagical aspects of Economic growth- New York 1960.

2F. Doring= The Share of agriculture in a growing Popultion.

FAO, Vol VIII, N 819 1959

٢ - السكان - العمل والانتاج في الزراعة المصرية - مطبوعات المعهد القومى للتخطيط - القاهرة ، ١٩٧٤ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - عمرو محى الدين - التركيب الاقتصادى فى التجربة المصرية - مجلة الطليعة مارس ١٩٦٨ .

البيان الطبقي فى البلدان النامية ، مجموعة من المؤلفين السوفيت ، صدر مترجما عن دمشق سنة ١٩٦٢ - ص ٢٨ ، ٢٩ .
المرجع السابق .

٨ - كانت عوامل الطرد قوية بشكل خاص فى الصعيد ، لعدة أسباب منها اتساع ملكية كبار الملاك بشكل أكبر ، محدودية الأرض المتزرعة ، وكذلك الفيضان الذى كان يفرق مساحات زراعية واسعة طوال شهور الصيف .

٩ - فى دراسة مشتركة لمنظمة العمل الدولية مع المعهد القومى للتخطيط جاء بها ، أن ٢٦ ٪ من الذين يهاجرون من الريف الى المدينة ينتون الى أسر يقل دخلها عن ٥٠ جنيها فى العام ، ٤٠ ٪ يقع دخلها بين ٥٠ - ٧٠ جنيها ، ٢٢ ٪ من ٧٠ - ١٠٠ ، وأن ٨٦ ٪ منهم لا يملك أرضاً ، ٦٥ ٪ يؤجرون مساحات صغيرة من الأرض .

الدراسة المشتركة لمنظمة العمل الدولية ومعهد التخطيط القومى ، القاهرة ١٩٧٦ .

١٠ - محمود عارف - الهجرة الريفية الى المدينة - مركز الدراسات الاشتراكية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١١ - يوجد فى القاهرة ٢٠ ٪ من جميع العاملين فى جهاز الحكومة ٥٢ ٪ من جميع الأطباء ، ٥٨ ٪ من المهندسين ، ٥٢ ٪ من المهندسين الزراعيين .

١٢ - فى بعض الحالات كانت هناك ظروف موضوعية وإيجابية للهجرة ، مثلما الحال فى الهجرة الى محافظتى كفر الشيخ ومديرية التحرير حيث كانت هناك مشروعات واسعة لاستصلاح الأراضى .

١٣ - محمود عبد الفضيل ١١٦-١١٥ P- Development, income distribution & Social Changes in rural Egypt

١٤ - ر. ماريو - الاقتصادى المصرى - ١٩٥٠ - ١٩٧٠ القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٩٤ - ٣١٥ .

● زيادة السكان فى مصر ومشكلة التطور فى مصر - الهيئة العامة للتعبئة والإحصاء - نوفمبر ١٩٧٧ .

١٥ - P - ١٥ - International Lobour Orgonization - Rural employment Problems in U.R.E. genev 1969
53 .

١٦ - عمرو محى الدين - الاستثمار الزراعى والعمالة فى مصر منذ سنة ١٩٢٥ . رسالة الدكتوراة - لندن ١٩٦٦ ص ٧٣ .

- ١٧ - محمود عبد الفضيل - توزيع الدخل والتغيرات الطبقيّة في مصر الزراعيّة .
- ١٨ - الهيئة العامة للتعبئة والاحصاء - زيادة السكان - نوفمبر سنة ١٩٦٦ ص ١٦٢ .
- ١٩ - منير الزلاقي - البطالة الزراعيّة في مصر ص ٢٢ عثمان الخولي - الزراعة المصريّة - الاسكندرية ١٩٦٨ ص ١١٨ .
- ٢٠ - عمرو محي الدين - الاستثمار الزراعيّ والعمالة في مصر .. ص ٧٧ .
- ٢١ - شارل عيسوي - مصر في الثورة .
- عثمان الخولي - فائض الموارد البشريّة - مطبوعات وزارة الحكم المحليّ القاهرة - ١٩٦١ .
- ٢٢ - فتحى عبد الفتاح - القرية المعاصرة بين الاصلاح والثورة - ص ١٧٧ ، ١٨٢ .
- ٢٣ - محمود عبد الرؤوف - التخطيط الزراعيّ في مصر - القاهرة ١٩٧٢ ص ١٤ ، ١٨ .
- ٢٤ - التعداد الزراعيّ الرابع - وزارة الزراعة .
- ٢٥ - عبد الباسط عبد المعطى - الصراع الطبقيّ في القرية المصريّة ص ١٥٣ ، ١٥٥ .
- ٢٦ - المرجع السابق .
- ٢٧ - السكان والتنمية - الهيئة العامة للتعبئة والاحصاء - يونيو سنة ١٩٧٥ .
- حامد عمار - في بناء البشر - القاهرة ١٩٦٤ ص ١٨٠
- ٢٨ - السكان والتنمية ص ٢٠٨ ص ٢٠٩ .
- ٢٩ - المرجع السابق ص ٢٠٩ .
- ٣٠ - حامد عمار في بناء البشر - ص ١٩٤ - ١٩٥ .
- ٣١ - عبد الباسط عبد المعطى - الصراع الطبقيّ .. ص ١٧٥ .
- ٣٢ - محمد رشاد - سرى للغاية .. ص ٢٢ - ٣٠ .
- ٣٣ - حامد عمار - في بناء البشر - ص ١٣٢ ، ص ١٣٤ ، ص ١٨٠ .
- خليل سرى - الملكية الريفيّة المصريّة - ص ١٤٣ ص ١٤٤ .
- زكى شمعيّة - ندوة عن التخطيط الاقليميّ - دور الزراعة في تمويل مشروعات التنمية في مصر - يونيو سنة ١٩٧٠ ص ٢٢ .
- ٣٥ - سعد نصار - التطور الاشتراكيّ في الزراعة المصريّة - مصر المعاصرة - القاهرة سنة ١٩٦٩ .
- ٣٦ - زكى شمعيّة - دور الزراعة في التمويل ...
- G. Soab : The Egyptian agromiein Aeferm in Egypt- P. 120- 121 . ص ٢٧
- ٣٨ - أنور عبد الملك - مصر مجتمع عسكريّ - بيروت ١٩٦٨ ص ٧٣ .
- ٣٩ - محمود عبد الحالى - الاصلاح الزراعيّ في مصر (١٩٥٣ - ١٩٦٣) رسالة دكتوراة لم تنشر - لندن ١٩٧١ .
- سمير رضوان - الاصلاح الزراعيّ والفقر في الريف المصريّ - منظمة العمل الدوليّة .
- ٤٠ - M. Eshag & M. Kamal : agramim reform in U.A.R. Bulletin of order University Mars 1968 .
- ٤١ - FAO reviuw - Part II; Neumber IV November / December 1969
- ٤٢ - محمد رشاد - سرى للغاية ص ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٧٥ .
- ميشيل كلما - حول الصراع الطبقيّ في الريف - مجلة الطليعة - سبتمبر سنة ١٩٦٦ ص ٥٥ .
- ٣٢ - تقرير عن بعض قرى الشرقية والدقهلية - مجلة الطليعة - سبتمبر سنة ١٩٦٦ .
- ٣٤ - عادل غنم - ملاحظات حول تطور العلاقات الاقتصادية في الريف مجلة الطليعة - سبتمبر سنة ١٩٦٦ .
- ٤٥ - سمير رضوان - الاصلاح الزراعيّ والفقر في الريف ص ٥٧ .
- ٤٦ - روبرت ماريو - الاقتصاد المصريّ (١٩٥٠ - ١٩٧٠) ص ٣٣٣
- ٤٧ - محمود عبد الفضيل - توزيع الدخل والتطور في الريف ص ٦٨ .
- ٤٨ - ر . ماريو - الاقتصاد المصريّ ص ٣٣٤ .
- سمير رضوان الاصلاح الزراعيّ ص ٣٢ ، ٣٣ .
- ٤٩ - المرجع السابق .
- سمير رضوان ص ٥٣ .
- ماريو ص ٣٣٥

٥٠ - قدم دونالد سيد صورة عن توزيع الدخل الزراعى فى الفترة بين ١٩٥٠ الى ١٩٦٠ على النحو التالى :

النسبة %	الدخل	نسبته الى الدخل الزراعى العام	الدخل بالملليون جنيه	الشرائح الاجتماعية
٥	٢٠	٥,٤	٢٠	● أجور عمال الزراعة
٧	٢١,٧	١٢,١	٤٨,٥	● المستأجرين
٧	٢٨,٧	٦,٥	٢٤,١	● أقل من فدانين
٥٢	٢١٨,١	٤٢,٧	١٦٠,٧	● من ٢ - ٥٠ فداناً
٢٩	١٢٢,٥	٢١,٢	١١٤,٩	● فوق ٥٠ فداناً
١٠٠	٤٢٢	١٠٠	٣٦٨	● مجموع الدخل العام

المصدر : Meed: Growth and Stuctural Change in the Egyption ecomomy Ilionis 1967 P. 78

أما ماربو فقدم صورة أخرى لتوزيع الدخل وإن كانت تتمشى مع تقديرات ميد كالآتى :

نسبتها من الدخل الزراعى %		الشرائح الاجتماعية
١٩٦٥	١٩٥٠	
٨	٩	المعدمين
٣٤	١٧,٥	ملاك أقل من خمسة أفدنة
٥٦	٤٨,٥	ملاك ما بين ٥ - ١٠٠
٤	٢٥	ملاك أكثر من ١٠٠ فدان

المصدر : ر . ماربر — الاقتصادى المصرى (١٩٥٠ - ١٩٧٠) ص ٣٣٥

الفصل الخامس

القسيف الطبقي والعلاقات الاجتماعية في الريف

الملامح الاجتماعية للتصنيف الطبقي

ما زالت مشكلة التصنيف الطبقي في البلدان النامية من القضايا التي تثير جدلا واسعا في الأدبيات والاقتصادية ، واتسع هذا الجدل بشكل خاص بعد حصول هذه البلدان على استقلالها السياسي .

فالبنيان الاجتماعي المشوه في تلك البلدان ، والإزدواجية الممثلة في تواجد الشكل الاقتصادي المتقدم جنبا إلى جنب الأشكال التقليدية المتخلفة والتعايش بين أنماط متوازنة ومتباينة وأحيانا متصارعة ، كذلك العلاقة غير المتكافئة بين مجالات النشاط الانتاجي المختلفة ، بالإضافة إلى العوامل التقليدية والعائلية ... الخ .

كل ذلك يجعل مهمة أي بحث علمي حول التصنيف الطبقي في تلك البلدان مسألة صعبة ومعقدة وخاصة في الريف^(١)

ومن الملامح الهامة التي تتميز بها علاقات الطبقات المختلفة في البلدان النامية وجود شرائح كبيرة نسبياً من الفئات المتداخلة . ويجد الانسان أنه من الصعب مثلاً أن تعتبر الغالبية العظمى للعمال الزراعيين في تلك البلدان ، بروليتاريا حقيقة حيث أن قطاعا واسعا منهم يملكون أو يحوزون مساحات قروية .

كذلك من الصعب وصف المنتجين المستقلين أي الذين لا يبيعون قوة عملهم وأيضا لا يستغلون عمالاً آخرين بأنهم بورجوازية صغيرة ، فغالبية هؤلاء المنتجين الصغار المستقلين في البلدان النامية ، يختلف أسلوب استغلالهم لوحدهم الانتاجية الصغيرة اختلافا بينا ، ففيهم من يمكن تصنيفه بأنه انتاج طبيعي ، وآخر نصف طبيعي ، حتى أسلوب الانتاج الرأسمالي الصغير . وذلك يصبح من الصعب بل من الخطأ اعتبار هؤلاء المنتجين الصغار

بورجوازية صغيرة ، لأن شكل الانتاج الصغير مرتبط في النهاية بطبيعة الانتاج وعلاقاته السائدة في المجتمع ككل .

وعندما نتعرض للوضع الطبقي في مصر ، وخاصة في الريف فإننا سنواجه حتما كل هذه المشاكل بالرغم من أن خصوصية التطور في الأوضاع في مصر لا تجعل منها نموذجا قياسيا للأوضاع في دول آسيا وأفريقيا . فهناك عدد من الأسباب التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي تجعل هذه القضية في مصر ، وأيضاً في الريف ، أكثر وضوحاً وبلورة منها في بلدان نامية أخرى كبيرة .

محاولات سابقة :

نستطيع القول أنه وحتى قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وصدور قانون الاصلاح الزراعي كان الوضع الطبقي في الريف مبلورا وواضحاً^(٢) . وقد لعب الاصلاح الزراعي والقوانين والاجراءات الأخرى التي اتخذت في مجال تنظيم وتطوير الانتاج الزراعي دوراً مؤثراً على الوضع الطبقي . وقد تعرض عدد من الباحثين لهذا الموضوع ، بعضهم ذهب إلى القول بأن ثمة تغييراً جوهرياً قد طرأ ، بينما قال البعض من تأثير هذه الاجراءات على وضع وعلاقات الطبقات المختلفة في الريف . والغالبية العظمى لهذه الدراسات اعتمدت في الأساس على تقسيمات نظرية جاهزة وقامت على بنیان من الاحصائيات التقليدية دون اقتحام حقيقي وواقعي للجذور الحقيقية في هذا الميدان .

وبالرغم من أنت سمير أمين في كتابه « مصر النهرية » ، ونضيف إليه أيضاً محمود عبد الفضيل ، قد حاولا بشكل أعمق في مجال التصنيف الطبقي في الريف المصري ، إلا أنها ورغم تميز جهدها عن جهود أخرى ، ظلا في النهاية أسرى التحليلات الكلاسيكية^(٣) ، فكلاهما استطاع بحق أن يقدم صورة تقريبية لعلاقات الانتاج ووضع ودور القوى العاملة في الانتاج الزراعي ولكن من الناحية الأخرى نجد أن المقولات النظرية العامة هي التي سادت عندما حاولا أن يقدموا صورة للطبقات والفئات الاجتماعية . فقد اعتمدا في الأساس على عامل الملكية باعتباره العامل الأوحده في التفرقة بين الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية في الريف .

وقد أدى ذلك بالطبع إلى أخطاء عديدة منها التجاهل شبه التام لعلاقات الانتاج الاقطاعية ومنها اعتبار الشريحة التي تملك من ٥ إلى ٢٠ فداناً بورجوازية ريفية .

فالعلاقات المتبادلة بين الطبقات والفئات المختلفة وصراعاتها وتأثيرها وانعكاس ذلك على الحياة الاجتماعية في الريف والعوامل التقليدية وأيضاً الجديدة ، التي قد تحد من نفوذ الشريحة أو توسع منها ، كل ذلك لا نجد له أثراً في ذلك النمط من التحليلات النظرية .

وثمة دراسة أخرى متميزة قام بها عبد الباسط عبد المعطى حول هذا الموضوع وإن كان قد حدد نفسه في أربع قرى^(٤) . ولكنه استطاع ولا شك أن يخرج ببعض النتائج الهامة فقد

أثبت أن الاعتماد فقط على حجم الملكية في التقسيم الطبقي في الريف قد يكون مضللاً إذا وضعنا في الاعتبار اتساع ظاهرة الإيجار في الزراعة المصرية . وشدد عبد المعطى في دراسته على أهمية شكل وأسلوب استغلال الأرض أى نوعية أدوات الانتاج المستخدمة ونوعية المحصول . بالإضافة إلى عدة عوامل أخرى تلعب في تقديره دوراً هاماً في تصنيف الطبقات والفئات المختلفة في الريف . من هذه العوامل التى فصلها الأمية ، درجة الوعي السياسى والثقافى والمشاركة فى أشكال النشاط والتنظيمات المختلفة فى الريف ، وحركة واتجاه الصراع الطبقي وأشكاله ...^(٥)

أسس التقسيم الطبقي فى القرية المصرية :

تعتمد الدراسة التى قمنا بها حول التصنيف الطبقي على اعتبار أن علاقات الملكية فى الريف هى العامل الرئيسى المحدد ، ولكنها ليست العامل الوحيد . ونحن نؤكد من البداية ذلك لى نعلن افتراقنا التام فى المنهج عن هذه الدراسات التى تقلل كثيراً من أهمية علاقات الملكية فى هذا المجال ، هذه الدراسات التى تبالغ كثيراً فى دور « العوامل غير الاقتصادية » وهى بذلك لا تخلع العلاقات الاجتماعية من جذورها الاقتصادية فقط بل إنها تقلل أيضاً من أهمية الصراع الطبقي فى المجتمعات وتحدده فى إطار قانونى^(٦) .

ولذلك نحن ننطلق فى تحليلنا للأوضاع الطبقيّة فى الريف بداية من منطلق التفرقة بين من يملكون ومن لا يملكون ، أن العامل الثانى فهو التفرقة بين من يحوزون ومن لا يحوزون ، واضعين فى الاعتبار النسبة العالية للأراضى المؤجرة ، ومن الواضح أن الحيازته هنا لا تعنى الملكية .

أما العامل الثالث فهو شكل وأسلوب استغلال هذه الملكية أو الحيازة أى التفرقة بين من يعمل على أرضه ومن لا يعمل ، ووسائل وأدوات الانتاج المستخدمة ، حجم العمالة المستخدمة وشكل العائد من الانتاج ... الخ .

ولقد كان لمجموعة الدراسات الميدانية التى قام بها الباحث أو اشترك فيها دور هام فى اكتشاف عوامل أخرى كثيرة ، ثقافية وسياسية واجتماعية ، بل وحتى جغرافية ، لتحديد الملامح المميزة للطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية العاملة فى الريف ، وانعكاس الاجراءات الاجتماعية والاقتصادية التى اتُخذت فى تلك الفترة على البنيان الطبقي فى الريف . وقبل أن ندخل فى تحديد لهذه الطبقات والشرائح فإن لنا ملاحظتين :

أولاهما :

أن التغيير الأساسى فى الوضع الطبقي فى الريف تمثل فى تصفية الطبقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية ووضع فئات البورجوازية الزراعية فى المقدمة .

ثانيتها :

أن قاعدة البنيان الهرمى الطبقي فى الريف (فقراء الفلاحين وعمال الزراعة) قد طرأ عليها تغيرات نسبية فى الحجم والدور والمهمة ، ولكن هذه التغيرات لم تصل أبداً إلى الدرجة المكثفة أو الجذرية .

أثر الإصلاح على القوى الاجتماعية فى الريف

الملاك الاقطاعيون وشبه الاقطاعيين :

جاءت كل الاجراءات الإصلاحية فى مجال الزراعة موجهة فى الأساس ضد هذه الطبقة ، ومع ذلك فإنه من الضرورى مناقشة حجمها ودورها وردود فعلها وهى تواجه عملية التصفية المستمرة .

وتمثل العائلة المالكة بالإضافة إلى العائلات العشر التى وجه لها قانون سبتمبر ١٩٥٢ الضربة الأولى النواة الأساسية لهذه الطبقة ، التى لعبت طوال النصف الأول من القرن العشرين دوراً أساسياً فى تجميد علاقات الانتاج ومثلت عقبة هامة إزاء أى تطور فى الحياة الانتاجية والسياسية والثقافية ، ليس فى القرية فحسب ، بل وفى المجتمع المصرى كله .

لقد كانت كل الاجراءات الخاصة بتحديد الملكية الزراعية وتحديد الإيجارات ومصادرة أراضي الأسرة المالكة وتطوير العمل التعاونى الزراعى والمهام الجديدة الخاصة بالتسويق ، وتنظيم الدورة الزراعية ، تستهدف ضرب هذه الطبقة المسيطرة ، والتى لم تستسلم بسهولة بل من الغريب إنها ظلت تقاوم وبأشكال مختلفة ولفترة تزيد عن أربعة عشر عاماً م فند أعلن عدلى الموم أحد رموز الطبقة قمرده فى محافظة المنيا وحمل لواء المعارضة المسلحة ضد حركة الضباط الأحرار وإصلاحهم الزراعى ، وحتى قيام عيد أسرة الفقى فى المنوفية باغتيال أحد القادة المتقدمين فى قرية كشيخ سنة ١٩٦٦ ، كان من الواضح أن هذه الطبقة ، وبالرغم من إسقاطها من قمة السلطة السياسية ووجود سلطة أخرى وطنية ومعادية لها ، إلا أنها ظلت متواجدة وأحياناً بأشكال قوية لفترة طويلة قبل أن يتم تصفيتها .

بل إننا نستطيع القول أنه حتى نهاية الستينيات ، وبالرغم من الضربات المميتة التى وجهت لها وهدم كيانها الأساسى كطبقة ، إلا أنها ظلت ذات بقايا وآثار عالقة فى بعض المناطق التى لم تصف فيها تماماً .

ولقد أشار الرئيس جمال عبد الناصر فى بعض خطبه سنة ١٩٦٦ إلى المقاومة الطبقيّة المريرة لهذه الطبقة من أجل الاحتفاظ بنفوذها الاجتماعى والسياسى فى القرية والحياة المصرية بشكل عام ، بل إنه وحتى تشكيل اللجنة العليا لتصفية الاقطاع سنة ١٩٦٦ والاجراءات العنيفة التى اتخذتها إزاء بعض رموز هذه الطبقة مثل مصادرة أراضيهم واغلاق

قصورهم في الريف ، وطرد ممثليهم من البرلمان وبعض الأجهزة الحكومية ، كان وما زال لهم وجود فعال في حياة القرية المصرية . ولقد أدت إلى هذا الواقع الغريب عدة عوامل : -

— حدد الإصلاح الزراعي الأول سقف الملكية بـ ٢٠٠ فدان للفرد ، كانت في الواقع ٣٠٠ فدان لو أضفنا الزوجة والأولاد ولقد أعطى ذلك الفرصة لغالبية العائلات الإقطاعية للإحتفاظ بنفوذها التقليدي في القرية .

— كانت الملكية المتزوجة والزائدة عن الحد طبقاً لقوانين الإصلاح الزراعي ، يصرف عنها تعويضات سخية لهؤلاء الملاك الأمر الذي أوحى بأنهم لم يفقدوا نفوذهم وقدراتهم المادية .

— كانت مهمة تنفيذ قوانين الإصلاح الزراعي والإصلاحات الأخرى التي اتخذت تقع بشكل كامل على عاتق أجهزة الدولة في غياب شبه تام لوجود أحزاب أو منظمات سياسية أو جماهيرية فعالة . ولقد كان من الطبيعي أن يكون لهذه الطبقة نفوذها داخل أجهزة الدولة ، تلك الأجهزة التي لم يطرأ عليها تغيرات جذرية ، بل إنه حدث أن بعض القيادات الرسمية والتي أوكل لها تنفيذ قوانين الإصلاح الزراعي ، كانت تنتمي إلى هذه الطبقة أو تتعاطف معها ، بل إن رئيس المحكمة العليا المختصة بتطبيقات قوانين الإصلاح الزراعي في الستينيات كان ينتمي بالفعل إلى هذه الطبقة^(٧) .

ولا شك أن الأسلوب الإصلاحي ، والذي أعتمد في الأساس على إجراءات إدارية مع الابتعاد التام عن (بل وأحياناً مطاردة) أية تحركات أو منظمات جماهيرية ، قد أعطى فرصة كبيرة لهذه الطبقة بأن تجرى أكبر قدر من التخريب قبل أن تصفى ويتحول قطاع هام منها إلى كبار ملاك رأسماليين .

البرجوازية الزراعية الكبيرة

لقد كانت هناك فئات هامة من البرجوازية الزراعية متواجدة بالفعل على الخريطة الطبقيّة قبل ثورة ١٩٥٢ وكانت مصالحها أحياناً وتوجهاتها السياسية والإجتماعية تتناقض مع الطبقة المسيطرة في ذلك الوقت والمتمثلة في كبار الملاك الإقطاعيين وشبه الإقطاعيين ولكن هذه الشرائح الرأسمالية ظلت ، حتى قوانين الإصلاح الزراعي ، تعمل في ظل الطبقة المسيطرة وفي تداخل معها^(٨) .

وقد دفع قانون الإصلاح الزراعي الأول إلى بلورة أكثر لموقف ودور البرجوازية الزراعية كما أعطى لها الفرصة لأن تستقل بشكل نهائي عن مواقع الإقطاعيين . ورحبت عناصر البرجوازية الزراعية بقوانين الإصلاح الزراعي ووصفتها بأنها قوانين عادلة وضرورية^(٩) .

وقد تميزت تلك الطبقة عن غيرها بثلاثة ملامح أساسية :

— الإشراف على زراعة حيازتها بنفسها - سواء كانت ملكية أم إيجاراً وإنتهاج أسلوب المزارع الواسعة التي تستخدم العمال المأجورين أو الموسمين .

— إدخال وسائل وأساليب إنتاج حديثة مثل التوسع في استخدام الماكينات والالات الزراعية والوسائل العلمية الحديثة .

— الانتاج من أجل السوق والصناعة . مثل الخضر والفاكهة وقصب السكر والقطن ، بل إن بعض هؤلاء الملاك الرأسماليين كانوا يملكون ، في نفس الوقت ، مصانع لإنتاج السكر والفزل والنسيج وتعبئة الفواكه .

وفي الفترة بين ١٩٥٢ - ١٩٦١ كانت كل القوانين التي صدرت تصب في الأساس في طاحونة مصالح الملاك الذين تزيد ملكيتهم عن ٢٠ فداناً وخاصة القوانين المنظمة للإيجارات والتعاونيات الزراعية التي استفادوا منها بدرجات كبيرة ^(١٠) وبالرغم من أن قوانين الإصلاح الزراعي الثاني والتي جعلت الحد الأقصى للملكية ١٠٠ فدان قد مست القطاعات العليا من هذه الطبقة إلا أنها وبشكل عام استطاعت أن تدعم مواقعها على حساب التصفية المستمرة للفئات الإقطاعية وشبه الإقطاعية ^(١٢)

وحق نهاية الستينيات كانت المزارع التي تتكون من ٢٠ فداناً فأكثر تبلغ ١٥,٣٨٤ مزرعة أى بنسبة ٣٢,٥ ٪ من الأراضي المزروعة .

وكانت هذه المزارع تستخدم ١٠ ٪ من مجموع القوع العاملة في الزراعة ، ٦٣ ٪ من القوى العاملة المأجورة .

وفي هذه المزارع كانت تعمل ٧٥ ٪ من كل الجرارات العاملة في الزراعة المصرية ، ٤٧ ٪ من آلات الري الميكانيكية وبلغ إنتاجها من الخضر والفاكهة والمحاصيل المستخدمة في الصناعة ٧٩ ٪ من مجمل هذا الإنتاج .

ومن الطبيعي أن تحتل هذه الطبقة مركز الثقل المحافظ في القرية . وفي أواسط الستينيات وبعد أن رحبوا في المراحل الأولى بالإجراءات الإصلاحية التي استفادوا منها بدأوا يتخذون موقفاً متحفظاً ثم معادياً لأية إجراءات جديدة وقام ممثلوهم الأقوياء في البرلمان (مجلس الأمة) وفي التعاونيات والأجهزة الأخرى بالوقوف صراحة ضد أي محاولات لتطوير الإنتاج الزراعي وتنظيمه ^(١٣) .

ونظموا حملات قوية ضد القوانين المتقدمة التي كانت قد صدرت أو جرت حولها مناقشات وقد استطاعوا مثلاً إلغاء القانون الذي كان يعطى الاغلبية لمن يحوزون أقل من خمسة أفدنة في مجالس إدارات الجمعيات التعاونية - كما أوقفوا المشروع المتقدم في خلق تعاونيات زراعية منتجة في محافظتي كفر الشيخ وبني سويف ، وتمكنوا بعد ذلك من تصفية المشروع تصفية تامة . كما نجحوا أيضاً سنة ١٩٦٧ في الضغط من أجل بيع مساحات من الأراضي الجديدة المستصلحة والحيلولة دون خلق قطاع عام زراعي قوى في تلك الأراضي كما تمكنوا من إضفاء تفسيرات لتغيير بعض إجراءات تنظيم الأراضي المؤجرة مما يعطى للمالك فرصة أوسع وحرية أكبر في فرض شروطه على المستأجر أو حتى طرده .

وكانت مواقفهم السياسية والاجتماعية أكثر وضوحاً فقد أعلنوا بوضوح معارضتهم للسياسة التقدمية المعادية للإمبريالية التي تتبعها الحكومة والإرتباط القوى بدول المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفيتي ^(١٤)

وفي نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات كان من الواضح أن هذه الطبقة قد بدأت تحتل مركزاً أساسياً ليس فقط في مجال السياسة الزراعية ، بل لقد عكست نفوذها السياسي والاجتماعي القوى ، بعد دعم مراكزها

الإقتصادية والإنتاجية ، فى تواجدھا المكثف فى البرلمان ووحدات وقیادة الإتحاد الإشتراكى ، التنظيم السياسى الوحید الذى كان يعمل على الساحة ، وكذلك فى التعاونیات الزراعیة ومجالس الإدارة المحلیة .

وقد ساعدت على هذا الوضع ثلاثة عوامل أساسية :

- أن الغالبية العظمى للقوانين التى صدرت جاءت فى الأساس فى مصلحتها .
- أن أجهزة الدولة العاملة فى الريف كانت تربطها روابط طبيعية ومصلحية بهذه الطبقة .
- إفتقاد حركة سیاسية أو جماهيرية قوية بین الفلاحین . بل والوقوف ضد أية تحركات فلاحية منظمة تحت دعاوى كثيرة .

الرأسمالية الزراعية المتوسطة

وتقع هذه الفئة فى الحيازات التى تقل عن ٢٠ فداناً حيث يتربع كبار الملاك الرأسمالین ، والتى تزيد ملكیتهم عن خمسة أفدنة حيث یقبع صغار الفلاحین .

وهناك ٢٢٦,٧٢٤ مزرعة تمثل ١٣,٨ ٪ من مجموع المزارع وتمتد على مساحة قدرها ١,٨٤٣,٣٠٠ فدان تمثل ٢٩,٧ ٪ من الأراضى المنزرعة . ويعمل فى هذه المزارع بالملكية أو الإيجار ٢٣٦,٧٠٠ ألف عائلة تمثل ٧,٦ ٪ من كل العائلات العاملة فى الزراعة و ٢٣,٤ ٪ من كل القوى العاملة فى الانتاج الزراعى . من بین هذه

النسبة هناك ٥٠ ٪ منها تمثل قوى العمل العائلية أما النصف الآخر فهى قوة عمل مأجورة . وتستخدم هذه الفئة ٢٠ ٪ من الجرارات ، ٢٥ ٪ من آلات الرى الميكانيكى المستخدم فى الزراعة المصریة ^(١٥) إلا أنه من الواضح أن هذه الفئة تنقسم الى شریحتین رئیسیتین :

- فقطاع منها ینتمى الى ما یمكن تسميته « بالملاك الغائبین » الذین یقسمون ملكیاتهم الى مساحات صغيرة ویقومون بتأجيرها بأشكال الإيجار المختلفة ، نقدى أو عینى أو مشاركة فى المحصول ، وغالبیتهم تقيم فى المدن ، وتمتحن منها ونشاطات أخرى بعيدة عن العمل الزراعى (موظفون - مهنیون - أعمال تجارية) . وهذه الشريحة تعتبر فى واقع الأمر طفيلية على عملية الإنتاج الزراعى ، ولذلك فهى تمثل عقبة أمام تطور الإنتاج وعلاقاته .

ولما كانت عناصر كثيرة منها تحتل مراكز وسيطة أو حتى قیادية فى أجهزة الدولة ، بما فى ذلك الأجهزة العاملة فى الريف ، فقد كان من الطبیعى أن تعرقل تنفيذ أية قوانين قد لا تكون فى صالحها أو تمس هذه المصالح وخاصة قوانين تنظيم الإيجارات . وهى بالطبیعة والمصلحة تمیل الى الإتجاهات الیبنية المحافظة ، وقد عارضت التوسع فى مهام التعاونیات أو إقامة قطاع عام زراعى قوى لخطورة ذلك على مصالحهم ونفوذهم فى بلادهم .

كما إستطاع عدد لیس بالقلیل منهم أن یذهب الى البرلمان أو يحتل مواقع هامة فى الإتحاد الإشتراكى یعتبرهم ممثلین للفلاحین .

- أما الشريحة الهامة الأخرى ، فهى الذین یباشرون زراعة ملكیاتهم أو حيازاتهم بأنفسهم ، وغالبیتهم

يقيمون في القرية ، ويمثل النشاط الزراعي الجانب الأساسي في عملهم ونشاطهم . ولقد إستفاد هؤلاء على طول الخط من كل القوانين التي صدرت في الخمسينات والستينات في مجال الزراعة ، فتحديد الملكية أعطى لهم والملكياتهم المتوسطة حقيقة ونفوذاً أوسع ، كما أن التوسع في التعاونيات ومهامها ، وكذلك تنظيم الإيجارات إزاح من طريقها ، الفئات الطفيلية وأعطى لها الفرصة لتزيد من ملكيتها وحيثيتها ، ويتضح ذلك من أنها زادت من مساحة أراضيها من ٢٤,٥ ٪ الى ٢٩,٧ ٪ من مساحة الأراضي المنزرعة في الفترة بين ١٩٥٢ - ١٩٦٥ . وقد حصلوا على نصيب الأسد من مبيعات كبار الملاك للأراضي الزائدة عن الحد في الفترة الأولى من تطبيق قانون الإصلاح الزراعي ، فقد كانوا الوحيدين الذين تتوافر في أيديهم الأموال اللازمة للشراء .

كما أن التوسع في إعطاء القروض العينية والنقدية من خلال التعاونيات أتاح لهم قبل غيرهم فرصة أوسع في الحصول على نصيب أكبر من هذه القروض المعفاة من الفائدة (١٦) .

كما أن قوانين تنظيم الدورة وفر لهم ظروفًا مثالية لإستغلال صغار الفلاحين وإحتياجاتهم الأساسية من القمح والأرز والذرة ، وأصبحوا هم سادة السوق في القرية والسوق السوداء بشكل خاص .

ولما كانت هذه الفئة تقيم في القرية ، فقد كانت هي التي قادت في الواقع نضال الفلاحين في الصراع الوطني والطبقي الذي كان محتدماً قبل ثورة ١٩٥٢ ضد الإحتلال البريطاني والقوى الإقطاعية وشبه الإقطاعية وعلى رأسها القصر ، لذا كان من الطبيعي أن تحتل معظم المراكز القيادية في القرية سواء من الناحية السياسية أو التنفيذية أو الإنتاجية « العمدة والمشايخ » ورؤساء الوحدات المحلية ووحدات الإتحاد الإشتراكي . « وقد أكدت دراسات عديدة أن هذه الفئة تحتل ٧٠ ٪ من مواقع القيادات في المنظمات الجماهيرية والسياسية المختلفة العاملة في القرية والأقاليم . (١٧)

على أنه يمكن تقسيم هذه الفئة من متوسطى الحائزين الى ثلاث شرائح رئيسية وفقاً لحجم ونوعية القوى العاملة في الحياة الواحدة :

فهناك الشريحة الدنيا وهي التي تعتمد على قوة العمل العائلية في زراعة أراضيها ولا تستخدم أية قوة عاملة أخرى مأجورة ، ربما فيما عدا أوقات الذروة في الحصاد ، ووضع هذه الشريحة اقتصادياً وإجتماعياً يقترب الى حد كبير من وضع صغار وفقراء الفلاحين .

أما الشريحة الوسطى فهي تستخدم بالإضافة الى قوة العمل العائلية ، قوة أخرى مأجورة سواء بشكل دائم أو موسمي أما الشريحة العليا فهي غالباً ما تستخدم عمالة مأجورة ، كذلك تتوسع في إستخدام الجرارات والآلات .

وبالرغم من التباين النسبي في مواقع هذه الشرائح الثلاث إلا أنه يجمعها عدة سمات أساسية مشتركة تضع حدوداً فاصلة بينها وبين صغار وفقراء الفلاحين .

فهى تحقق فائضاً من الإنتاج تبيعه في السوق ، وتوسع من ممتلكاتها في الأرض والماشية ، كما يمتلك غالبهم بيوتاً متميزة في القرية وأحياناً بعض الملكيات الأخرى مثل الآلات الزراعية والماشية .

ومن الناحية السياسية لعبت هذه الطبقة الوسطى الزراعية دوراً ثورياً في الريف وفي الحياة المصرية بشكل عام وذلك في النصف الأول من القرن العشرين ، وقادوا في واقع الأمر نضال الفلاحين ضد الإقطاع والاستعمار . وقد كانوا هم القيادة الحقيقية في الريف إبان ثورة سنة ١٩١٩ ، كما قادوا هبات الفلاحين ضد الإقطاع والأسرة المملوكة في قرى بهوت وكفور نجم في الشرقية والدقهلية في سنوات ١٩٥٠ - ١٩٥٢ . واستقبلوا ثورة سنة ١٩٥٢ والإصلاح الزراعي بحماس كبير ، وقد كان من الطبيعي أن تختلف مواقعهم نسبياً بعد ذلك مع التطورات الإجتماعية والاقتصادية والتغيرات التي بشرت بها الإجراءات الأكثر تقدماً خلال مرحلة الخمسينيات والستينيات .

وبعد إصدار تلك القوانين التي سميت بالإصلاح الزراعي الثاني سنة ١٩٦١ ، بدأت شرائح هامة منهم تتحسس مصالحها بل وتغير مواقفها ، مثلما حدث عندما أعلنوا بوضوح معارضتهم للقانون الذي كان يعطى لصغار الحائزين أغلبية في مجالس إدارة الجمعيات التعاونية ، كما عارضوا أيضاً التوسع في مهام الجمعيات التعاونية وخاصة في مجال تسويق الحاصلات الزراعية ، ووقف ممثلوهم في وحدات الاتحاد الاشتراكي وأجهزة الحكم المحلي ومجلس الأمة ضد فكرة إقامة قطاع عام قوى في الزراعة على الأراضي الجديدة المستصلحة ، وطالبوا بوضوح ببيع وتوزيع هذه الأراضي في قطع صغيرة .

وفي منتصف الستينيات ، وبالتحديد سنة ١٩٦٦ وبعد حادثة كشيح وإغتيال أحد العناصر القيادية والتقدمية العاملة في الريف على أيدي كبار الملاك ، ورد الفعل القوي بين صغار الفلاحين وعمال الزراعة ، الذي أوحى في تلك الفترة بزيادة التحالف والفاعلية في الحركة السياسية لجاهير الفلاحين ، بدأ اتجاه أغنياء الفلاحين يميل بوضوح للمعسكر الآخر .

ولا شك أن موقف الفلاح المتوسط والموقف منه كان ومازال أحد القضايا الهامة التي أثارت مناقشات عديدة وخصبة بين القوى الثورية . ففي مرحلة الثورة الوطنية والديمقراطية غالباً مايتخذ الفلاح المتوسط موقفاً مسانداً لجاهير الفلاحين ، بينما يبدأ هذا الموقف في التغير عندما تدخل الثورة في مرحلة التغيرات الإجتماعية والطبقية . وينزعج للغاية عندما يحس أن مركز الثقل والنفوذ في القرية سينتقل من يده الى قوى أخرى وخاصة فقراء الفلاحين وعمال الزراعة^(١٨) وفي أوائل السبعينات كان من الواضح أن متوسطي الملاك والحائزين قد إختاروا في النهاية جانب الملاك الرأسماليين الكبار ضد الفئات الفقيرة في الريف ، وقد أدى الى ذلك الوضع عوامل كثيرة منها الإفتقاد الى حركة جماهيرية فعالة في الريف ، والإعتماد التام على أجهزة الدولة في تنفيذ الإجراءات والقوانين في الريف .

والأمر يختلف تماماً عندما تتحول المعركة ضد الإقطاع والاستعمار الى معركة داخلية ضد الإستغلال وكان غالبية متوسطي الملاك قد ترجوا بوضوح إنزعاجهم من التطورات الإجتماعية والاقتصادية ، وقد لعبت هذه الفئة دور « حصان طروادة » في دعم مراكز كبار الملاك والرأسماليين في الريف .

وقد أوضحت السبعينيات أنهم لم يقفوا فقط ضد الإتجاهات الثورية في الريف بل وعملوا على مطاردتها وتصفيتها بكل الصور ، ولفتح الباب واسعاً أمام الإستغلال الرأسمالي المكثف في الريف ، هذا التطور الذي جعلهم أنفسهم أول الضحايا .

صغار الفلاحين الحائزين

تقول الإحصائيات أن المزارع التي حيازتها أقل من خمسة أفدنة تبلغ ١,٢٨٢,٢٤١ مليون مزرعة تبلغ مساحتها ١,٣٥٤,٤٢١ مليون فدان أى ٢٧,٩ ٪ من مجموع المساحة المنزرعة (٢٠) ويعمل عليها ٣,٤٢٩,٧٦٤ مليون شخص أى ٧١ ٪ من مجموع القوى العاملة فى الزراعة ، منهم ٩٠ ٪ من القوى العاملة العائلية ، والباقي ١٠ ٪ من القوى المأجورة غالبيتها العظمى لفترات موسمية . وتستخدم تلك المزارع ٧ ٪ من جميع الجرارات العاملة فى الزراعة ، ١٧ ٪ من آلات الرى الميكانيكية .

وتتيز هذه الفئة بثلاث قسات :

- إنها تعمل بنفسها فى حيازتها الزراعية مستخدمة فى الأساس القوى العاملة العائلية غير المدفوعة الأجر ، وبعض القوى العاملة المأجورة وبشكل محدد للغاية وفى فترات مواسم الذروة (التجهيز - الحصاد) .
- إنتاج مزارعهم يكاد يكفى بالكاد إحتياجتهم الضرورية ، ولذلك تضطر الشرائح الدنيا منهم الى بيع قوة عملها والعمل كعمال زراعيين فى بعض المواسم .
- تخلف الادوات والوسائل المستخدمة فى الزراعة ، كما أنهم يزرعون غالباً محاصيل تقليدية للاستهلاك الذاتى والعائلى .

وهذه القسات الثلاث هى التى تميزهم ، طبقياً وإجتماعياً ، عن طبقة عمال الزراعة التى تقع أسفلهم مباشرة فى السلم الطبقي ، كما تميزهم أيضاً عن فئة متوسطة الحائزين الذين يقعون فى الشريحة الأعلى فى السلم الطبقي .

وقد أدى التشابه الكبير فى ظروف وأوضاع الشرائح الدنيا من هذه الفئة مع عمال الزراعة الى أن لجأ البعض الى تقسيمهم الى شريحتين : الشريحة العليا من صغار الحائزين وهى التى تقع حيازتها بين ٣ - ٥ أفدنة ، والشريحة الدنيا وهى التى تحوز أقل من ثلاثة أفدنة .

وبالرغم من وجود بعض المنطق فى ذلك التقسيم ، إلا أننا لا نأخذ به ولا نذهب إليه . حقيقة تشابه الأوضاع الإجتماعية والمعيشية للشريحة الدنيا بدرجة كبيرة مع عمال الزراعة بل أن قطاعات هامة من هذه الشريحة الدنيا تضطر بالفعل للعمل جزءاً من الوقت كعمال زراعيين ، ولكن تبقى وضعيتهم كحائزين لتمثل فاصلاً حقيقياً بينهم وبين عمال الزراعة المعدمين ، بل إنهم قبل غيرهم حريصون على هذا التميز . وهذا يجعل تقسيم هذه الشريحة الى فئتين تقسماً مصطنعاً وغير حقيقى .

ومن الطبيعى أن يكون للإصلاح الزراعى والإجراءات الأخرى التى أتخذت فى مجال تنظيم الإنتاج أثرها الواضح على أوضاع هذه الفئة ، ومن السهل القول أنها ومنذ سنة ١٩٥٢ قد تمكنت من زيادة نصيبها من الأراضى الزراعية كما أتسعت قاعدتها البشرية (٢١)

ففى سنة ١٩٦٥ كانت هناك مساحة قدرها ٧٧٣,١٢٧ ألف فدان قد وزعت على ٢٦٦ ألف فلاح وفقاً لقوانين الإصلاح الزراعى .

ولا غلك إلا أن نتحفظ إزاء بعض الإحصائيات في هذا الخصوص وخاصة وأن بعضها يختلف باختلاف مصادرها ، إلا أنه من المؤكد أن علينا ونحن نورد المساحة التي يزرعها صغار الحائزين ، أن نضع في إعتبارنا أن هناك بعضاً من متوسطى الملاك قد يدخلون في هذه الإحصائيات نظراً لتوزيع ملكياتهم قطعاً صغيرة في أكثر من مكان أو قرية .

فقوانين تحديد الملكية ، وتنظيم الإيجارات ، والتوسع في مهام التعاونيات الزراعية ، وعدد آخر من الإجراءات كان لها تأثيرها الإيجابي في أوضاع هذه الفئة ، وإن كانت الأبحاث والدراسات الميدانية العديدة قد توصلت الى أن هذا التغير لم يكن جذرياً .

ويعود ذلك الى ثلاثة عوامل هامة :

● سيادة دور الفلاح الغنى وكبار الملاك الذين يحوزون بين ٥ - ٥٠ فدانا ، فهؤلاء ظلوا يضعون أيديهم على ٥٠ ٪ من الأراضي الزراعية ، وكانت تقع في أيديهم المراكز الأساسية في المؤسسات السياسية (الاتحاد الاشتراكي) والإنتاجية (التعاونيات) والإدارية (المجالس المحلية) بالإضافة الى الوظائف التقليدية في القرية مثل العمد والمشايخ .

● تولى أجهزة الدولة مسؤولية تطبيق الإجراءات والقوانين الإصلاحية بشكل شبه مطلق وهذه الأجهزة التي لم تطرأ عليها تغيرات جذرية ، وخاصة العاملة في القرية ، ظلت محافظة بدرجة كبيرة على تركيبها البيروقراطية والمعادية للفلاح ، وخاصة العاملون في وزارة الزراعة ، (المهندسون والفنيون) وفي البنوك التي تتعامل مع الفلاح .

● غياب حركة سياسية وجاهيرية فلاحية منظمة ، والحساسية المفرطة إزاء أية تحركات سياسية أو جماهيرية بين فقراء الفلاحين وعمال الزراعة ، حتى أن اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي ، وهو التنظيم السياسي الوحيد الذي كان مسموحاً له بالعمل ، كثيراً ما فصلت من عضويتها عناصر فلاحية نشيطة تحت دعوى أنها تمارس نشاطاً مغرباً .

وقد أدت تلك العوامل الثلاثة في الأساس الى تعطيل أو الحد من الفاعلية الحقيقية لكثير من الإجراءات المتقدمة التي اتخذت وكان من الممكن أن تكون لها تفاعلاتها الأعمق على وضعية صغار وفقراء الفلاحين ، بل وأنه تحت الضغوط المباشرة لأغنياء الفلاحين الذين عمدوا أنفسهم كسادة جدد في القرية ، أمكن إلغاء عدد من القوانين التي كانت تستهدف دعم وحماية صغار الفلاحين ، مثل القانون الذي كان ينص على أن يتشكل مجلس إدارة الجمعيات التعاونية بحيث يكون ٥/٤ المجلس من يحوزون خمسة أفدنة فأقل ، ومثل القرار الخاص بالتوسع في إنشاء مزارع تعاونية ومزارع دولة على الأراضي الجديدة المستصلحة .

كما نجح ممثلو البرجوازية الزراعية في البرلمان (مجلس الأمة) في إستصدار قرار يمنع إنتخاب أى فلاح أمي ، يجهل القراءة والكتابة ، في قيادة أية مؤسسة أو وحدة سياسية أو إنتاجية عاملة في الريف ، واضعين في الإعتبار أن نسبة الأمية بين فئة صغار وفقراء الفلاحين تصل الى حوالي ٩٠ ٪ ، فإن هذا القرار يعنى من الناحية العملية صكوكاً بالحرمان ضد مشاركتهم في أى عمل سياسى أو إنتاجى في القرية .

عمال الزراعة

ويمثلون القاعدة العريضة في الزراعة المصرية ، وليس لهم وجود على خريطة الحياة أو الملكية ، ولقد بدأت هذه الفئة تظهر بوضوح في القرية المصرية في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر عندما بدأت قوانين الملكية الزراعية المصرية تتطور وتستقر ، وعندما إستحوذ الملاك الإقطاعيين وشبه الإقطاعيين على الجزء الأكبر من المساحة المنزرعة (٢٦)

وفي سنة ١٩٥٢ كان هناك حوالى ٢ مليون عامل زراعى لا يملكون أو يحوزون أية مساحة من أرض ، ويبيعون قوة عملهم للملاك أو للدولة بشكل دائم أو موسمى ، ويحصلون على أجور نقدية أو عينية .

وقد قدر عدد عمال الزراعة سنة ١٩٧٥ بـ ٢,٤٥٨ مليون عامل في حين أن مجموع القوى العاملة في الزراعة قدرت ذلك العام بـ ٤,٠٤٨ مليون ، ومعنى ذلك أن ٦٠ ٪ من العاملين في الزراعة من العمال الزراعيين لا من الحائزين ، ولقد أدت الى ذلك عدة عوامل وتطورات من أهمها : (٢٨)

● زيادة عدد سكان الريف في الفترة من ١٩٥٠ - ١٩٧٠ بمعدل أكبر من زيادة المساحة المنزرعة . فقد ارتفع عدد سكان الريف في تلك الفترة من ١٣,٧ مليون الى ١٨,٧ مليون أى بنسبة ٤٠ ٪ في حين أن المساحة المنزرعة لم تزد إلا بنسبة ٨ ٪ (من ٥,٧ مليون الى ٦,٤ مليون في نفس الفترة) .

● تواصل سياسة التفتيت في الأراضى الزراعية نظراً لسياسة توسيع قاعدة الملكية الصغيرة التى كانت السياسة الزراعية المعلنة للإصلاح ، وقد أدى ذلك الى الوضع المتردى الذى أصبح فيه ٢,٢٥ مليون من مجموع الحائزين أى بنسبة ٧٢ ٪ ممن يملكون فداناً فأقل ، وقد أدت سياسة التفتيت الى إضافات سنوية متصلة للعمال الزراعيين .

● بالرغم من كل الإجراءات التى اتخذت ، فقد استمرت سياسة تركيز الملكية بشكلها النسبي والمطلق . ففى سنة ١٩٧٠ كان ٥ ٪ من الملاك يحوزون على ٤٥ ٪ من الأراضى كما حدث في هذه الفترة نمو نسبي للملكيات المتوسطة والكبيرة . ومن ناحية أخرى أدت قوانين تحديد الملكية الى إتجاه البعض من أصحاب الملكيات الكبيرة والمتوسطة الى زراعة أرضهم بأنفسهم معتمدين في الأساس على القوى العاملة العائلية ، وقد قلل ذلك من مساحة الأراضى المؤجرة التى كانت تستوعب جزءاً من العائلات المعتمدة .

● كما أن الأراضى الزائدة عن الحد والتى وزعت ، ذهبت الى صغار الفلاحين لا للمعتمدين وفقاً للقانون . بالرغم من أن نسبة العمالة الزراعية قد إنخفضت في تلك الفترة من ٥٤ ٪ الى ٥٠ ٪ من القوى العاملة في البلاد سنة ١٩٦٧ ، إلا أننا نلاحظ أن الزيادة التى طرأت على القوى العاملة في الصناعة لم تتعد ٢ ٪ في تلك الفترة (من ١٠,٥ ٪ الى ١٢,٥ ٪) أى أن الزيادة في النشاطات الصناعية لم تستوعب قطاعات هامة من العمال الزراعيين .

وهناك فرق كبير بين العمل الجدى على نحو الأمية ، وهذا لم يحدث على أى حال ، وبين إستغلال ذلك لإستبعاد فقراء الفلاحين وعمال الزراعة فى الأساس من التشكيلات القيادية للعمل فى القرية . كما أن السياسة المعلنة فى ذلك الوقت « بتوسيع قاعدة الملكية الصغيرة » وقفت حائلاً دون تطوير حقيقى للأوضاع الإنتاجية والسياسية لجمهير الفلاحين فى بناء تعاونيات إنتاجية تقوم على المساحات الكبيرة قادرة ليس فقط على دفع العمل السياسى والإجتماعى لصالح هؤلاء الذين لا يحوزون إلا على مساحات قزمية لا تكاد تفى بمطالبهم الأساسية فى الحياة .

وقد ظل صغار وفقراء الفلاحين فى واقع الأمر ، لا تملك الغالبية العظمى منهم سوى ظروف حياتية وإجتماعية متدنية ، وإعتاد أكبر على الشرائح العليا من أغنياء الفلاحين ، ومن ناحية أخرى فإن هذا « الوهم » ظل يلعب دوره فى الرغبة فى تميز هؤلاء الحائزين الصغار والفقراء عن عمال الزراعة والمعدمين ، الأمر الذى خلق تناقضاً فى المصالح بين تلك الفئات والتى لم تكن تختلف كثيراً فى ظروف حياتها السيئة (٢٣) وكان من نتائج ذلك أن وقع صغار وفقراء الفلاحين تحت تأثير القيادة المباشرة لكبار الملاك وأغنياء الفلاحين ، حتى أنهم كثيراً ما وقفوا فى وجه قوانين كانت تستهدف مصلحتهم هم ، مثل القوانين الخاصة بالتسويق التعاونى وإنشاء مزارع تعاونية تجريبية واسعة . لقد أدى فقدان الوعى بين هذه الفئة الى تبنيها لوجهة نظر البورجوازية الزراعية والدفاع عنها فى بعض الأحيان . (٢٤) .

ومن الطبيعى أن يكون الوضع مختلفاً فى المناطق التى خضعت لتطبيقات قوانين الإصلاح الزراعى ووزعت فيها الأراضى على صغار المنتفعين . ففى هذه المناطق لم تكن هناك فئات أغنياء الفلاحين ، وأدى ذلك الى تطوير حقيقى فى ظروف وأوضاع المنتفعين الصغار مثلما يتضح من التوسع فى مهام التعاونيات الزراعية فى مناطق الإصلاح ، والتوسع كذلك فى إستخدام الآلات والوسائل العلمية . مما انعكس على الأوضاع الإجتماعية والسياسية بشكل واضح .

وقد تميزت مناطق الإصلاح الزراعى بوجود وعى فلاحى متزايد ، وبن ذلك بوضوح فى مواقف ممثليهم فى البرلمان ، أو فى وحدات الاتحاد الإشتراكى ، وهم الذين كانوا يهاجمون فى ضرواء أخطاء أجهزة الدولة والتحالف الذى قام بين بعض هذه الأجهزة وبين أغنياء الفلاحين وكبار الملاك . إلا أن تلك المناطق وفى ظل السيادة المتزايدة لأغنياء الفلاحين ظلت تمثل مراكز متقدمة ومعزولة ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى أن تفقد وضعيتها الخاصة وليس فقط قدرتها على الإشعاع .

ولقد نما فى هذه المناطق عمل سياسى وإنتاجى منظم لعب فيه الماركسيون والعناصر التقدمية دوراً ملحوظاً ، إلا أنه لم يستطع أن يتعدى حدود التجارب الخاصة الى ساحة الوطن ككل (٢٥) .

وفى نهاية الستينيات ، وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ وسياسة التراجعات التى إرتبطت بها . كان من الواضح أن صغار وفقراء الفلاحين كانوا يفقدون المزيد ، وتتوارى أكثر وأكثر الفرصة التى لاحت فى الستينيات لإجراء تغييرات جذرية فى أوضاع هذه الفئة الهامة .

وأصبح الفلاح الغنى ، هو السيد القائد للقرية بدون منازع .

عدد العائلات المعتمدة في الزراعة المصرية (٢٧)
١٩٥٠ - ١٩٧٠ (بالآلف)

١٩٧٠	١٩٦٥	١٩٦١	١٩٥٠	
٣,٥٧٤	٣,٣٤٥	٣,٢٢٤	٢,٧٤٠	التعداد الكلى للعائلات المقيمة في الريف
٧٣٤	٦٣٥	٦٣١	٥٢٠	تعداد العائلات التى لاتعمل فى الزراعة
١,٨٥٣	١,٧٨٥	١,٦٤١	١,٢١٧	تعداد العائلات الحائزة
١,٢٦٩	١,٢١٧	١,١٢٥	١,٠٠٣	العائلات التى لاتملك
				نسبة العائلات المعتمدة الى مجموع
% ٣٥	% ٣٥,٤	% ٤٠,٧	% ٣٣	العائلات العاملة فى الزراعة

ويمكننا أن نقسم العمال الزراعيين الى ثلاث فئات :

أولاً : عمال القرية ، وهم الذين يعملون فى أراضى الغير فى نفس القرية أو فى القرى المحيطة ، ويمثلون خليطاً من العمال والملاك أو المستأجرين لمساحات قزمية ، وغالبيتهم العظمى وخاصة الحائزون لمساحات قزمية يعمل فى بعض المواسم وخاصة مواسم الذروة (الرى - إعداد الأرض وزراعتها - جمع القطن) ويزداد أعداد العمال فى المحافظات التى تتميز بتركيز شديد فى الملكية الزراعية مثل الدقهلية والمنيا (٢٨)

ثانياً : العمال الدائمون ، وهم الذين يعملون بعقود دائمة لدى كبار الملاك أو فى بعض المشروعات الزراعية التى أقامتها الدولة مثل مديرية التحرير ، وقد شهدت هذه الفترة زيادة فى أعدادهم نظراً لزيادة الاتجاه لدى كبار الملاك بإستخدام المزيد من الآلات والوسائل الحديثة لزراعة أراضيهم ، من ناحية ، وشهدت من ناحية أخرى ، إتجاه سياسة النظام فى ذلك الوقت الى مشروعات زراعية كبيرة سواء فى مجال إستصلاح الأراضى أو إقامة المزارع التجريبية .

ثالثاً : عمال التراحيل ، وهم عمال موسميون يتم جمعهم من القرى عن طريق « مقاول الأنفار » للعمل فى مشروعات زراعية كبيرة قد تستغرق شهراً أو شهرين ، وقد تكون لحساب مشروعات تقوم بها الدولة أو كبار الملاك (٢٩)

ويقدر عدد العمال الدائمين حوالى ٦٠٨ ألف عامل يعمل بعقود ثابتة فى مزارع كبار الملاك أو مشروعات الدولة ، بينما يقدر عدد العمال الموسميين بـ ١,٨٥٠ مليون عامل . ولاشك أن النظام الوطنى لثورة ٢٣ يوليو كان مدركاً الى حد ما بمشكلة الزراعيين ، وكثيراً ما أشار الرئيس جمال عبد الناصر نفسه الى الظروف القاسية التى يعمل فيها هؤلاء العمال . وقد اتجهت القوانين إزاءهم فى اتجاهين أساسيين .

● وضع حد أدنى للأجور .

● السماح لهم بإقامة تنظيماهم النقابية المستقلة (٣١)

أما فيما يتعلق بالأجور ، بالرغم من الزيادة الملحوظة إلا أنها ظلت دون الوفاء بالاحتياجات الأساسية للعائلة للعامل ، وقد أدت الزيادة السنوية في إعداد المدمين والإمكانيات المحدودة التي تقدمها الزراعة في شكلها الإنتاجي والغير منظم . كذلك التخلف الشديد لوسائل الإنتاج الى أن يضطر هؤلاء العمال للقيام بأعمال صعبة في مقابل أجور غير مناسبة . فقد أطلقت هذه الظروف الحرية لكبار الملاك والمقاولين لفرض شروطهم المجحفة (٣٢)

أما فيما يتعلق بنظم عمال الزراعة ، فلا بد وأن نسجل بأنه ولأول مرة من ذلك الحق . وقد تشكل إتحاد عمال الزراعة من ٤٢٠٠ لجنة نقابية شملت ١٥٠ ألف عامل زراعي ، وهي شبكة لا يستهان بها كان بإمكانها أن تلعب دوراً أساسياً في تطوير الحياة الإنتاجية والاجتماعية والسياسية بل والثقافية أيضاً في القرية المصرية ، ولكن الواقع العملي الذي أثبتته دراسات عديدة ، ظل بعيداً عن تحقيق هذه الأهداف ، فلقد كانت قيادات هذه اللجان النقابية تتمثل في الأساس في ممثلين لأجهزة الدولة ، أو كانت هناك حساسية مفرطة من جانب تلك الأجهزة إزاء أي تحرك حقيقي لنقابات عمال الزراعة ، كما دخلت في صفوفها عناصر إستغلالية كثيرة من مقاولي الأنفار وتجار القرى ، الذين وجدوا الفرصة سانحة لإستغلال هذه التنظيمات النقابية لتحقيق أغراضهم الذاتية ، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك . (٣٣)

ليس هناك شك أن عمال الزراعة هم أكثر الفئات العاملة في الريف إستعداد لإجراء تطورات جذرية في الإنتاج وعلاقاته . فليس لديهم ما يفقدونه سوى فقرهم وبؤسهم ، وقد توافرت لديهم دائماً الرغبة والشجاعة في قيادة حركات التمرد الفلاحية ضد طغيان والإقطاع والاحتلال في فترات سابقة ، وقد حذر لورد كرومر ومن بعده كتشنر المعتمد البريطاني في مصر في أوائل القرن العشرين من خطورة الدور الذي يمكن أن تلعبه الطبقة العاملة الزراعية في مصر وفي التقارير التي أرسلها الى وزارة الخارجية البريطانية أشار الى أن « تلك الأعداد المتزايدة من المدمين وعمال الزراعة سيقعون للأفكار الاشتراكية الخطرة . مثلاً حدث في أوروبا وما زلنا نعانى منه (٣٤) » .

ومن الملاحظ أن كلا من كرومر وكتشنر قد نصحا ، « بضرورة توسيع قاعدة الملكية الصغيرة وحمايتها كحل لمواجهة المخاطر التي أشار إليها » .

وفي سنة ١٩٤٢ عندما تصاعدت الحركة الوطنية والشعبية في مصر وصدر أو قانون بالسماح بتشكيل النقابات والإتحادات العمالية . حرص مشرعو القانون على إستثناء عمال الزراعة من هذا الحق (٣٥)

وبالرغم من السياسة المعلنة لثورة ٢٣ يوليو في مساندة حق هؤلاء العمال وفي العمل من أجل تحسن أوضاعهم ، إلا أننا لا بد وأن نعترف أن الحساسية المفرطة إزاء أي نشاط نقابي حقيقي ومستقل ظلت سائدة من أجهزة الدولة ، وقد حلت كثير من التنظيمات النقابية لعمال الزراعة بدعوى سيطرة عناصر مخربة ، وهو التعبير الذي كان يطلق دائماً على العناصر اليسارية ، كما أن إعتاد النظام الوطني على سياسة ، « توسيع قاعدة الملكية الصغيرة » قدم مبررات موضوعية لمحاورة حركة النقابات العمالية الزراعية فلقد أصبح الهدف الرسمي هو الوصول الى مرحلة الحيابة أو الملكية ولو على حساب الإنتاج وتنظيماته السياسية والجهادية .

لقد ساعدت ولا شك الإجراءات التي اتخذت لصالح العمال الزراعيين مثل وضع حد أدنى للأجور وتوفير جانب من الرعاية الصحية والاجتماعية لهم على إنتقالهم بشكل عام الى وضع أفضل ، وفي السنوات بين ١٩٦٤ - ١٩٦٦ ، كان من الواضح أن ثمة إرهابات قوية لحركة النقابات العمالية الزراعية وخاصة في المزارع الجماعية والتجريبية في بعض المحافظات ، التي بدأت تعي دورها جيداً في التحالف مع صغار الفلاحين للوقوف ضد أشكال الإستغلال المحتملة ، مثل أبو قرقاص (محافظة المنيا) وأرمنت (محافظة قنا) كما برزت من بينهم قيادات تقدمية ويسارية ، أشاعت لونها من الحياة والحركة في تلك التنظيمات (٣٦)

إلا أن حركة عمال الزراعة لم تكن بمعزل عن ضعف الحركة الفلاحية الجماهيرية بشكل عام ، كما أن سياسة « التراجع » التي أعقبت هزيمة ١٩٦٧ ، أنهت الى حد كبير الإرهابات الثورية لإجراء تغييرات ضرورية في الريف وعلاقات الإنتاج . وظل عمال الزراعة حتى بداية السبعينات في وضع اقتصادي وإجتماعي لا يفضل كثيراً أوضاعهم السابقة ، بنسبة تزيد عن ٩٠ ٪ مقتدين للوعي الطبقي ، مهوورين من جميع الطبقات الأخرى حتى من صغار الملاك والحائزين الذين وإن لم تكن أوضاعهم الاقتصادية تفضلهم ، إلا أنهم كانوا دائماً حريصين على التمايز كحائزين في مواجهة هؤلاء المعدمين .

لقد كان وضعهم مناقضاً تماماً للأحلام والتصورات التي رسمها ميثاق العمل الوطني سنة ١٩٦٢ لدور نقابات عمال الزراعة « التي يمكنها أن تلعب دوراً رائداً في إعادة صياغة الحياة في الريف من جديد » (٣٧)

لقد كانت أحلام الميثاق صحيحة من الناحية النظرية . ولكن التطبيق العملي كان شيئاً آخر . فلقد كانت الإجراءات التي اتخذت طوال مرحلة النظام الناصري عاجزة عن إجراء تغييرات جذرية عميقة في الأوضاع الاقتصادية في القرية المصرية .

ملاحظات ختامية حول أثر قوانين الإصلاح الزراعى فى التركيب الطبقي للقرية المصرية

أولاً : لقد أدت هذه القوانين الى تصفية نهائية للفئات الإقطاعية وشبه الإقطاعية من خلال تصفية علاقات الإنتاج المتخلفة ، وقد تحولت شرائح من هذ الفئات الى ملاك كبار تحكمهم علاقات إنتاج رأسمالية فى الأساس ، وقد برز دور البرجوازية الزراعية الكبيرة واضحاً فى أواخر الستينيات ، وقائداً فى النصف الأول من السبعينيات .

ثانياً : احتل الفلاح الغنى والبرجوازية الزراعية المتوسطة ، وضعاً متميزاً طوال فترة التغييرات الإصلاحية ، فإن كل الإجراءات التى اتخذت كانت فى صالحهم على طول الخط ، وفى نهاية الستينات كان من الواضح أن الفلاح الغنى بطموحاته البرجوازية قد أصبح السيد الجديد فى القرية .

ثالثاً : بالنسبة لصغار وفقراء الفلاحين فقد طرأت على أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية تطورات إيجابية نسبية ، إلا أن هذا لم يغير بشكل جذرى دورهم الإنتاجى ووضعهم الطبقي ، وفيما عدا بعض المناطق التى وزعت فيها الأرض ، ظلوا غير قادرين على أن يلعبوا دوراً نشيطاً فى الحياة السياسية والاجتماعية والإنتاجية ، ووقعوا فى النهاية تحت سيطرة الفلاح الغنى باعتباره السيد الجديد ، والذى لعب دور حصان طروادة فى السبعينيات فى تصفية ومحاصرة كل الإجراءات التقدمية التى كانت قد اتخذت لصالح صغار وفقراء الفلاحين .

رابعاً : أما البروليتارية وشبه البروليتاريا الزراعية ، فلم يتح لها فرصة حقيقية لتلعب دورها « فى نسج أسلوب الحياة فى الريف الجديد » بالرغم من بعض الإجراءات الإصلاحية ذات الطابع الانسانى ، فقد حدد من دورها ونشاطها تلك السياسة التى أعتمدها النظام فى « توسيع رقعة الملكية الصغيرة » والحساسية المفرطة للنظام إزاء أى نشاط مستقل لتنظيماتها السياسية والجاهيرية ، كما ظلت معزولة عن حلفائها الطبيعيين المتمثلين فى صغار وفقراء الفلاحين من ناحية ، ولم تتح لهم فرصة حقيقية للإندماج الكامل فى الحركة العمالية بشكل عام ، وخاصة البروليتاريا الصناعية .

ومن كل هذا يتضح أن إجراءات الإصلاح التى تمت فى مجال الزراعة فى تلك الفترة لم تستطع أن تجرى سوى تغيرات نسبية فى التركيبة الطبقيّة . فهى قد أعادت بناء الهرم الطبقي عندما أزاحت عن قوته الطبقات الإقطاعية وشبه الإقطاعية ، ولكن ليحل محلها فى القمة أيضاً كبار الملاك الرأسماليين والفلاح الغنى . وظلت قاعدة الهرم الواسعة المتمثلة فى عمال الزراعة وصغار وفقراء الفلاحين فى القاع مع بعض التحسينات . ولكن الذى لا شك فيه أن الصراع الطبقي والاجتماعى فى الريف قد حقق دفعة واسعة نشطة ، فلقد أصبح الباب مفتوحاً وبشكل واسع لحركة التطور الرأسمالى فى الريف .

وهذا ما أكدته التطورات التى حدثت فى السبعينيات .

إيضاح ختامى

أود هنا أن أؤكد بعض الحقائق التى حاولت أن أشرحها فى ذلك العمل . والتى ربما أدى الفرق فى التحليلات العلمية والإحصائيات التى تفترضها هذه الرسائل ، كذلك الحيز المحدود ، الى عدم وضوحها .

فالذى لاشك فيه أن قيادة ثورة ٢٣ يوليو ، وعبد الناصر على رأسها ، قد خاضت نضالاً حقيقياً على المستوى الوطنى والقومى فى مطاردة الاستعمار والإمبريالية ، وبالرغم من أن إرهابات التغييرات الإجتماعية قد بدأت فى الشهور الأولى للثورة ، إلا أنه وبعد عشر سنوات بدأت القيادة الناصرية تشق لنفسها طريقاً براجماتياً واضحاً فى إجراء تغييرات اقتصادية واجتماعية عميقة تستهدف بناء الاشتراكية ، وتصفية علاقات الانتاج الرأسمالية . وقد شملت حركة التأميمات الواسعة فى الستينات البنوك الأجنبية والمحلية وشركات التأمين والمؤسسات الصناعية والتجارية الكبرى ، وقطاعاً واسعاً من الشركات المتوسطة (حوالى ٨٠ ٪ من المؤسسات الصناعية) . كما ارتبط بذلك اتجاه قوى نحو التصنيع ووضع أسس الصناعة الثقيلة ، وبمعمونة أساسية من الإتحاد السوفيتى ودول المعسكر الإشتراكى ، وقد أدى ذلك الى خلق قاعدة صلبة من القطاع العام فى الصناعة أثبت وجوده حتى بعد ما تغيرت التوجهات السياسية والإجتماعية فى السبعينيات مع سياسة « الإنفتاح الاقتصادى » التى سنها السادات .

وبالرغم من أن الستينيات قد شهدت أيضاً دفعة قوية فى هذا الاتجاه البراجماتى نحو الاشتراكية فى مجال الزراعة وعلاقات الإنتاج فى الريف ، إلا أن هذه الإجراءات ظلت محدودة ولم تتعد إطار تنظيمها على أسس رأسمالية .

ويرجع ذلك الى عدة عوامل :

أولاً : سيادة فكرة « توسيع قاعدة الملكية الصغيرة » باعتبارها الطريق المصرى لبناء الاشتراكية وقد قدمت هذه النظرية كبديل عن الحلول الاشتراكية الأخرى فى مجال الزراعة والتى يقوم على بناء تعاونيات إنتاجية واسعة ، بينما كان ميثاق العمل الوطنى ، والذى يعتبر فى الواقع « الوثيقة النظرية » للثورة يؤكد على ضرورة ملكية الشعب لوسائل الإنتاج الرئيسية فى الصناعة . ويعتبر القطاع العام هو الركيزة الرئيسية لذلك ، إلا أن الميثاق قد اتخذ موقفاً آخر بالنسبة للملكية الخاصة وتوسيع قاعدة الملكية الصغيرة باعتبارها الاختيار المصرى على طريق بناء الاشتراكية فى الريف ، ولقد كان من الواضح أن الخيار فى مجال الزراعة كان الاكتفاء بتصفية العلاقات القطاعية وشبه القطاعية لصالح الرأسمالية الزراعية .

ثانياً : لا شك أن ضرب وتصفية الرأسمالية الكبيرة فى الصناعة كان أسهل بكثير فى تلك الفترة من ضرب وتصفية الرأسمالية فى الزراعة والتى كانت قد أقامت لها بالفعل جذوراً عميقة فى الريف .

(*) كتب هذا الايضاح بعد الانتهاء من كتابة الرسالة وقبل مناقشتها ؟

ولقد لاحظنا هذا النفوذ عند صدور قوانين بتنظيم النقابات العمالية سنة ١٩٤٢ ، حينما استثنيت نقابات العمال الزراعيين من هذا الحق ، كما يلاحظ أن قيادات أساسية في تنفيذ السياسة الزراعية لثورة يوليو كانت تنتمى بالفكر والمصلحة للبرجوازية الزراعية ، مثل المهندس سيد مرعى الذى ظل المسؤول الأول تقريباً عن تنفيذ السياسة الزراعية لمدة ٢٠ عاماً . والمهندس محمود فوزى رئيس الهيئة العامة للتعاونيات ، والأستاذ عبد الحميد غازى أمين الفلاحين فى الاتحاد الاشتراكى العربى فى السبعينيات .

ولقد وضحت التوجهات السياسية والفكرية لهذه القيادات فى فترة السبعينات . ولعل التطورات التى حدثت فى السبعينات بالنسبة للتوجهات السياسية الاقتصادية ، وإعتاد سياسة الباب المفتوح ، تفسر أن هذا الانقلاب السلمى الذى تم ، كانت تسنده طبقات إجتماعية على رأسها كبار الملاك وأغنياء الفلاحين .

ثالثاً : عدم وجود حزب ثورى تعتمد عليه قيادة الثورة فى إجراء التغييرات المطلوبة ، وهناك إعتراف بأن الإتحاد الإشتراكى العربى بتركيبته وأسلوب عمله أبعد من أن يكون التنظيم الثورى المطلوب ، كما كانت هناك حساسية مفرطة إزاء أى تحركات ديمقراطية أو جماهيرية مستقلة . وقد أدى ذلك الى إعتاد مطلق على أجهزة الدولة التقليدية فى تنفيذ سياسة النظام وخاصة فى المجال الزراعى ، واضعين فى الإعتبار أن هذه الأجهزة ، والعاملة منها فى الريف بشكل خاص لم يطرأ عليها تغييرات جوهرية ، ظلت محتفظة بطابعها البيروقراطى والطبقى المميز المعادى فى الأساس لجماهير الفلاحين الفقراء وعمال الزراعة .

ونفس هذه الأجهزة ، أو غالبيتها ، هى التى أشرفت بعد ذلك على محاصرة وتصفية الكثير من الإجراءات التقدمية بعد سياسة « الانفتاح »

رابعاً : يبقى للإصلاح الزراعى فى مصر بعد عربى هام ، فلقد كان أول إجراء من نوعه يصدر فى العالم العربى ، كما كان من أوائل الإجراءات التى اتخذت فى بلدان العالم النامى وبعيداً عن النمط الأمريكى الذى أوحى به أو نفذته فى عدد من البلدان فى ذلك الوقت مثل إيران وتركيا وفرنموزا .

ولا شك أن قوانين الإصلاح الزراعى التى صدرت بعد ذلك فى سوريا والعراق والجزائر واليمن ، تمثلت الى حد كبير قانون الإصلاح الزراعى فى مصر بإيجابياته وسلبياته .

وفى النهاية ، وبغض النظر عن كل الانتقادات التى وجهناها الى هذا القانون ، فلقد فتح عملياً طريقاً جديداً فى مصر والعالم العربى لإجراء تغييرات إجتماعية واقتصادية فى الريف فى إتجاه رأسمالى .

هوامش

١ - تناولت مجموعة من الدراسات والمؤلفات العلمية هذه القضية بالتفصيل ، وفي الأدبيات الاشتراكية الحديثة هناك أربع أعمال أساسية يمكن الرجوع إليها وهي :

- 1 - Tamoz Szentes : The Political economy of underdevelopment Budapest-1971 P. 265 – 267 .
- 2 - T jaunenکو , M. Mirski and others; The Social Structure of developing Countries, Mosccow 1972 P. 99 – 110 .
- 3 - R. Stephenhagens P: Social classes in agricultural Societies – Paris 1969 .
- 4 - T. Tulpanov : economy and its application in the developing lands .
Moscow 1969

- ٢ - تناولنا في الفصل الأول تطور وأوضاع الطبقات والفئات الإجتماعية في الريف قبل ثورة ١٩٥٢ .
- ٢ - قدم سمير أمين في كتابه مصر الناصرية (مارس ١٩٦٤) تقسماً للفئات الإجتماعية في الريف على النحو التالي :
 - المعدمون
 - فقراء الفلاحين (من يملكون أقل من فدان)
 - متوسطو الفلاحون (من يجوزون بين فدان الى خمسة)
 - أغنياء الفلاحين (من ٥ - ٢٠ فدان)
 - الرأسمالية الزراعية (أكثر من ٢٠ فداناً)

وقد اتفق معه الى حد كبير محمود عبد الفضيل في كتابه « التطور وتوزيع الدخل والطبقات في الريف »

٤ - عبد الباسط عبد المعطى : الصراع الطبقي في القرية المصرية - القاهرة ص ١٧٥

٥ - المرجع السابق ص ٢٠٥ ، ٢٠٧

٦ - قدم والتر روستو تصوراً رأسمالياً متكاملأ حول هذا الموضوع في كتابه - The Stages of economic growth , a non Communist manifesto – Cambirdge 1960

٧ - طارق البشري - تقرير حول الإصلاح الزراعي - مجلة الطليعة - سبتمبر ١٩٦٨ -

٨ - كافتحت البرجوازية الزراعية الوليدة قبل ١٩٥٢ ضد سيطرة الإقطاع من خلال مشروعات قدمها ممثلوها في لبرلمان .
فتحى عبد الفتاح - القرية المصرية - القاهرة ١٩٧٢ .

٩ - أيد البنك الأهلي المصري وكذلك إتحاد الصناعات قانون الإصلاح الزراعي الصادر في ١٩٥٤ . وكان يحتل مجلس الادارة فيه عدد من أبرز كبار الملاك الرأسمالين مثل أحمد عبود / حافظ عفيفى / أمين يحيى / المغازى باشا .

١٠ - على صبرى - مشاكل التحول الاشتراكي - القاهرة ١٩٦٧ .

- ١١ - الإصلاح الزراعى الثانى (١٩٦١) مس فى الواقع الفئات العليا من الرأسمالية الزراعية .
- ١٢ - زادت نسبة ممتلكات مس يملكون ٢٠ - ٥٠ فدان فدان فى الفترة من ١٩٥٢ الى ١٩٦٦ من ١٠,٩ ٪ من الأراضى الزراعية الى ١٢,٦ ٪ .
- ١٣ - يعتبر سيد مرعى نموذجاً نقياً لهذه الطبقة ، ولقد احتل طوال الخمسينات وفترة طويلة من الستينات مراكز قيادية فى السياسة الزراعية (وزير الزراعة والإصلاح الزراعى ونائب رئيس الوزراء) .
- ومنذ منتصف الستينات بدأ يتخذ مواقف مضادة لتوسيع مهام التعاونيات الزراعية وإنشاء مزارع دولة فى الأراضى المستصلحة .
- ١٤ - فى دراسة مجلة الطبيعة القاهرية سنة ١٩٦٦ ، عبر ممثلون لهذه الطبقة عن اتجاهات سياسية تتعلق بما أسموه اتباع سياسة واقعية والتقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية وعدم الإرقاء فى أحضان موسكو !!
- ١٥ - لا تلعب ملكية الحيوانات والماشية دوراً هاماً فى التصنيف الطبقي حيث أن غالبية كبار الملاك الغائبين لم يكن لديهم اهتمام بتربية الماشية .

١٦ - ● على صبرى - مشكلات التحول الإشتراكي

● فؤاد مرسى - الإنفتاح الاقتصادى

١٧ - دراسة لقسم الأبحاث فى جريدة الجمهورية فى عشر قرى - الجمهورية ، مايو - يونيو ١٩٦٧

١٨ - كان الموقف من الفلاح المتوسط أحد القضايا الهامة التى شغلت المفكرين الثوريين وقد أعطى لينين إهتماماً خاصاً بالقضية الأولى إذ يقول « إننا نضع سياستنا على أساس فرض التحالف على الفلاح المتوسط . ومن الطبيعى أنه لن يوافق على الإستمرار فى بناء الإشتراكية وإجراء تغييرات جذرية ، وعلينا أن نثبت له بالدليل العلمى أن ذلك هو الطريق الوحيد الذى يجب أن نسلكه ، فحينما يحتدم الصراع بين الفقراء والأغنياء ، بين الملاك وعمال الزراعة ، سيقف الفلاح المتوسط بين بين ، وسيحاول الأغنياء إغراءه لصبه الى جانبهم ، يقولون له أنت مالك وليس لك مصلحة مع العمال الفقراء ، ولكن العمال يقولون له : إن الأغنياء يسعون الى إستغلالك وسرقتك ، وليس أمامك إلا أن تقف معنا فى مواجهة الأغنياء .

ف ا . لينين : التحالف بين العمال والملاحين موسكو ١٩٦٦ ص ٣٣٢

١٩ - فى الفترة من ١٩٧٠ - ١٩٧٥ « اتخذت عدة إجراءات وقوانين تساعد مرة أخرى على تركيز ملكية كبار الملاك ، وفى سنة ١٩٧١ صفيت مزارع الدولة وبيعت الأرض فى المراد العلنى ، وفى ١٩٧٣ جرى التحول عن التسويق التعاونى لبعض المحاصيل ، وفى سنة ١٩٧٤ صفيت قوانين الحراسات وأعيدت مساحات واسعة من الأرض لكبار الملاك وفى سنة ١٩٧٥ عدلت قوانين الإعجازات بما يعطى للمالك حرية أوسع فى طرد المستأجر .

فؤاد مرسى - الإنفتاح الاقتصادى ص ٣٦٦

٢٠ - ٢٨ ٪ من هذه المزارع ملكية خاصة ، والباقي خليط بين الملكية والإيجار .

٢١ - محمود عبد الفضيل - التطور وتوزيع الدخل والتعبيرات الاجتماعية فى الريف

٢٢ - وزارة الزراعة - قسم الإحصائيات - القاهرة سنة ١٩٦٧

٢٣ - ٧٥ / من يملكون حصة أفدنة فأقل ، يملكون فداناً فأقل .

٢٤ - من الصعب إعتبار صغار الملاك والفلاحين الذين يحتلون بين ١٠ ٪ الى ١٥ ٪ من العاملين فى الزراعة بوجوازية صغيرة ، فالواقع أن الإستغلال الإقطاعى وسبة الإقطاع السائد كان يحول دون بلورة طبقية حقيقية للفئات الاجتماعية فى الريف

T. Jegenenko & others : Class Strucutre in developing nations- Moscow 1979 P. 40- 54

٢٥ - كان الفلاحون فى مناطق الإصلاح الزراعى أكثر الفئات دفاعاً عن التطور

٢٦ - فى الفصل الأول تفصيلات عن وضع العمال الزراعيين فى نهاية القرن التاسع عشر

٢٧ - هناك مصادر مختلفة ، وأحياناً تعطى بيانات متناقضة ، ولكنها كلها توضح فى النهاية إتجاهها عاماً ، وقد بدلنا جهداً من أجل الوصول الى الصورة التقريبية ، لقد إعتدنا على بعض المصادر الرسمية الخاصة بالسكان ، وعلى بعض الدراسات الأخرى وخاصة دراسة سمير رضوان عن الإصلاح الزراعى والفقير فى مصر .

٢٨ - فى الإحصاء الزراعى الرابع لوزارة الزراعة (القاهرة سنة ١٩٦٦) كان توزيع العمالة فى الريف كالآتي : ٦٤ ٪ عمالة عائلية ٩ ٪ عمالة مأجورة دائمة ٢٤ ٪ عمالة رسمية ٣ ٪ بطالة كاملة .

فى حين أن دراسات أخرى قدرت فائض العمالة الزراعية بنسب تتراوح بين ٢٥ ٪ الى ٣٠ ٪

عرو عى الدين - ندوة عن فائض العمالة الزراعية - بيروت سنة ١٩٧٥

٢٩ - عرو عى الدين - الإستثمار الزراعى والعمالة فى مصر - دراسة دكتوراة لم تنشر - لندن ١٩٦٦ - ص ٧٣

٣٠ - محمود عبد الفضيل - التطور وتوزيع الدحول والتغيرات الإجتماعية ص ٦٢ ، ٤٠

٣١ - المادة ٢٨ من قانون الإصلاح الزراعى الأول - سبتمبر سنة ١٩٥٤

٣٢ - قدم سمير رضوان صورة عن تطور الأجور الحقيقية لعمال الزراعة في الفترة من ١٩٢٨ - ١٩٧٤ كالآتي :

العام	الأجر المدفوع	معدل الأجر	تكاليف المعيشة	الأجر الحقيقي
١٩٣٨	٣	١٠٠	١٠٠	١٠٠
١٩٤٨	١٠	٣٣٣	٢٧١	١٢٣
١٩٥٢	١٢,٥	٤١٧	٣٣٤	١٢٤
١٩٦٦	٢٥	٨٠١	٤٦٦	١٧٠
١٩٧٠	٢٥	٨٠١	٥٧٦	١٣٨
١٩٧٤	٢٢,٥	١٠٠١	٧٩٢	١٢٥

سمير رضوان - الإصلاح الزراعى والفقير في الريف المصرى ص ٣١

٣٣ - أشار الرئيس جمال عبد الناصر في عديد من خطبة الى الظروف الصعبة لعمال الزراعة والتراخيل (خطابه في مارس سنة ١٩٦٤ - وخطابه في

١٦ مايو سنة ١٩٦٥) وقد ثبت أن تقايأت عمال الزراعة كان يسيطر عليها في كثير من الأحيان المقاولون والعمد وأغنياء الفلاحين

فتحى عبد الفتاح - القرية المعاصرة - ص ٢٥١

٣٣ - أحمد رشدى صالح - كرومر مصر - ص ١٢٢

٣٤ - كانت فكرة توسيع قاعدة الملكية الصغيرة مسيطرة على الحكام الإنجليز في أوائل القرن (كرومر وكتنشر) وكذلك على عدد من المصلحين في

البرجوازية المصرية ، وكانت تقدم كبديل عن الإستقطاب الطبقي الذى يمكن أن يكون خطراً على تطور المجتمع في الريف ومواجهة مخاطر البلشفية والثورة العنيفة على حد تعبيرهم

خليل سرى - الملكية الريفية الصغرى ص ٤٦ ، ٤٨

يوسف محاس - الفلاح - القاهرة ١٩٢٨

مريت غالى - السياسة الزراعية ص ١٩

٣٥ - في بعض الفترات وخاصة في أعقاب تشكيل اللجنة العليا لتصفية الإقطاع سنة ١٩٦٦ ، إندفع العمل في التنظيمات النقابية لعمال الزراعة وقد

كان أحمد رفاعى الإشتراكي الماركسى على رأس إتحاد عمال الزراعة لعترة ، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً وخاصة بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وإتباع النظام لسياسة المهادنة الداخلية

٣٦ - ميثاق العمل الوطنى - القاهرة سنة ١٩٦٤

المراجع

١ - دراسات ميدانية إشتراك فيها المؤلف

- بحث عن العلاقات الإجتماعية في القرى ودور التنظيمات السياسية والجماعية ، قام بها قسم الأبحاث في جريدة الجمهورية تحت إشراف المؤلف ونشرت في الجريدة في الفترة من ١٣ الى ١٧ يونيو سنة ١٩٦٨ .
- دراسة ميدانية عن تطبيقات الإصلاح الزراعى فى عدد من القرى المصرية وقد قام بها مجموعة من الباحثين من بينهم المؤلف ونشرت فى مجلة الطليعة فى عدد سبتمبر سنة ١٩٦٦ .
- دراسة عن السياسة والإنتفاخ فى الريف نشرت فى مجلة الطليعة فى فبراير سنة ١٩٦٨ .
- دراسة ميدانية قام بها المعهد العالى للدراسات الإشتراكية فى بعض قرى الوجه القبلى (بنى سويف — أسيوط) نشرت سنة ١٩٦٧ .

٢ - الوثائق

- برنامج الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى « تنظيم ماركس » « من أجل الإستقلال الكامل والديمقراطية للجماهير » القاهرة ١٩٥١ .
- برنامج اللجنة العليا للتحرر الوطنى « تنظيم ماركس » القاهرة ١٩٤٨ .
- وثائق إجتماعات مجلس الشيوخ - الدورة العادية يناير - أغسطس سنة ١٩٥٠
- وثائق إجتماعات مجلس النواب - الدورة العادية - يناير - مارس سنة ١٩٥٠
- ميثاق العمل الوطنى - القاهرة سنة ١٩٦٢
- تقرير اللجنة العليا لتصفية الإقطاع - القاهرة سنة ١٩٦٠

٣ - الكتب والمؤلفات

(عربى ومترجم)

الحركة العمالية فى مصر - القاهرة ١٩٦٧

• رؤوف عباس

- أمين عفيفى
- مجموعة علوية
- إبراهيم عامر
- سمير أمين
- حامد عمار
- مرزق عارف
- شهدى عطية
- هنرى عيروط
- طاهر عبد الحكيم
- جورج باسيلي
- هـ . شبلر
- ح . شبنو وآخرون
- ف . أ . لينين
- ف . أ . لينين
- ا . كروثلى
- عبد الفتاح فرح
- فتحى عبد الفتاح
- فتحى عبد الفتاح
- محمود فوزى
- مريت غالى
- سعد هجرس
- أحمد حسن
- أحمد لحنة
- كريستوفر هيرولد
- خالد محمد خالد
- حسين خلاف
- عثمان الخولى
- عثمان الخولى
- أنور عبد الملك
- روبرت مابرو
- سيد مرعى
- المشكلة السكانية
- عبد الباسط عبد المعطى
- عمرو محى الدين
- فؤاد مرسى
- سمير رضوان
- محمود عبد الرؤوف
- تاريخ مصر الإقتصادى والمالى - القاهرة سنة ١٩٥٣
- مبادئ فى السياسة المصرية - القاهرة سنة ١٩٤٨
- الأرض والفلاح - القاهرة سنة ١٩٥٧
- مصر والناصرية - بيروت سنة ١٩٦٤
- فى بناء البشر - القاهرة سنة ١٩٦٤
- الهجرة الريفية - القاهرة سنة ١٩٧٠
- طور الحركة الوطنية فى مصر القاهرة سنة ١٩٥٤
- الفلاح - القاهرة سنة ١٩٥٤
- الأقدام العارية - بيروت سنة ١٩٧٣
- الميكنة الزراعية - القاهرة سنة ١٩٦٠
- العمل والعمال فى مصر - القاهرة سنة ١٩٣٢
- نمط الإنتاج فى الآسيوى - بيروت سنة ١٩٧٢
- التحالف بين العمال والفلاحين - موسكو سنة ١٩٦٦
- قراءة حول المشكلة الزراعية - موسكو ١٩٦٧
- الإستثمار الرأسمالى فى الشركات المصرية - القاهرة سنة ١٩٣٦
- الخطة الزراعية فى القرية - القاهرة ١٩٧٢
- القرية المصرية - القاهرة ١٩٧٣
- القرية المعاصرة - القاهرة ١٩٧٥
- التعاونيات وتطور الإدارة المحلية - القاهرة سنة ١٩٦٩
- السياسة الزراعية - القاهرة ١٩٤٦
- الإصلاح الزراعى ، الطريق والفلسفة - القاهرة ١٩٧٦
- الإيجار والتعاونيات فى مصر - القاهرة سنة ١٩٦٩
- تاريخ مصر الإقتصادى - القاهرة سنة ١٩٥٨
- بونايرت فى مصر - القاهرة سنة ١٩٦٤
- من هنا نبدأ - القاهرة ١٩٥٢
- تطور الملكية العقارية فى مصر - القاهرة ١٩٦٧
- فائض القوى البشرية - القاهرة ١٩٦٩
- الزراعة العربية - الاسكندرية سنة ١٩٦٨
- مصر مجتمع عسكرى - بيروت ١٩٦٨
- الإقتصاد المصرى (١٩٥٠ - ١٩٧٠) - القاهرة ١٩٧٠
- الإصلاح الزراعى - القاهرة ١٩٥٧
- القاهرة ١٩٧١
- صراع الطبقات فى القرية المصرية - القاهرة سنة ١٩٦٨
- مشكلة العمالة والسياسة - بيروت ١٩٧٥
- هذا الإنفتاح الإقتصادى - القاهرة ١٩٧٧
- الإصلاح الزراعى والفقر فى مصر - ١٩٧٨
- إقتصاديات الملكية الزراعية ١٩٧٣

● إبراهيم رشاد	مشروع الزراعة التعاونية ١٩٤٠
● محمد رشاد	سرى جدا القاهرة ١٩٧٦
● محمد رشاد	عبد الناصر ومشكلة الفلاح ١٩٧٠
● ف. روزنشتاين	التاريخ المصرى قبل وبعد الإحتلال البريطانى - القاهرة ١٩٧٧
● رشدى ضالح	كرومر فى مصر - القاهرة ١٩٤٧
● حسن الساعاتى	الطبقة الوسطى فى مصر - القاهرة ١٩٥٧
● صادق سعد	مشكلة الفلاح - القاهرة سنة ١٩٤٧
● على صبرى	مشاكل التحول الإشتراكى - القاهرة ١٩٦٧
● رفعت السيد	تاريخ الفكر الإشتراكى فى مصر - القاهرة سنة ١٩٧٢
● خليل سرى	الملكية الريفية الصغرى - القاهرة ١٩٣٨
● م. تشاجنيكو	التركيب الطبقي فى الدول النامية - دمشق ١٩٧٢
● صبحى وحيدة	فى أصول المسألة المصرية
● منير الزلاقي	البطالة الزراعية فى مصر - الاسكندرية ١٩٦٩

٤ - كتب ومؤلفات باللغات الأجنبية

- g. Bar- History of land-ownrer Ship in Egypt Oxford 1969
- g. Clawson- Agriculturel Potentieils in middle and other east new york 1959
- E. Cromer- Modern Egypt Jenden 1968
- R. P. Dor Landreforms in Japan Oxford 1963
- M. Kamal Oxford 1963
- C. Essowi- Egypt in Revoltion Ox ford 1963
- J. Elesowi A Critic of the Copitalist Strategy for agricultural developement Ciairo 1964
- M. Abdul Fadil
- Developement in come distirlution and Social change in rural Laonon 19575
- g jruneferg- From mutual a graraion assistance to Socialist a giculture in G. D. R Dresden
- B. Hoselselitz- Sociological aspects of econmmic growth- new York 1960
- M. Kojito- Landreform in Japan Tokyo 1959
- M. Abdul Khalik- Agricultural refrom in Egypt (unpulbisked sytudy)
- lindon 1971
- D. Mead- Gtoweh and structural change in the Egyptionas econmy Illionis 1976
- S. Radwon- The anotomy of rural Poverty
- E. Lee In Egypt- Geveve 1982
- W. Rostow- The Sytages of econmoic growth a man non Cormmunist mamfesto- Combridge 1960
- J. Soal Agraieis reform ivn Egypt Oxford 1963
- H. El Soal Middele Class in Egypet Coiro 1957
- NV. I. Lenin- Developenent of Copitalism in Russo Mocow 1957

- G. Seicle- Die Land wirtschaft in der DDR Leipzig 1962
- T. Szentes- The Political economy of underdevelopment Budapest 1971
- S. Trilponov- The Political economy and its application in the developing lands- Moscow 1969
- D. Warriner- Landreform and development in middle East- London 1955
- F - Abdel Fatah - Agricultural Co- operatives in Egypt8 Frunze. 1971.
- S. Martey- U.A.R overturning the pyramids F.A.O Review- 1969.
- D Socialist Transformation in U.A.R. agriculture- L'egypte Contemporaine- Cairo 1969.
- F - Abdel Fatah - Agricultural Co- operatives in Egypt8 Frunze. 1971.
- S. Martey- U.A.R overturning the pyramids F.A.O Review- 1969.
- S. Nossar - Socialist Transformation in U.A.R. agriculture- L'egypte Contemporaine- Cairo 1969.
- R. Ghoneme - Economics and institutional organizations of Egyptian agriculture Since 1952. in Egypt Since the revolution - new york 1968

٥ - المجلات والدوريات

- جريدة الأهرام - برنامج الحزب الشيوعي المصري - ١٤ فبراير سنة ١٩٢١
- مناقشة مفتوحة حول مستقبل الأراضي الجديدة - مايو - يوليو سنة ١٩٦٨
- جريدة الجمهورية ● كيف إستطاع كبار الملاك التهرب من قانون الإصلاح - ٢٤ يناير ١٩٦٥
- ندوة حول الجمعيات التعاونية الزراعية - الدور المفضل - مارس ١٩٦٩
- ندوة حول مستقبل الأراضي الجديدة - ٦ - ١٣ فبراير ١٩٦٩
- جريدة الحساب ● مشكلة العمال الزراعيين - مارس ١٩٢٥
- جريدة المصري ● مذكرة الأحزاب حول قانون الإصلاح - سبتمبر ١٩٥٢
- مجلة المؤيد ● صفحات من محضر إجتماع الجمعية العمومية - ١٨٩٢
- مجلة الطلبة ● سبتمبر ١٩٦٦
- الطلبة الوفدية ● ١٩٤٩ - ١٩٥٣
- الهيئة العامة للتعبئة والإحصاء ● الكتاب السنوى - القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٧٣
- السكان والتطور - القاهرة ١٩٦٩
- الدخل القومي في الزراعة - القاهرة ١٩٧٣
- ميزانية الأسرة المصرية (١٩٦٤ - ١٩٦٥) يناير ١٩٦١ - ١٩٧٢
- وزارة الزراعة ● الإحصاء الزراعى الثالث ١٩٥٠
- الإحصاء الزراعى الرابع ١٩٦٧
- نشرة العلوم الزراعية القاهرة ١٩٦٢
- تقرير حول الميكنة الزراعية - القاهرة ١٩٥٩
- وزارة الإصلاح الزراعى ● الإصلاح الزراعى وإستصلاح الأراضى - القاهرة ١٩٦٤
- وزارة الادارة المحلية ● مطبوعات قسم الدراسات أبريل ١٩٦٩

- البنك الأهلى المصرى • التقرير الاقتصادى القاهرة ١٩٥٢
- التقرير الاقتصادى القاهرة ١٩٧٣
- المعهد القومى للتخطيط • الخطة الزراعية القاهرة ١٩٦٩
- السكان والعمل والانتاجية والزراعة القاهرة ١٩٧٤
- التعاونيات الزراعية وبنك التسليف القاهرة ١٩٧٣
- بحث عن توزيع الدخول القاهرة ١٩٧٣
- منطقة العمل الدولية • مشاكل العمال الزراعيين فى مصر جنيف ١٩٦٩

الفهرست

صفحة

٥	مقدمة
٩	الفصل الأول : علاقات الملكية والإنتاج قبل الإصلاح الزراعي
	الفصل الثاني : قوانين الإصلاح الزراعي ..
٣٣	من الذي خططها ، ومن الذي نفذها ؟
	الفصل الثالث : قوانين الإصلاح الزراعي وانعكاسها على علاقات
٥٧	وقوى الإنتاج
٨٥	الفصل الرابع : تطور القوى العاملة في الزراعة وتوزيع الدخل
١١٣	الفصل الخامس : التصنيف الطبقي والعلاقات الاجتماعية في الريف
١٣٧	المراجع
١٤٣	الفهرست

رقم الأيداع

٨٧ / ٢٣٥٦

طبع بدار المدينة المنورة
١١٤ ش مجلس الشعب — القاهرة

الناصرية

والتجديد في الفكر

لا يستطيع باحث جاد أن ينكر أهمية التطورات التي طرأت على المجتمع المصري عقب إسقاط الملكية على يدى حركة الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كما أنه بالمثل لا يمكن القيام بدراسة علمية ونقدية موضوعية لهذه التطورات دون تلمس الأسباب الموضوعية والذاتية التى أدت إلى تحجيم هذه التطورات ، وتعويقها عن أن تواصل فعلها التقدمى فى المجتمع ، وأخيرا نحو عناصر سلبية تمكنت فى نهاية المطاف من الانتكاس بهذه التطورات والإنجازات ..

وفى هذا البحث يقدم الكاتب رؤيته للناصرية ، مركزا على قانون الإصلاح الزراعى وتطبيقاته باعتباره كان رأس الرمح فى سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية الجوهرية ، وباعتبار الانقضاء عليه فيما بعد كان رأس الرمح فى عملية تراجعية شاملة فرضت على المجتمع المصرى بعد رحيل عبد الناصر .

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

الطبعة الأولى : ١٩٨٠
الطبعة الثانية : ١٩٨٠

الشمس

٥